

مكتبة

أرتزيباشيف سانين أو ابن الطبيعة

ترجمة: إبراهيم عبد القادر

تقديم: ماهر شفيق فريد



رواية فريدة، وتفردا راجع إلى عمق الأثر الذي أحدثته منذ صدورها في عام 1907. وهي تزخر بالتأملات الفلسفية وتتردد في جنباتها أسماء عديدة من صانعي الفكر والأدب والفن في القرن التاسع عشر، كما تتنوع فيها النماذج البشرية التي تصورها، من خلال رسم قوى للشخصيات وبراعة في الانتقال من موقف إلى موقف، وتشويق يأخذ بأنفاس القارئ وجرأة فكرية تبعث على إعادة التفكير في المسلمات.

سانين

أو

ابن الطبيعة

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2104
- سانين (ابن الطبيعة)
- أرتزيباشيف
- إبراهيم عبد القادر المازني
- ماهر شفيق فريد
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Sanin

By: Mikhail Artsybashev

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

سانين أو ابن الطبيعة

تأليف: أرتزيباشيف

ترجمة: إبراهيم عبد القادر

تقديم: ماهر شفيق فريد



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أرتزيباشيف
لبن للطباعة / تأليف: أرتزيباشيف، ترجمة: إبراهيم عبد القادر المازني
تقديم: ماهر شفيق فريد.
للقاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٣٢٠ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الروسية
(أ) فريد، ماهر شفيق
(ب) المازني، إبراهيم عبد القادر
(ج) العنوان
(مقدم)
(مترجم)
٨٩١،٧٣

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٣٨٣٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 712-981-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

د. ماهر شفيق فريد

هذه رواية فريدة، وإن لم تكن بالرواية العظيمة.

أما تفرداها فراجع إلى عمق الأثر الذي أحدثته منذ ظهرت في عام ١٩٠٧، وفي اصطراع الآراء واختلاف ردود الفعل إزاءها سلبا وإيجابا، إن قال هذا الناقد: ثمرة. قال آخر: جمرة.

لقيت روايات مؤلفها أرترزيباشيف رواجاً كبيراً في عصرها، خاصة في بولندا، حين كان القراء متعطشين إلى هذا النوع من الكتابة.

وقد كتب هذه الرواية في ١٩٠٣ ورفضها عدة ناشرين، ولم تقبل إلا بعد ثورة ١٩٠٥، حين أصبحت متوائمة مع الجو التشاؤمي السائد^(١).

يقول الأديب الإنجليزي كولن ولسون:

في (ساتين) لأرترزيباشيف ميزة بارزة، وهذه الميزة هي أنه لم تنل رواية مشهورة أخرى ما نالته (ساتين) من الهجوم والنقد المتواصلين، فالأمير ميرسكى يقول عنها: إنها "حادثة غريبة يؤسف لها في تاريخ الأدب الروسي"^(٢).

ويقول مؤرخ الأدب الروسي مارك سلونيم:

تصف روايته (ساتين)، وهي تتحدث عن الحرية الجنسية، في تفاصيل طبيعية، مغامرات "إنسان أعلى"، وقد لقيت رواجاً كبيراً..

وأخذ بعض القراء أرتزيباشيف مأخذ الجد، بل إنهم تحدّثوا عن
"فلسفته"، ولكن الزمن أظهر نفاهة وسطحية رواياته ومسرحياته
بوضوح^(٣).

ويقول يانكو لافرين:

"راجت قصته 'ساتين' (١٩٠٧) راجا عظيما بسبب إتجلبها عن
"الجنس المتحرر" المضاف إليه نوع إقليمي رخيص من أنواع "فوق
الخير والشر"^(١).

ويعصف الأديب الإنجليزي ج.ب.برستلي الرواية بأنها "أهون شأننا من
"العفريت الصغير" لتيودور سولوجب، كتابة سطحية عن الحب الحر والجنس،
ولكنها قراءة مسكرة لطالبات المدارس الروس في ١٩٠٧، وموضع نقاش كبير -
بعد ذلك بعام أو عامين - بين طلبة الجامعة "التقدميين" في الغرب"^(٥).

أما بول وست فيقول في كتابه "الرواية الحديثة":

كهربت "ساتين" جمهورا ملولا اتفشع عنه السحر بعقيدة حسية مثيرة،
إنها رواية إيروطيقية على نحو يرفض عرقا، وقد أوجدت شهية كتب
أرتزيباشيف من أجل إشباعها رواية جنسية أخرى هي "اللبونير"
(١٩١٠)^(١).

بطل الرواية فلاديمير سائين: شاب روسي يدين بمذهب اللذة، ولا يلقي بالا
لتعاليم الدين أو عرف المجتمع أو كوايح الأخلاق: أعطى مقادته للشيطان فباض
في رأسه وفرّخ حتى ما عادت به مُسكّة من خير أو بقية من ضمير، ويلخص
كولن ولسون حبكة الرواية تلخيصا أنقله هنا، معتذرا عن طوله، ولكنه حري أن
يعين قارئ الصفحات التالية على متابعتها:

"إن التلميذ الشاب ساتين يعود إلى مدينته الريفية وإلى العيش مع أمه وشقيقته، ويكون قد ساهم في بعض النشاط الثوري، ولكنه لا يشبه معاصريه؛ لأنه صحيح العقل وغير مكترث للموانع الأخلاقية، وغالبا ما يذكر أكتراثه القارئ بستافروجين بطل دوستوفسكى، ولكن ساتين يحب الحياة ويتقبلها كما هي، وتهدف عقيدة الكتاب إلى إظهار موقف ساتين المرح المنفتح للحياة، ولشقيقته ليذا خاطبان أولهما هو طبيب خجول، والثاني هو ضابط وحشى الطباع يدعى سارودين وهو يغويها ويفسدها، وحين تكتشف أنها حامل تحاول الانتحار ولكن ساتين يقطعها بالأفعال ذلك، ويقول لها: إن الأمور ليست بذلك السوء، ويقنع الطبيب الخجول بأن يتزوجها، وفي يوم من الأيام يحضر سارودين إلى البيت ليطلع أحد أصدقائه على عشيقته السابقة فيطلب منه ساتين أن يغادر البيت، إلا أن سارودين يطلب أن يبارز ساتين، في حين أن ساتين ينظر إلى هذه المثل العسكرية عن (الشرف) باعتبارها من الأمور البالية ويرفض المبارزة، وبعد ذلك يقابل سارودين في حديقة عامة ويحاول سارودين أن يثيره ليمارزه وذلك بأن يهاجمه بسوط، ولكن ساتين يلقي به أرضا ويصيبه بكلمة قوية في عينه، ويمتاء سارودين استياء جنونيا؛ لأن ساتين ضربه في محل عام، ولأنه لا يستطيع أن يبارزه لأنه يرفض ذلك، فينتحر سارودين هذا.

وهناك شخصيات أخرى في الرواية وعقد ثانوية عديدة، فهناك تلميذ كنيب يدعى يورى ينفق جل وقته في التفكير فى جدوى عيش الحياة، ويحب يورى فتاة تدعى سينا، وتحبه هى بدورها،

إلا أن يورى لا يتزوج الفتاة وإنما يفكر فى لا جدوى الحياة البشرية وينتحر، ونجد أن صحيح العقل ساتين هو الذى يغوى الفتاة، وبعد موت يورى يطلب من ساتين أن يقول بضع كلمات على قبره فيقول: (إن العالم نقص أحمق آخر) ويفزع بذلك الحاضرين جميعا.

وهناك حوادث موت أخرى فى الكتاب، إذ يموت سيمينوف التلميذ المسلول فى المستشفى ويتضح موقف ساتين الصحنى من الحياة آنذاك، وهناك ثورى يدعى سولو فايتشيك يشعر بأن الحياة غير مجدية، وينتحر، وهو مثالى تسحره الفكرة المسيحية التى تقول بأن هذا العالم هو وادى الأسى والألم ويجب أن ينبذ، ويقص ساتين على سولوفايتشيك قصة تشرح بكل وضوح موقفه اللينشى، فلديه صديق مسيحى اسمه لاندو لديه قدرة هائلة على التضحية الذاتية (وكان لاندو قد ظهر فى قصة أرترىباشيف التولستوية الأولى)، وفى يوم من الأيام ضرب أحد التلاميذ ساتين بينما كان لاندو، ينظر، ونظر ساتين إلى لاندو وخجل من أن يضرب ذلك الطالب بدوره فاستدار وأبعد، ولكنه شعر بعد ذلك بأن (الانتصار المعنوى) كان زائفا؛ لأنه كان قد أشبع رغبة الطالب المعادى، فاختر ساتين أول فرصة منحت له للعراك وأشبع ذلك الطالب ضربا مبرحا حتى أفقده شعوره، واستاء لاندو كثيرا، ولكن ساتين بدأ يشعر بشعور أفضل بعد ذلك، ثم يؤكد سولوفايتشيك لساتين أنه على خطأ، وأن لاندو كان محقا وينهى الحديث بالطلب من ساتين بأن يجيب عن السؤال التالى: هل يجب أن ينتحر الشخص الذى لا يجد متعة فى الحياة، فيجيب ساتين بلا اكتراث: أنت ميت بالفعل وأفضل مكان لك هو القبر، ويتركه بعد ذلك لينتحر.

وفى نهاية الكتاب يغادر سائين المدينة - يتبعه غضب أهل المدينة -
الخلقى، ويصعد إلى القطار، ثم يضجر من جو القطار الخائق
الملئ بالدخان، وبينما يبرز الفجر متألقا على السهول، يقفز من
القطار تاركا أمتعته وراءه، ويقف متأملا الفجر مستمتعا بجمال
الطبيعة والحقول الخضراء" (٧).

سائين إذن شيطانى فى مسلخ إنسان، ووحش فى إهاب رجل، قد ركب كل
صعب وذلول فى أمره، واتخذ كل سبيل إلى الظفر بلذاته، إنه أخو أسفار قد أبر
وأبحر، وهو خلب نساء يخادعن برقيق الحديث فيملن إليه، بل هو يكاد يشفى على
الزنا بأخته من أبيه وأمه، شعاره النتنسوى رهبوت خير لك من رحموت، بمعنى أنه
لأن تُرهب خير لك من أن تُرحم، لقد عبّ من كأس الحياة فما أبقى فيها سُورة ولا
خلف بقية، فهو سادر فى غيه، تائه فى ضلاله، ولكنه - على ذلك - لا يخلو من
جاذبية تستهوى النساء والرجال، وفيه صلابة (تكاد تشفى على بلادة الإحساس
بآلام الآخرين) فلا تلين قناته لغامز.

ولذية سائين يعبر عنها قوله لأخته ليذا، وكأنما يحرضها على الخطيئة
تحريضا: "إن الناس لا يزالون أبدا يقيمون سورا من أسوار الصين بينهم وبين
سعادتهم" (الفصل السابع).

أو قوله فى موضع لاحق من الرواية: "إنى أعرف شيئا واحدا هو أنى
لا أريد أن تكون حياتى شقية؛ لذلك يجب على المرء أن يرضى رغباته الطبيعية
قبل كل شيء. إن الرغبة هى كل شيء. ومتى انقطعت الرغبة انقطعت الحياة
معها، وإذا قتل المرء رغباته فإنه يكون قد قتل نفسه" (الفصل الثانى عشر).

إن سائين يتحرك خارج نطاق الخير والشر بمعناهما المصطلح عليه، فلا هو بالأخلاقي ولا اللا أخلاقي، وإنما هو "ابن للطبيعة" التي هي - تعريفاً - وراء مجال الأخلاق *amoral* (نتذكر هنا مقولة نيتشه: "إن ما هو طبيعي لا يمكن أن يكون لا أخلاقياً"). وحضور نتشه في الرواية قوى محسوس، وإن يك سائين - في إحدى المناسبات - قد حاول قراءة كتاب "هكذا تكلم زرادشت" ولكنه زهد في إتمامه إذ ملّ أسلوبه المنفتح (الفصل الثالث).

ولعل أبرز تجليات هذا الحضور النتشوي هو ما تتضمنه الرواية من حملة على المسيحية (الفصل الرابع عشر) وتشكيك في وجود الله (الفصل الثاني عشر) وخط من شأن المرأة (الفصل الخامس عشر).

ونحن نجد في مواقع متفرقة من الرواية ذكراً لأسماء تولستوى ودوستوفسكي وصراعاتهما الروحية، وما ينم على تأثر بمفكر روسي فوضوي هو ماكس شترنر (١٨٠٦-١٨٥٦)^(٨).

وتتردد في جنبات الرواية، كأصداء متجاوبة أسماء أخرى من صانعي الفكر والأدب والفن في القرن التاسع عشر: دارون، إيسن، تشكوف، كنوت هامسون، إن أهواء الشخوص برية جامحة، فيها شرّة الغضب وحدة الشباب، هدفها الأكبر الأطباء: الأكل والنكاح، وغايتها الفتانان: الدرهم والدينار.

والشخصيات نماذج إنسانية متباينة غاية التباين: فيها من هو لين العريكة سلس متقاد، ومن هو شديد العريكة ألبى شديد النفس، فيها العارف بالجميل شاكر آلاء الباري والكنود الجاحد لوّام ربه يذكر المصيبات وينسى النعم، فيها القوى ذو المرّة واللين إلى حد الضعف، فيها كريم النّحيزة رضى الطبع، وفيها دنىء النفس سيئ الخلق.

وفى المركز من هذه الشخصيات - بطبيعة الحال - البطل (أو البطل - الضد) الذى سُميت الرواية باسمه: أبيقورى لا يردع نفسه عن هواها، وفى سبيله لا يعرف إصرًا ولا يرعى عهدًا، وهو ذو بدوات يسنح له الرأى فيستجيب له من وحى اللحظة دون تروٍّ ولا مراجعة، يختلف عليه الجديان من ليل ونهار، ولكنه يظل رابط الجأش، واثق النفس، ساخرًا فى قسوة أو قاسيا فى سخريّة.

على أن سائين لا يستقل وحده بالزمّام، فإن حظ يورى من بطولة الرواية لا يقل - فى رأى - عن حظ سائين.

وتزخر الرواية بالتأملات الفلسفية (أم هل نقول الفلسفية الزائفة؟) ومن أمثلتها سؤال يورى لسائين: "وما قولك فى الطبيعة؟" فيضحك سائين ضحكة خفيفة ويلوح بيده مستخفاً ويقول: "الطبيعة؟ هاها، إنى أعلم أن من المألوف أن نقول، إن الطبيعة بالغة حد الكمال، والحقيقة هى أن الطبيعة مثل الإنسان نقصا وعيوبا، وفى وسع كل منا بدون جهد كبير أن يتصور عالما يكون خيرا من هذا مائة مرة، لماذا لا تكون الحرارة والضوء سرمدًا علينا والرياض خضراء نضيرة طليقة أبداً؟" (الفصل الثانى عشر).

ولا يقل يورى عن سائين نزوعا إلى التأمل، وإن كان أقل منه لذية، وفلسفته أقرب إلى الحكمة الحزينة (التعبير لعلّى أدهم) لسفر الجامعة من أسفار العهد القديم، فهو يقرأ منه: "أى ربح يجنيه الإنسان من كل تعبته تحت الشمس؟ جيل يمضى وجيل غيره يأتى ولكن الأرض تبقى إلى الأبد" "والشمس أيضا تطلع وتتحدر وتسرع إلى مكانها الذى طلعت منه والريح تهب صوب الجنوب ثم تكرر إلى الشمال وتدور أبداً" "ما رأيناه أمس نراه اليوم وسنراه غدا، لا جديد تحت الشمس". (الفصل الثالث والثلاثون).

وتنتهى الرواية وقد قرر سانين الرحيل بعد أن غلبه الملل فهو يثب من
القطار ويرتمى على الرمال البليلة اللينة، هنا نبذة أمل وتأهب لاستقبال الحياة، مثل
ستفن ديدالوس فى ختام رواية جويس "صورة فنان شاب" أو بول موريل فى ختام
رواية د.هـ. لورنس "أبناء وعشاق".

وأوفى ما كتب باللغة العربية عن رواية "سانين" مقالة لزهير أحمد القيسى
عنوانها "أرتزيباشيف الظلامى وروايته سانين" نشرت فى مجلة "الأقلام" البغدادية
(العدد الرابع، السنة التاسعة ١٩٧٣) ، ويبدأ القيسى مقالته بقوله:

"فى سنة ١٩٢١ صدر فى القاهرة كتاب عن (مسامرات الشعب) أكبر
وأقدم المجلات الروائية العصرية المصورة اسمه (ابن الطبيعة) من
تأليف (ميشيل أرتزيباشيف) وترجمة (إبراهيم عبد القادر المازنى)(٩)،
ومنذ أن وقفت على هذه الترجمة لهذا الكتاب وأنا دائب على تقصى
أخبار مؤلفه، فلم أقع فى هذه الرحلة الطويلة على شىء منها،
ولا سمعت ممن أعرفه شيئا عنها خلا إشارة عابرة وردت على لسان
محمد مهدى الجواهرى فى حديث صحفى عابر أدلى به إلى المرحوم
حميد رشيد جاء فيه: إن أهم كتاب قرأته فى حياتى هو (سانين). كما
ورد ذكر الرواية فى الجزء الأول من مذكرات ميخائيل نعيمة المعنونة
"سبعون".

ويسوق القيسى تلخيص كولن ولسون لرواية "سانين" وهو ما سقته
أعلاه مضيفا أن ولسون يذكرها مرة أخرى فى ثلاثة كتب أخرى له،
مترجمة إلى العربية: "المعقول واللامعقول فى الأدب الحديث" (عنوانه
فى الأصل الإنگليزى: "القوة على الحلم") و"رحلة نحو البداية"، وأصول

الدافع الجنسي"، كما أن ميخائيل شولوخوف يذكر "ساتين" في روايته "الدون الهادي"، ويختم القيسى مقالته بقوله: "ينتهي هذا العمل الأدبي الظلامي المغرق في رجعيته وتشاؤمه بهذه الصرخة التي يطلقها ساتين: لمست أنتظر من الحياة شيئا أو أسألها شيئا".

حسبنا هذا عن الرواية ولننتقل الآن إلى مؤلفها ومترجمها. أما المؤلف فهو ميخائيل بتروفيتش أرتزيباشيف (١٨ أكتوبر ١٨٧٨ - ٣ مارس ١٩٢٧). ولد في جنوبي روسيا لأسرة من سلالة التتار، بدأ حياته دارسا للفن وأحرز بعض الشهرة رساما الكاريكاتير، ثم تحول إلى كتابة القصص القصيرة فالروايات، في ١٩١٢ سجنته حكومة القيصر عدة أشهر لنشاطه الثوري، أظهرته روايته الأولى "ساتين" (١٩٠٧ - ظهرت ترجمتها الإنجليزية في ١٩١٥) في صورة المتمرد على كل الكوابح الاجتماعية. وهي - ورواياته التالية - تعرض مجتمعا في حالة تحلل وتقدم صورة سخرية شائنة مبالغا فيها للجريمة والحمافة، كان عدوا للمرأة على نحو عنيف، بل فاق في ذلك تولستوى صاحب رواية "نحن كرويتزر"، من أعماله الأخرى "حكايات"، "عند أقصى حد"، "قانون كاره للبشر"، "الغيرة"، ومسرحية عنوانها "الحرب".

وقد غادر أرتزيباشيف روسيا في ١٩٢١ وقضى بقية حياته بهاجم الشيوعية^(١٠).

وأما مترجم الرواية فهو إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩) القاص الشاعر الناقد الصحفي كاتب المقال والمترجم، وإضافاته إلى تراث الترجمة كثيرة نذكر منها:

- الكتاب الأبيض: مجموعة المكاتبات المتبادلة بين النبي ووزارة الخارجية الإنجليزية حول وثائق تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢.
- مختارات من القصص الإنجليزي، القاهرة ١٩٣٩.
- جريمة اللورد سافيل لأوسكار وايلد، القاهرة ١٩٤٤.
- حكم المقصلة لرفائيل ساباتيني، القاهرة ١٩٤٤.
- الآباء والأبناء لتورجنيف، القاهرة د.ت.
- آلن كاترمين لريدر هاجارد، القاهرة د.ت.
- مدرسة الوشايات لشريدان، القاهرة د.ت.
- وله ترجمات أخرى فى دوريات منها:
- صريع الكأس لتشارلز دكنز ١٩١٢.
- الشخصية والأخلاق لـالف والدو إمرسن ١٩١٢.
- التربية الطبيعية أو إميل القرن العشرين لروسو ١٩١٢-١٩١٣-١٩١٤.
- جلسات المحكمة العسكرية برئاسة البريجادير جنرال لوصون ١٩٢٠.
- من الأدب الروسى (دون ذكر اسم الكتاب الأصيل) ١٩٣٠^(١١).
- وقد نبغ المازنى فى ممارسة فن الترجمة^(١٢) وفى ذلك يقول صديقه العقاد:
- "إن المازنى قد امتاز بملكة أخرى كاد أن ينفرد بها فى الآداب العالمية،
وهى ملكة الترجمة المطبوعة أو ما يصح أن نسميه بعقريّة الترجمة؛
لأنه استطاع بترجمته أن يرد الكلام أصيلاً كأنه لم يكتب قبل ذلك بلغة

أخرى ولم يصدر عن قريحة سابقة، فقد كان يترجم الكلام فى سليلته شعورا قبل أن يترجمه لفظا ومعنى فيجيش به كما جاش به صاحبه ويعبر عنه بعد ذلك كأنه ينقل قطعة من حسه وخياله ويصنع ذلك بالكلام المنظوم، كما يصنع بالكلام المنثور، فإذا به قد نقل روحه وطلاوته وموسيقاه وما يتخلل عباراته من ظلال المعانى المستترة وخفاياه المضمونة".

ويتحدث العقاد عن طبع الاستخفاف وقلة الاكتراث فى شخصية المازنى فيرده - بدرجة كبيرة - إلى قراءته رواية "ساتين" وتأثره بها؛ يقول العقاد:

"أما الجانب الذى أوحى به المطالعة فأحسبه راجعا على الأرجح إلى كتابين من الأدب الروسى: أحدهما قصة "ساتين" لمؤلفها "أرتريباشيف" والآخر قصة "الآباء والأبناء" لتورجنيف وكتاهما تخلق الاستخفاف على الأقل حين قراءتها لمن لا عهد له بالاستخفاف، ولست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل "ساتين" بطل القصة الأولى مع إنكاره منه لتلك الحيوانية اللجوج التى مثله بها مؤلف القصة، وقد بلغ من رضاه عنها أن ترجمها باسم "ابن الطبيعة"، وأنه كان يردد بعض "توازم" ساتين فى كلامه بعد قراءتها بسنوات" (١٣).

ويحدثنا المازنى (فى ١٩٣٧) عن تأثير الرواية فى نفسه فيقول:

"بقيت أياما فى البيت زارنى خلالها صديقى الأستاذ العقاد وترك لى رواية روسية أتسلى بها، فأكبيت عليها وقرأتها فى ساعات أحسست بعدها أنى صرت أقوى وأصح بدنا، وأقدر على المكافحة والنضال فى الحياة، وأنه صار فى وسعى أن أستخف بما يحدث لى تسقم الأعصاب من الوهم، وعدت إلى القاهرة ومضى عام فطلب منى بعضهم أن أترجم له رواية، فقلت لنفسى: إنى مدين لهذه الرواية الروسية بشغافى

وبالروح الجديدة التى استولت علىّ، فيحسن أن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيرى كما نفعتنى، وقد كان نقلت الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسمودات، فيقول لى العامل أحيانا: إن الأصول نفدت فأقعد فى أى مكان وافتح الرواية وأروح أترجم وأرمى للعمل بالورقة بعد الورقة وكأنى أدون كلاما حفظته من قبل^(١٤).

وفى موضع آخر من كتاباته (١٩٣٠) يقول المازنى:

تم أكد أفرغ منها حتى رأيتنى قد انقلبت مخلوقا آخر، وأعدتلى روح بطلها بقوتها وجراتها على الحياة، وبالبساطة فى مواجهة ما يقع له فيها، وباستقامة النظرة وسداد الاتجاه، فشفيت واستغنيت عن الأطباء والعقاقير.. ولست أقول: إن هذه خير رواية كلا، وإنما أقول: إنها شفتنى وقوتنى ونفشت فى روحا كانت حاجتى إليه عظيمة، ولقد كنت قبلها أعتقد أن عمرى لن يطول أكثر من خمس سنوات، فصرت بعدها أكاد أومن بالخلود فى الدنيا^(١٥).

ومن عجب أن يعتمد المازنى - وهو مترجم الرواية - إلى السطو على فقر كاملة - تكاد تبلغ صفحات - منها، دون أن يخشى فطنة عين إلى ما صنع، وذلك فى روايته العظيمة "إبراهيم الكاتب" (القاهرة ١٩٣١)، وقد أثبت قضية أخذه منها فى عصره، وحاول الدفاع عن نفسه، ولكن دفاعه جاء أعرج لا يصمد لامتحان، قال فى مقالة له عن السرقات الأدبية نشرت فى مجلة "الرسالة" (٢ أغسطس ١٩٣٧): "الواقع هو أن صفحات أربعة أو خمسا من رواية "ابن الطبيعة" علقنت بذاكرتى - وأنا لا أدري - لعمق الأثر الذى تركته هذه الرواية فى نفسى فجرى بها القلم وأنا أحسبها لى، حدث ذلك على الرغم من السرعة التى قرأت بها الرواية

والسرعة العظيمة التي ترجمتها بها أيضا، ومن شاء أن يصدق فليصدق، ومن شاء أن يحسبني مجنونا فإن له ذلك، ولست أروى هذه الحادثة لأدافع عن نفسي فما يعينني ذلك، وإنما أرويه على أنها مثال لما يمكن أن تؤدي معايشة الذاكرة للإنسان، وليست الذاكرة خزانة مرتبة ميوبة، وإنما هي بحر مانج يرسب ما فيه ويطفو به بلا ضابط نعرفه، ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان^(١١).

على أن المرء لا يملك إلا أن يبتسم، بشيء من التعاطف، مع هذا العبث الفني الذي لا ينفصل عما دعاه العقاد "الطفولة الخالدة" في طبيعة النوابع، وفي طبيعة المازني بخاصة، فقد كان - إلى جانب تشاؤمه العميق وجده الصارم وأحزانه الدفينة - يحب المرح والمجانة والعبث وركوب الآخرين بالسخرية والشيطنة، وله في ذلك نواذر، وقد أورد الباحثون والنقاد نماذج من نقوله عن "سانين" لا تدع مجالا للشك في أنه كان ينقل منها نقلا^(١٢)، ولما كانت هذه الحادثة قد أصبحت فصلا معروفا من فصول التاريخ الأدبي بخيره وشره، فإني لن أزيد عن أن أشير إليها هنا مع الإدلاء بملحوظة أو ملحوظتين.

الملحوظة الأولى هي أن المازني لم يكن بدعا بين أبناء جيله - والجيل الذي أعقبه - في الاهتمام بالأدب الروسي واستيحاءاته، لقد لمس هذا الأدب وترا حساسا في العقلية الشرقية ونفذ إلى أعماق قرائه، كما نرى في حالة أعضاء "المدرسة الحديثة" التي أسسها أحمد خيرى سعيد في ١٩٢٨، وفي ذلك يقول يحيى حقي في كتابه العظيم - على وجازته - "فجر القصة المصرية":

«قرأوا الأدب الروسى وبهرهم جوجول وبوشكين وتولستوى
ودستوفسكى وترجنيف وأرتزباتشيف وأخيرا جوركى، فهذا أدب يتحدث
بحرارة وانفعال شديد عن الاعتراف والنزعة إلى التطهر والقضاء،

والبكاء على مآسى الحياة، والإيمان بالقدر والثورة عليه فى وقت واحد، يحدثهم عن الصلاة والتراتيل، وعن الخمر والبغاء، والجريمة والعقاب، والقديسين والشياطين (الشيطان نفسه بطل يظهر فتراه العين فى قصة إخوان كرامازوف، الفلاح الساذج بطل تورجنيف، والتلميذ الفقير الجائع بطل عند دستوفسكى، بل دهشوا حين رأوا هذا الأدب - إلى جانب حفاوته بدراسة النفس البشرية والمشاكل الاجتماعية - ليس بأقل حفاوة من وصف الطبيعة ومشاهدها والتقى بجمالها، كل هذه أجواء توافق مزاج الشاب الشرقى الملتهب العاطفة، المحروم من الحب»^(١٨).

ولد هذا الاهتمام كتابات نقدية كثيرة عن أعلام الأدب الروسى المذكورين أعلاه (ولنصف إليهم تشكوف) مع بعض ترجمات للعقاد ومحمد السباعى، وسلامة موسى، ويحيى حقى، وإبراهيم المصرى، وعلى أدهم، وحسن محمود، وغيرهم، بحيث غدت الرواية والأقصوصة الروسية جزءا من المناخ الثقافى فى الحياة الأدبية المصرية، ابتداء من عشرينيات القرن الماضى أو نحو ذلك؛ مما يفسر - وإلى حد ما يبرر - انجذاب المازنى إلى "سانين".

والملاحظة الثانية هى أن المازنى - على ترسمه الوثيق لخطى أرترىباشيف - لا يفقد أبدا طابعه الشرقى الأصيل، ولا روحه المصرية الفكهة العذبة، فهذا - فى ترجمته - نص جمع بين اللفظ الشريف والمعنى البديع، مع ميل إلى أوابد الكلام وغرائبه وعزوفه - أحيانا - عن المأنوس من المفردات والتراكيب إلى المهجور.

ولست أجهل أن بعض القراء قد يشكو من استخدام المازنى لكلمات وعبارات قاموسية من قبيل "الورهاء - أتأرت نظرها - مائق - جون يتعاضم

المجتاز- كان الظلام طاخيا، البرق لا يكف عن الإثخان فى كبد السماء - تسف
هياديها - كان الليل فى الغابة أسحم طاخيا". لكنى لا أجد فى هذا مدعاة للشكوى،
بل أجد فيه - على العكس - لذة عقلية ومجلبة للحمد ورجوعا إلى بلاغة الأقدمين
فى عصرى وفهامة، فنحن نعيش - كما يقول عزيز أباطة - فى مرحلة منع فيها
نهار اللغة العربية وتتأوتحت حولها أعاصير الرطانة^(١٩).

ولا يغيب المازنى الشاعر عن الترجمة ("المازنى شاعر وإن يقل بغير ذا-"
العقاد)، فهو يترجم مثلا هذه الأبيات التى تغنيها سينا فى الفصل السادس نظاما:

يا حبيب النفس يا خير حبيب !

لن أتاجيك بسرى أبدا

لا ولن أكشف عن حر اللهب

وإذا ما حنت العين إليك

وصبت، أرخيت جفنى جلدا

فأنطوى سر الهوى عن ناظريك

إلى آخر الأبيات.

هذه- أيها القارئ الكريم- لمحة عن رواية "سانين" ومؤلفها ومترجمها، ترى
منها- كما أسلفت- تنوع النماذج البشرية التى تصورها: فمن متبول ذهب الحب
بعقله وأسقمه إلى قوى متمالك لزامه، ومن غوى سادر فى غيه إلى تائب جعل
يقرع السن ندما على ما جنى، ومن رواقى على مذهب زينو إلى أبيقورى على
سنة أريستيبوس، ومن متأثم من الصغائر بجانب لها إلى عاكف على الكبائر ساع

وراءها، ومن فتاة عفيفة حصان رزان إلى أخرى سارت على البهل وتجاوزت حدود الحشمة، وفي المركز من هذا كله بطل هو شيطان مرید لا ینفع فیہ تأدیب ولا تأدیب، ومن عجب أن ینجو بفعلته فی کل مرة علی حین یدفع الآخرون - رجالا ونساء - ثمن أخطائهم باهظا، وقد یكلفهم حیاتهم ذاتها، قل ما شئت عن عیوب الروایة، أو ضحالة فلسفتها، فلن ننکر علیها مزايا أخرى تربو علی ما سلف وتزید: رسم قوی للشخصیات، بلاغة فی وصف أحوال النفس وتباریح الشوق، براعة فی الانتقال من موقف إلى موقف، تشویق یأخذ بأنفاس القارئ؛ إذ یقلب الصفحات، جرأة فکریة تبعث علی إعادة التفکیر فی المسلمات، وقد وجدت هذه الروایة المغروسة فی تربة روسيا القرن التاسع عشر فی المازنی خیر من ینقلها إلى تربتنا الشرقیة فینبتها نباتا حسنا، وینطقها بلسان عربی مبین.

هوامش

- (١) مارتن سيمور - سميث، مرشد إلى الأدب العالمي الحديث، ماكميلان، لندن ١٩٨٥، ص ١٠٥٢-١٠٥٣.
- (٢) كولن ولسون، المعقول واللامعقول في الأدب الحديث، ترجمة: أنيس زكى حسن، دار الآداب، بيروت، كانون الثاني، ١٩٧٢، ص ٢٢٠.
- (٣) مارك سلونيم، مجمل تاريخ الأدب الروسى، ترجمة: صفوت عزيز جرجس، مراجعة على أدهم، دار التضامن للطبع والنشر ١٩٦٧، سلسلة الألف كتاب (٦٢٦) ص ١٩٩.
- (٤) يانكو لافرين، تعريف بالرواية الروسية، ترجمة: مجد الدين حنفى ناصف، مراجعة: على أدهم، سلسلة الألف كتاب (٤٣٧)، دار النهضة العربية ١٩٦٢، ص ١٩٧.
- (٥) ج.ب. برستلى، الأدب والإنسان الغربى، كتب ميركورى، لندن ١٩٦٢، ص ٢٩٠.
- (٦) بول وست، الرواية الحديثة، ج ٢، مكتبة جامعة هتشنسون، لندن ١٩٦٧، ص ٣٨٨.
- (٧) كولن ولسون، المعقول واللامعقول، ص ٢٢١-٢٢٣.
- (٨) انظر عن ماكس شترنر: مقالة "سانين: رواية" بقلم: رودلى ل. باترسن، فى مجلة "أوراق كندية سلافية" ديسمبر ٢٠٠١. وانظر كتاب كامل زهيرى: مذاهب غريبة، سلسلة كتب للجميع (١٢٩) يونيو ١٩٥٨.
- (٩) فى كتابها "أدب المازنى" (مؤسسة الخانجى بالقاهرة ١٩٦١) تذكر الدكتوراة نعمات أحمد فؤاد أن المازنى ترجم سانين سنة ١٩٢٠ ونشرها الأستاذ خليل صادق صاحب مجلة "مسامرات الشعب" الروائية فى عامها الثانى والعشرين.

- (١٠) مارتن سيمور - سميث، الأدب العالمي الحديث.
- (١١) انظر د. حمدي السكوت ومارسدين جونز، من أعلام الأدب المعاصر في مصر (٢) إبراهيم عبد القادر المازني، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٩.
- (١٢) انظر عن المازني مترجما: د. نعمات فؤاد، أدب المازني/ د. محمد شاهين، "الترجمة عند المازني بين روح النص وفضاءات السياق" في كتاب: المازني إبداع متجدد، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١. ويركز الناقدان على ترجمة المازني لرواية هـ. ج. ولز "آلة الزمان".
- (١٣) عباس محمود العقاد، كلمة في تأبين المازني ألقى بالجمعية الجغرافية مساء ١٩/٩/١٩٤٩ في حفل المجمع لتأبين المازني، ونشرت في كتاب العقاد: بحوث في اللغة والأدب، مكتبة غريب ١٩٧٠، ص ١١٣، ١١٨-١١٩.
- (١٤) إبراهيم عبد القادر المازني، "السراقات الأدبية" (١٩٣٧) في كتاب: المازني، الأعمال غير المنشورة، المجلد الأول، التأملات والذكريات، جمع وتحرير وتقديم عبد السلام حيدر، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦، ص ٣٤٣.
- (١٥) المازني، "أهم حادث أثر في مجرى حياتي" (١٩٣٠)، للمرجع السابق، ص ٤٧.
- (١٦) المرجع السابق، ص ٣٤٣. ويعقد المازني مقارنة بين تأملات يوري في رواية "سانين" وتأملات المعري شعرا ونثرا؛ انظر مقالة المازني "أبو العلاء المعري" (١٩٤٤) في كتاب: المازني، الأعمال غير المنشورة، المجلد الثاني، نظرات نقدية عامة، جمع وتحرير وتقديم عبد السلام حيدر، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦، ص ٤٠١-٤٠٣.
- (١٧) من الكتب والمقالات التي تناولت سرقة (فهى لا توصف بأقل من هذا) "إبراهيم الكاتب" من "سانين":
- محمود أحمد: بين قصتين: إبراهيم الكاتب وسانين، مجلة الحديث (حلب) آذار ١٩٣٢، ص ١٩٥ (أعيد نشرها في كتاب د. أحمد إبراهيم الهوارى: مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٣).

- د. نعمات أحمد فؤاد: أدب المازنى.
- عمر أبو النصر: بين المازنى وخصومه: رأينا فى السرقات الأدبية، مجلة "الحديث" (حلب) مايو ١٩٣٢.
- د. عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ١٨٧٠-١٩٣٨، دار المعارف ١٩٦٣.
- فاروق عبد القادر، من أوراق الرفض والقبول: وجوه وأعمال، دار شرقيات للنشر والتوزيع ١٩٩٣.
- فاروق خورشيد، مع المازنى، كتاب الهلال (العدد ٤٠٦) أكتوبر ١٩٨٤.
- وممن دخلوا حومة النقاش من مصر: محمد كامل مصطفى الخياط وتوفيق الطويل، ويذكر د. محمد مصطفى بدوى فى مقالة له (بالإنجليزية) عن "المازنى الروائى" (مجلة الأدب العربى، المجلد الرابع ١٩٧٣، الناشر: أ.ج. بريل لايدن، هولندا) أن المستشرق هاملتن جب فى كتابه "دراسات فى حضارة الإسلام" (لندن ١٩٦٢) ناقش أثر أرترىباشيف فى رواية المازنى، ولم يتح لى، للأسف، الاطلاع على ما قاله جب فى هذا الصدد.
- (١٨) يحيى حقى، فجر القصة المصرية، الهيئة العامة المصرية لقصور الثقافة، مارس ٢٠٠٨، ص ٨١-٨٢.
- (١٩) تقديم عزيز أباطة لديوان العوضى الوكيل: شفق، ديسمبر ١٩٥٩.

اهداء الكتاب

إلى ذكرى من لا تزال ذكرها المحبوبة تجدد في قلبي حسرة الوجد
وزفرة الجوى ، إلى من كانت مصدر إلهامى ، وشريكة مجهوداتى فى صفوة
ما سطره يراعى ، إلى الصديقة الوفية ، والزوجة المخلصة التى كنت أجد من
راسخ إيمانها بالحق ورفيع تقديرها للصدق أحت مشجع ومهيب ، كما كنت
أجد فى جميل استحسانها ، وكريم إعجابها ، خير مكافئ ومثيب — أهدي
كتابى هذا ، — شأن كل ما لبثت أكتب منذ سنين عدة — لبيت إليها بمثل
ما يمت إلى ، وإن كان لم يحظ من نفيس تنقيحها بأقصى الكفاية ، ولم يستوف
من ثمين تهذيبها أبعد غاية ، إذ بقيت طائفة من أجل أجزائه كانت قد أعدت
كما تعيد فيها نظرة مثبتة مستمهل ، ولكن أبى القدر إلا أن يحرم الكتاب تلك
النظرة ، ولو أنى أوتيت سحر البيان مما أعبر به للناس عن نصف ما ضمنت
حفيرتها من رائع الخواطر وشريف العواطف ، لأسديت إليهم أضعاف أضعاف
ما يستفيدون من كل ما أنا كاتبه ، غير مستحث بهمتها الماضية . ولا مؤيد
بمحنتها العالية ؟

« المؤلف »

لم يقض فلاديمير سائين أهم أدوار حياته في بيته بين أبويه وهو الدور الذى يتكون فيه خلق المرء بالاتصال بالعالم والامتزاج بالناس . ولم يكن له من يتعهدة أو يهديه ، فتفتحت روحه كما ينمو الغراس في أتم حرية وأكل استقلال .

غاب عن بيته ستين ، فلما آب كادت تنكره أمه وأخته « ليدا » ولم تكن معارف وجهه وصوته وشماله قد تغيرت إلا قليلا . ولكن شيئا غريباً جديداً ناضجاً حدث على شخصيته فأجال في بحياه ضوءاً . وأكسبه معنى لم يسبق بهما العهد . وكانت أوبته مساء فدخل الغرفة دخول من زايها منذ خمس دقائق . وكان يعييك أن تلمح في وجهه الساكن أو أن تستيكنه من ركنى فيه الناطق ببعض السخر - شيئاً من أمارات الإعياء أو دلائل تحرك النفس وهو واقف في الغرفة مديد القامة وسيم الطلعة عريض الكتفين . فقرت ضجة التحية التي استقبلته بها أمه وأخته من تلقاء نفسها .

وجلس بأكل ويرشف الشاي وأخته قبالة تخذجه بنظرها وكانت مشغوفة بهشان مثيلاتها - أو جلهن - من الفتيات الخاضعات الخيال في الولوع بأخوانهن النائين عنهن . وكانت أبدأ تتمثله شخصاً غريباً بالغاً من غرابة الأمر مبلغ من تقرأ عنهم في الكتب ، وتتصور حياته وغى دائرة الارضاء . بشئى الفواجع والمأسى ، وتحسب أن حظه من العيش الشجى والوحدة ، ككل روح ضخمة مستعجمة .

فقال لها سائين وهو يتسم « لماذا ترمينى هذه النظرة ؟ » .

وكانت هذه الابتسامة الهادئة والنظرة الفاحصة بألوف ما يباطلك من وجهه ولكن العجيب أنهما لم يقعا من « ليدا » موقع الارتياح وكأنما خيل إليهما أن فيهما معنى الرضى عن النفس ، وأنهما لا يمان عن شيء من الصراع والألم الباطن . فصرفت وجهها عنه ولم تنبس . ثم جعلت غير عامدة تقلب صفحات كتاب .

ولما قضوا من الطعام والشراب حاجتهم مسحت أمه شعر رأسه في حذب
وحنو وقالت :

« والآن حدثنا عن حياتك وما صنعت هناك » .

فقال سائين وهو يضحك : « ما صنعت ؟؟ لقد أكلت وشربت ونمت .
وكنت حيناً أعمل ، وحيناً آخر لأعمل شيئاً ! » .

فجری فی وھنھما بادىء الرأى أنه لا يريد أن يحدثهما عن نفسه ولكن
أمه لما شرعت تسأله عن هذا الأمر بعينه أو ذاك ألقته بارتاح إلى قص تجاربه .
غير أن المرء لم يكن يسعه إلا أن يحس — لأمر ما — أنه لا يعبأ شيئاً بما يكون
لقصصه من الوقع والأثر في نفوس السامعين . ولم يكن في شمائله — على
دمائها ورقة حواشيا — ما ينم على تلك الألفة التي لا تكون إلا بين أهل الأسرة
الواحدة . وكأنما كان لطفه ودمائته من عفو الطبيعة كالمصباح يريق ضوءه
على كل شيء بلا تمييز .

وبرزوا إلى شرفة الحديقة وجلسوا على درجها وجلست «ليدا» دونه تصغى
إلى حديثه في صمت ، وأحست في قلبها برد الجليد وقالت لها غريزتها
النسوية الذكية إن أخاها غير ما خالت . واستشعرت الحجل والارتباك في حضرته
كأنه أجنبي منها . وانتشرت على الأرض غيابات العشب وزحفت جولهم
الظلال . وأشعل سائين سيجارة فاختلط شذى الطباقي (التبغ) بأرج الحديقة وقص
عليهما سيرته وكيف رمت به حياته المرامي وكيف طوى كثيراً وتشرد
وكيف خاض لجج الجهاد السياسى وكيف أنه لما أدركه الوبى والفنور أقلع
عنها ونكص .

وكانت «ليدا» مائلة إليه بسمعها دون محراك وعليها من رقة الحسن
والخلاوة ما تفيضه أصائل الصيف على كل فائنة غدراء .

وكانت كلما أوغل في الحديث تزيد اقتناعاً بأن حياته ، التي وشاها خيالها
بأسهج الألوان وأشدّها لألاء ، لم تكن في واقع الأمر إلا عادية كأبسط ما
تكون . ولكن فيها على هذا شيئاً عجبياً . وما ذاك؟؟ هذا ما لم تستطع اكتشافه .
على أنه منها يكن من الأمر فإن حياته على ما جاء في روايته لم تعد أن تكون

بسيطة ممة فائرة.. يظهر أنه عاش.. حيثما اتفق ولم يعتمد شيئاً يفعل به على التعيين .
 فيوماً يشتغل ويوماً يتبطل . ومن الجلى كذلك أنه كلف بالشراب وأن له خبرة
 بالنساء . وأحر بمثل هذه الحياة أن تخلو من الحلوة أو الشر وهي لا تشبه
 في دقيق أو جليل ماتوهمته من سيرته — لا فكرة يحيا لها ، ولا هو يكره مخلوقا
 ولا تعذب في سبيل كائن ما . ولقد كرها حقاً بعض ماصارحها به وبخاصة لما
 قال إنه بلغ من خصائصه ورقة حاله مرة أن رقع سراويله الممزقة بيده .
 فلم تملك إلا أن تسأله « أوتعرف إذن كيف تحوك ؟ » وفي صوتها نبرات
 الدعشة والزراية . إذ كانت تعد ذلك هواناً وضعة ، وترى فيه ما ينافي الرجولة
 في الواقع .

فقال سائين باسمها ، وقد فطن إلى مآدار في خاطر أخته : « لم تكن لى بذلك
 دراية في أول الأمر ولكنى ما لبثت أن تعلمت بكرهى » .
 فهزت الفتاة كتفيها بلا احتفال ولزمت الصمت ورمت الحديقة بعينها وخيل
 إليها كأنها كانت تحلم بالشمس الضاحية ، فلما فتحت عينها لم تجد غير سماء غائمة
 مقرورة .

واكتأبت أمه كذلك وحز في نفسها أن ابنها لم يشغل المركز الذى هو أهل له
 بحكم منزلته في المجتمع . وشرعت تقول له إن الأمور لا يمكن أن تظل جارية
 على هذا النحو وإنه ينبغي له أن يكون فيما يستقبل من أيامه أرشد وأحزم . وكانت
 تكلمه في بادىء الأمر على حذر ثم بدا لها أنه لا يكاد يجعل باله إلى ما تقول
 فأخذها الغضب شيئاً فشيئاً ، وألحت عليه بالكلام ذاهبة إلى العناد والمشادة
 شأن العجائز السخيفات من نظائرها لتوهيها أن ابنها يعتمد أن يكابد بها . ولكن
 سائين لم يعجب ولم يضعجر . وكأنه لم يفهم ما قالت فظل صامئاً غير مكترث .
 يبدو أنه . لما سأله « كيف تنوى أن تعيش ؟ » قال مبتسماً « على نحو ما » .
 وكان صوته الهادى المتزن ونظراته السريعة يوقعان في الروع أن لهذه
 الكلمات — التى لم تفهم منها أمه لافليلاً ولا كثيراً — دلالة عميقة محدودة عنده .

فنهدت ماريًا إيفانوفنا وقالت بعد فترة بشيء من القلق: «هذا شأنك على كل حال فقد شئت عن الطوق ولم تعد طفلاً. ينبغي أن تطوف الحديقة فإن مجراها يروق النظر الآن» .

فقال سانين لأخته: «نعم تعالى لتريني الحديقة فقد نسيت شكلها» .
فانتهت «ليدا» من خواطرها وتهدت ونهضت ومشيا جنباً إلى جنب في الطريق المفضى إلى قلب الحديقة الجمجمة .

وكان البيت على الطريق الأكبر في البلدة ، ولما كانت هذه صغيرة فقد امتدت أرض الحديقة إلى النهر ومن ورائه الحقول . والبيت قصر عتيق في عمده على الجانبين رخاوة وله شرفة رحبية وكانت الحديقة على سعتها مهمة هائلة حتى ليحبسها رائها سحابة خضراء باهتة قد نزلت إلى الأرض . وهي بالليل كمثوى الأشباح وكأنما يغشاها طيف حزين يسرى بين أغراسها المتوشجة أو يروح ويغدو في قلق على البلاط التراب بذلك البناء القديم . وفي الدور الأرضي جملة الحجر الفارغة تكسوها الأبسطه الحائلة والستائر الحالكة ثوبا مظلم ولم يكن يتخلل الحديقة إلا طريق واحد ضيق أوامر ، مبعثرة في نواحيه الأغصان المصوحة والضفادع المسحوقة . وكل ما في الحديقة من دلائل الحياة المادئة المطمئنة محشود في ركن واحد منها . وثم على كسب من البيت يلتصق الرمل الأصفر والحصى وهناك — إلى جانب حوض أنيق من الزهر يومض في نوره الطل — يرى المرء مائدة خضراء يجلسون إليها للطعام أو الشاي في الصيف . فكانت هذه الزاوية الصغيرة التي نفخت فيها الحياة السلسة الساذجة من روحها على تقيض ذلك القصر الضخم المهجور ، المفضى عليه بالتداعي المحتوم .

ولما خفي البيت عن أعينهما وأحاطت بهما الأشجار الصامتة الساكنة كأنها الشهود تنظر وتروى . دفع سانين ذراعه فجأة حول خصر ليذا وقال بلهجة جامعة بين الرقة والعنف :

« لقد صرت آية ! وسيسعد بك أول من تحبين من الرجال » .

فأرسلت لمسة ذراعه وعضلاته الحديدية هزة نار. في عود ليدان اللين الغض . وصبغ وجهها الحجل ، واضطربت فتنتعت عنه كأنما قاربها وحش غير مرئي .

وكانا قد بلغا حافة النهر فصعدت إليهما رائحة بليلة رطبة من الأعشاب المطرقة المترنحة في الماء وبدت مما يلي النهر الحقول في رداء من غبش الغسق تحت سماء مترامية تومض فيها طلائع النجوم .

ومال سانين وتناول عوداً جافاً ذاوياً ووقفه وألقى بكسره في تيار الماء فانداحت في لحته الدوائر وزالت بأسرع مما ظهرت . وحنث الأعشاب النابتة رعوها كأنما أرادت أن تحيي في سانين ندها ورفيقها .

(٢)

كانت الساعة السادسة والشمس مازالت وضاءة ، ولكن الحديدية ارتعت فيها الظلال الرقيقة . وكان الجو كله ضوءاً وحرارة وسجواً . وكانت ماريان إيفانوفنا تصنع مربى ، فانبعثت تحت شجرة الزيزفون الخضراء رائحة قوية من السكر المغلى والتوت البرى . وكان سانين يكدح نهاره في أحواض الزهر معالجاً أن ينثف الحياة في بعض أعوادها التي أضربها التراب والحجر . فقالت له أمه مقترحة : « أولى لك أن تقلم الحشائش أولاً . قل لجرونكا تصنع ذلك لك » .

وكانت ترقبه وتنتحيه بعينها من حين إلى حين من خلال اللهب الأزرق المرتعش .

فرفع سانين رأسه وهو متقد وقال باسم : « ولماذا ؟ » وزد شعره المنهدل على جبينه « لنتم كما شئت فإني أحب كل أخضر » .

— « أما إنك لفتى مضحك ! » .

وهزت كتفها باشة ، وقد سرها جوابه لأمر ما .

فقال سائين بلهجة الجازم المقتنع : « إنكم أنتم المضحكون » ، ثم انصرف إلى البيت ليفعل يديه ولما عاد تخطى على كرسي ذي ذراعين مصنوع من عيدان الصفصاف وشاع في جوانب نفسه الاغتياب وفي صدره ووجهه الانشراح ، وأشعرته خضرة الروضة ونور الشمس وزرقة السماء لذة الحياة أيما إشعار . وكان نفوراً من المدن الكبرى يمقت ضجتها . أما هنا فليس إلا الشمس والحرية . ولم يكثرث للمستقبل ولا أحسن من أجله ديب القلق إذ كان غير متبطر — يتقبل من الحياة ما شاءت أن تهديه إليه وأغمض جفنيه كل الإغماض ومط جسمه واهتز مسروراً لتوتر عضلاته القوية الصحيحة .

وهب النسيم عليلًا وعادت الحديقة كلها وكأنها تزفر وجعلت العصافير هنا وهناك تصخب متناغية عن حيواتها المهمة وإن لم تكن بالمفهومة وكان كلهم « ميل » مستلقياً على الحشائش الطويلة منصتاً وأذناه مرهفتان ولسانه الأحمر متدل من فمه . وأوراق الشجر تهامس وظلالها المستديرة ترتعش على الحصى الأملس .

وهاج ماريًا إيفانوفنا أن طائر ابنها ساكن وكان حبها له جما كحبها لأبنائها جميعاً فنازعتها نفسها لهذا أن تستثيره وأن تجرح احترامه لنفسه لتكرمه على الالتفات إلى كلامها ولتحمله على مشاطرتها نظرها إلى الحياة . وكانت كالنملة قد قضت كل برهة من عمرها المديد في إقامة ذلك البناء الواهي لسعادتها المنزلية . وما كان أطوله وأعراه وأخلاه من بواعث السلوى النافية للملال ! بل ما أشبهه بالثكنة أو المستشفى ! شيد بما يخطئه الحصر من دقائق اللبنيات . وتالله ما أعجزها من مهندسة تحسب هذه مباحج الحياة وإن لم تكن سوى متاعب ضئيلة غادرتها في حالة دائمة من الاضطراب والقلق .

قالت : « أتحسب أن الأمور مستظل سائرة على هذا المنوال فيما بعد ؟ » وتضاغطت شفتاها وتظاهرت بأن المرئي تستغرق عنايتها . فسألها سائين : « وماذا تعنين بقولك فيما بعد ؟ » ثم عطس . فظنت ماريًا إيفانوفنا أنه عطس عامداً ليهيجها وقطبت وجهها على الرغم مما في هذا الحاضر من وضوح السخافة .

ثم قال سائين وكأنه يحلم : « ما أجل أن يكون المرء هنا معك ! » ، فأجابته بلهجة جافية : « نعم فإن المقام هنا ليس بالذميم جدًا » ، وسرها من ابنها اطرأه البيت والحديقة وكانا عندها كأنهما من ذوى قرباها الملازمينها .

ونظر سائين إليها ثم قال وعلى وجهه هيئة التفكير : « لو أمسكت عن مضايقتي بكل أنواع الحماقات لعاد المقام خيرًا وأحمد » .

ونطق هذه الكلمات بصوت لين المكاسر فعخافت رقة اللهجة جفوة المعنى . فحارت مارياليفانوفنا ولم تدر أترتاح إلى ما سمعت أم تمتعض وتغضب . وقالت وهي مكتئبة :

— « لاني لأنظر إليك وأذكر أنك في طفولتك كنت دائما غريب الحال والآن » .

فقاطعتها سائين جدلا « والآن ؟ » كأنما توقع أن يسمع شيئا ليس أمتع منه ولا أبعث على السرور .

فقالته بجدة وهزت ملعقتها : « والآن أراك أشد جنونا منك في أى عهد ! » .

فضحك سائين وقال : « هذا خير ! » ثم بعد هنية « هذا نوفيكونف » .

وأقبل رجل طويل وسيم الصورة ينسجم على قوامه المعتدل قيصر من الحرير أحمر يتوهج في ضوء الشمس وفي عينيه الزرقاوين نظرة فائرة واشية بسداجته وخلوص سريره . وقال بصوت الودود :

« هذا أنتم ! — أبدأ في خصام ! وبالله عليكم فيم تختصمون ؟ » .

— « حقيقة الأمر هي أن أى ترى أن الأنف الاعريقى أليق بى وأنسب .

ولكنى راض أتم الرضى عن أننى الذى فى وجهى » .

ونظر سائين إلى أنفه وضحك ثم مد يده إلى يمنى صاحبه الكبيرة الغضة .

فقالته مارياليفانوفنا : « كذلك أحسبني أقول ! » .

وضحك نوفيكونف ، وارتد إليهم من جانب الحديقة صدى رقيق كأنما

هناك من يشاطرهم جذبهم ومرحهم .

« أظنني أحزر ما أنتم فيه . إنكم من مستقبلك في حاجة » .
 فصاح به سائين ذاهباً إلى المدابغة ومتكلفاً الفزع « وأنت أيضاً ؟ » .
 - « إنك تستحق هذا عدلاً ! » .

- « إذا اتفقنا على فخير لي أن أنصرف عنكما » .
 فصاحت به ماريًا إيفانوفنا وقد هاجت بغتة وغازها أنها هاجت : « كلا !
 أنا التي أزيلكما » واحتملت قدر المربي وأسرعت إلى البيت ولم تلتفت .
 ووثب الكلب ونصب أذنيه وهو يراقبها ثم حك أنفه بيمينه ورى البيت
 بنظرة المستفسر ثم عاد إلى الحديقة .

فقال سائين وقد سره خروج أمه : « أمعك سبائير ؟ » .
 فأخرج نوفيكونوف علبة وهو يتريث في جركته وقال بصوت رقيق نبرات
 العتب « لا يحمل بك أن تكايدنا هكذا . إنها سيدة عجوز » .
 - « كيف كايدتها ؟ » .

- « إنك ترى . . . » .
 - « ماذا تعني بقولك « إنك ترى » ؟ إنها هي التي لا تزال ورائي .
 وما أعرفني سألت إنساناً شيئاً فكان ينبغي للناس أن يدعوني وشأني » .
 وصمت كلاهما برهة ثم سأل سائين صاحبه : « وكيف الحال يا دكتور ؟ »
 وتأثر بلحظه الدخان المتصاعد من سيجارته وهو يتلوى فوق رأسه .

- « الحال سيء » .

- « كيف ؟ » .

- « من كل وجه . كل شيء ممل وهذه البلدة الصغيرة تأخذ بمخني
 وليس ما يعمل المرء فيها » .

- « ليهي ما تعمل ؟ إنك أنت الذي شكوت من أن الوقت لا يتسع
 للتنفس ؟ » .

— « ليس هذا ما أعنى . إن المرء لا يستطيع أن يظل عمره يعود المرضى . ولا أحد غير المرضى . هناك حياة أخرى غير هذه » .

— « وما يمنعك أن تحيا هذه الحياة الأخرى ؟ » .

— « هذه مسألة فيها بعض التعقيد والإشكال » .

— « وما وجه الإشكال فيها ؟ إنك شاب جميل معافى البدن . فماذا تبغى فوق هذا ؟ » .

فقال نوفيوكوف بتهكم خفيف : « هذا لا يكفى فى رأى » .

فضحك سانين وقال : « لا يكفى ؟ إنى أراه حظاً عظيماً » .

— « ولكنه لا يكفىنى » قالها ضاحكاً بدوره .

وكان من الجلى أنه أرتاح إلى ما قاله سانين عن صحته وقسامته . على أنه استحيى كالفتاة .

فقال سانين وكأنه يفكر : « ينقصك أمر واحد » .

— « وما هذا ؟ » .

— « صحة الإدراك للحياة . إن الملل يجثم على صدرك . ولبو أن ناصحاً أشار عليك مع ذلك أن تنفض نعلك من هذا المكان وأن تخرج إلى الدنيا الرحبية لأشفقت أن تفعل » .

— « وكيف أخرج ؟ كمتسول ؟ » .

— « نعم حتى كمتسول ! إنى كلما نظرت إليك قلت لنفسى : هذا رجل يستحق فى سبيل إيتاء الدولة الروسية دستوراً بأن يسجن فى قلعة شلوسلبرج (١) بقية عمره وبأن يفقد كل حقوقه وحرية كذلك ، ومع ذلك فما هو والدستور ؟ وماذا يجنيه منه ؟ أما إذا كانت المسألة مسألة تحول عن أسلوب ملل من الحياة وذهاب إلى جهات أخرى طلباً لمصالح ومتع أخرى راح يسأل نفسه : كيف أرتزق ؟ أأست على كل صحتى وقوتى عرضة للأذى إذا لم يكن لى مرتب معين وإذا لم

(١) قلعة ينتقل فيها السياسيون أو كانوا معتقلون فيها .

أوفق لذلك إلى الزبدة إلى بجانب الشئ وإلى قصان الحرير والياقات الصلبة وسائر ما هو من هذا بسيل ؟ - لعمري إن الأمر مضحك ؟ » .

- « لست أرى في الأمر شيئاً مضحكاً على الإطلاق ، فإن المسألة في الحالة الأولى مسألة قضية . فكرة . أما في الثانية . . . » .

- « ماذا ؟ » .

- « لا أدري كيف أعبر عما أريد » .

وعالج نوفيكوف أصابعه .

فقال سانين مقاطعاً : « تأمل الآن ! هذه طريقتكم أبداً في الفرار من الموضوع . ولن أصدق أبداً أن الشوق إلى الدستور أشد حاجة في نفسك من الشوق إلى الانتفاع بحياتك على أتم وجه » .

- « هذه مسألة متنازعة . وقد يكون الأمر كما ذكرت » .

فلوح سانين بيده تلويح الضجر وقال : « لا تقل لي ! لو أن رجلاً قطع أصبعك لأملك الأمر أكثر مما يؤملك لو أنه كان أصبع روسي آخر . هذه حقيقة . أليس كذلك ؟ » .

- « أو أنانية » يريد نوفيكوف أن ينهكم فيخرف .

- « ربما . ولكنها الحقيقة على كل حال . ومع أنه ليس في روسيا ولا في كثير غيرها دستور ما - بل ليس فيها أضال دليل على وشك ميلاد الدستور - فإن حياتك المملة هي التي تقيمك وتعدك لاعداد وجود الدستور . وأقول لك أكثر من ذلك » وهنا لمع في عينه بريق السرور « إنك مكروب - لا من جراء حياتك بل لأن ليذا لم تمل إليك بالحب بعد والآن أليس الأمر كما أقول ؟ » .

- « أي هذيان هذا ؟ » .

وصار وجه نوفيكوف كقميصه حمرة وبلغ من ارتباكته أن الدموع وثبت إلى عينيه الفاترتين الرقيقتين .

« كيف ترى قولى هذيانا وأنت لا ترى غير ليذا فى الدنيا ؟ إن الرغبة فيها مسطورة بأحرف بجليلة على جبينك » .

فاضطرب نوفيكون اضطرابا محسوسا وأخذ يسرع فى خطواته جيئة وذهوبا ولو أن امرءا غير أخيها كلمه على هذه الصورة لتألم أبلىغ الألم ولكن هذه الكلمات من فم سائين أذهلته . والواقع أنه لم يكذب يفهم ما يقول فى أول الأمر .

فتمتم قائلا : « اسمع . إما أنك تتكلف أو . . . » .

« أو ماذا ؟ » وابتنسم .

فلوى نوفيكون وجهه وهز كتفيه وصمت . وكان الذى جرى فى ذهنه غير التكلف هو أن يعد سائين رجلا مستترا خبيثا غير أنه لم يستطع أن يصارحه بهذا الخاطر إذ كان منذ أيام الدراسة فى الكلية يخلص له الحب ويصدقه إياه ومحال أن يكون نوفيكون قد اختار لصداقته امرء سوء . وكان وقع هذا الكلام كريها مذهلا وأوجعته الإشارة إلى ليذا ولكنها كانت معبودة فلا يسعه أن يحس الغضب لأن سائين ساق ذكرها وسره هذا ولكنه آلمه كان يدا متقدمة أمسكت بقلبه وضغطت .

وصمت سائين قليلا وهو مبتسم منشرح ثم قال :

« أتم كلامك . فلست أتعجلك ! » .

فظل نوفيكون يحىء ويروح كما كان مجروح النفس لاشك فى ذلك . ودخل فى هذه اللحظة الكلب يعدو وحك جسمه بركبتي سائين كأنما يريد أن يرى الناس مبلغ سروره هو الآخر فلاطفه سائين وهوىقول : « يالك من كلب طيب ! » .

وحاول نوفيكون أن يجتنب اتصال الحديث وأشفق أن يعود إليه سائين وإن كان أحب موضوع إليه وألذه وأنداه . وكل ما لا شأن له « بليدا » عبث عنده لا يطاق .

ثم راح يسأل سائين عفوا « وأين - ليدا بترفنا ؟ » وإن كان مع ذلك يكره أن يلقى السؤال البارز في ذهنه ..

« - ليدا ؟ وإين يمكن أن تكون ؟ تننزه مع الضباط حيث كل الفتيات في هذه الساعة من النهار » .

فسودت الغيرة وجه نوفيكيوف وهو يقول : « كيف تنفق فتاة مثلها براعة وتهذيبا وقتها مع هؤلاء الحمقى الفارغى الرؤوس ؟ » .

فقال سائين باسما : « يا أخى . إن ليدا فتاة جميلة موفورة الصحة مثلك بل هي فوق ذلك . إذ كانت قد أوتيت ما ينقصك - أعنى الرغبة الحادة في كل شىء وهي تريد أن تعلم كل ما يعلم وأن تجرب كل أمر - هذه هي آتية وما عليك إلا أن تنظر إليها لتفهم هذا . أليست بالله جميلة ؟ » .

وكانت ليدا أقصر من أخيها وأجل . وعليها من العذوبة ولين القوة فتنة تميزها وفي عينيها السوداوين نظرة شائعة ولصوتها الذى تباهى به رنة موسيقية . فأقبلت على مهل تخطر برشاقة وإحدى يديها ممسكة بثوبها السايق وأقبل من بعدها ضابطان شابان .

« - من الجميل ؟ أهو أنا ؟ » .

وأشاعت في الحديقة سحر صوتها وجمالها وصباها .

ومدت إلى نوفيكيوف يدها . وعينها إلى أخيها وكانت أبداً في حيرة من أمره لا تدرى أجاد هو أم هازل .

وقبض نوفيكيوف على يدها واضطرم وجهه ولكن ليدا لم تلمح انفعاله وكانت قد ألفت منه نظرة الاحترام والحياء التى لم تضايقها .

وقال أجل الضابطين وهو ناصب قامته كالجنود المتشغل :

« - عم مساء فلاديمير بترفتش (سائين) » .

وكان سانين يعلم أنه سارودين وأنه كاتب في فرقة الفوارس وأنه ألح
عشاق ليدا .

وكان صاحبه « الملازم » تاناروف يعد سارودين مثال الجندي ويحكيه
في كل شيء ويضرب على قالبه في كل أمر وكان صموتاً ليس له رشاقة
سارودين ولا قسامته .

فقال سانين مجيئاً اخته في رزاة : « نعم أنت ! » .
— « إني جميلة لا شك ! ولقد كان ينبغي لك أن تقول إن جمالي لا
سبيل إلى وصفه » .

وضحكت جذلة وهوت إلى كرسى وهي ترشق أخاها سانين بعينها .
ورفعت ذراعها وبدت بذلك معالم صدرها الجميل وأخذت تخلع قبعها فستط
دبوس طويل على الحصى فهدل شعرها ونقاها . فصاحت بالملازم الصموت
بصوت أجش « أندربه بافلن قتش ! أعى » .
وتتم سانين كن يفكر بصوت عال وعينه مصوبة إلى اخته « نعم أنها
جميلة » .

فالت إليه ليدا بطرفها في حياء وقالت : « إننا كنا حسان » .
فضحك سارودين عن ثناياه الناصعة البراقة وقال : « ما هذا ؟ حسان ! !
ها ها ! لستنا نعدو أن نكون كالإطار يظهر وضاعة جمالك الباهر » .

فقال سانين دهشاً : « أقول يالها من فصاحة ! » .
وكانت في صوته نبرة خفيفة من التهكم .
فتنطق تاناروف الصموت وقال : « إن ليدا بتر وفنا تحيل العبي فصيحاً » .
وكان يساعدها على نزع قبعها فهدل شعرها فادعت الغيظ وهي ماضية
في ضحكها .

وقال سانين « ماذا ؟ وأنت أيضاً فصيح ؟ » .

فهمس نوفيكونوف في خبث ونفس مرتاحة « دعهم يتفصحون ! » .

وقطبت ليدا جبينها لأخيها وكأنما كانت عيناها السوداوان تقولان له
بأصرح عبارة « لا تحسب أنى عاجزة عن استبطان هؤلاء النفر . إنما أبغى
أن امتع نفسي وما أنا بالورهاء الحمقاء وأنى لأدرى ما أنا فيه » .
فابتسم لها سائنين .

وتم أخيراً نزع القبعة . ووضعها تاناروف فى تودة ووقار على المنضدة .
ولكن ليدا صاحت به مداعبة مظهره الخنق : « أندريه بافاوفتش ! انظر !
انظر ماذا صنعت بى ! لقد أفسدت شعرى فاختلطت وأسأضطر أن أدخل
البيت لأصلحه » .

فقال تاناروف مضطرباً متلعثماً : « إني آسف جداً ! » .

وهمت ليدا وجمعت ذلاذل ثوبها وعدت ضاحكة وعيون الرجال
تتعقبها وأحسوا لما خفيت عن أنظارهم كأنما خلصت أنفاسهم واستراحوا
من ذلك الشعور العصبي بالتقيد الذى يعانى به الرجال عادة فى حضرة فتاة
جميلة .

وأشعل سارودين سيجارة وجعل يدخنها بالتناذ واضح ، وكان المرء
يحس إذا سمعه يتكلم كأنما عادته أن يحدو الحديث وإن ما يجرى بذهنه
يخالف ما يجرى به لسانه وقال :

« لقد كنت أحاول أن أقنع ليدا بتروفنا أن تدرس الغناء درساً جدياً
فإن مستقبلها مضمون ما دام لها هذا الصوت » .

فقال نوفيكوف مشمئزاً : « تالله ما أبدعها من مهنة ! » وأشاح بوجهه .

فسأل سارودين مستغرباً ونحى السيجارة عن فمه : « أى ضير فى ذلك ؟ » .

فرد عليه نوفيكوف وقد حمى فجأة : « ما هى الممثلة ؟ إنها ليست
إلا موساً ! » .

ومزقت قلبه الغيرة وقطع زباطه ما تصوره من منظر هذه الفتاة التي يشتهي جثائها إذ تبدوا أمام سواه من الرجال في ثوب فتان يكشف عن مفاتيها ويهيج عواطفهم .

فقال سارودين رافعاً حاجبيه : « لا شك أنك تذهب إلى أبعد مما يجب » . وكانت نظرة نوفيوكوف كلها حقداً وبغضاً وكان يرى في سارودين لصاً بنوي أن يخطف عشيقته وأمنه - فضلاً عن هذا - حسن وجهه فقال : « كلا ! ليس في قولي تجاوز للحد . وتصور بروز المرأة على الملعب كاسية إلا أنها عارية - حاسرة في بعض الأدوار الشقية عن مفاتيها الشخصية لأولئك النظارة الذين لا يلبثون أن يزابلوا المكان بعد ساعة أو نحوها كما ينفضون عن موسم بعد أن ينقدوها أجراها المعتاد ! الحق إنها مهنة فاتنة ! » . فقال سائين : « يا أخى ، إن كل امرأة تحب أن يعجب الناس بمحاسنها الخاصة » .

فهز نوفيوكوف كتفيه متململاً وقال : « ما أخشن هذا القول وأسخفه ! » .

فقال سائين : « ليكن خشناً أو غير خشن . إنه الحق على كل حال . وأحر « بليدا » أن يكون لظهورها على الملعب أعرق وقع . وإني لأشتاق أن أراها ثم ... » .

وأحسوا كلهم بالقلق وإن كان هذا الكلام قد أثار في نفوسهم رغبة غريزية في الاستطلاع .

ولما كان سارودين يعد نفسه أذكى من زملائه وأحزم فقد بدا له أن يبدد جو الارتباك الغامض الذي اكتنفهم فقال :

« وماذا تظنون الفتاة حبيبة أن تصنع ؟ أتزوج ؟ أم تأخذ في نهج دراسي أم تدع مواهبها تأسن ؟ إن هذا يكون جريمة ضد الطبيعة التي جادت

فقال سانين ولم يخف تهكمه : « آه ! إن فكرة هذه الجريمة لم تخطر لي قبل هذه الساعة » .

وضحك نوفيكوف ضحكة خبيثة . ورد على سارودين متوخياً الأدب :
« لماذا تعدها جريمة ؟ لأن تكون المرأة أما صالحة أو طيبة خير ألف مرة من أن تكون ممثلة » .

فقال تاناروف محققاً : « كلا » .

فسألم سانين : « ألا ترون هذا النوع من الحديث مملاً ؟ » .
ولكن سؤاله ضاع في نوبة سعال وكان الواقع أنهم جميعاً يعدون هذه المناقشة مدعاة للضحك وهي بعد لا ضرورة إليها على أنهم مع هذا ساءهم قول سانين فلزموا صمتاً بغيضاً .

ثم ظهرت ليذا وأمها ماريبا إيفانوفنا على الشرفة . وكانت ليذا قد سمعت آخر ما نطق به أخوها وإن لم تدر ما يشير إليه ، فقالت وهي تضحك :
« أرى الملل اعتوركم بسرعة فلنمض إلى النهر فإنه الساعة رائق » .

ومشت أمام الرجال وقوامها الأنيق يخطر قليلاً وفي عينها نظرة مبهمة يخيل إليك أنها قائلة بها شيئاً أو واعدة بشيء .

وقالت أمها : « تمشوا إلى وقت العشاء » .

فصاح سارودين : « يسرني ذلك » وعرض على ليذا ذراعه .

وقال نوفيكوف متهمكاً : « أرجو أن تسمحوا لي بمرافقتكم » .

ولكن وجهه كانت عليه سمات من يهم بالبكاء .

فقالت ليذا : « ومن ذا يمنعك ؟ » .

وأرسلت إليه نظرة باسمة عن كثفها .

وقال سانين : « نعم اذهب أنت الآخر . وقد كنت أحب أن أرافقكم لولا أنها مقتنعة بأنى أخوها » .

فأضطربت ليدا وأسرعت ناظرة إليه وأرسلت ضحكها قصيرة عصبية .
وبدا على ماريا إيفانوفنا الامتناع وقالت :

« لماذا تتكلم على هذا النحو السخيف ؟ أظنك تحسبه أسلوباً مبتكراً ؟ » .

فقال سانين : « الحقيقة أنى لم أفكر فى هذا على الإطلاق » .

ونظرت إليه أمه وهى مذهولة . وكانت لا تفهم ابنها ولا تعرف
أذاهب هو إلى الجدة أم يقصد إلى الدعابة . ولا تدرى فيم يفكر وماذا يحس
على حين ترى الناس المفهومين غيره يفكرون ويحسون مثلها . وعندها أن
الرجل يجب أن يفكر ويحس ويعمل كما يفكر ويحس ويعمل غيره من أنداده
المماثلين له من حيث المتزلة الاجتماعية والعقيدة . ومن رأيها كذلك أن الناس
ليسوا رجالاً متميزى الشخصيات والخصائص وإنما ينبغي أن يصبوا جميعاً
فى قالب واحد عام وشجعها البيئة على اعتناق هذه العقيدة وقررتها فى نفسها
فذهبت إلى أن التربية من شأنها أن تجعل الناس فريقين لا ثالث لهما : أصحاب
العقول والجهلاء ، وللفريق الثانى أن يحتفظ بشخصيته إذا شاء ولكن هذا مجلبة
لامتهان الآخرين . وأول الفريقين ينقسم إلى طوائف ولكن أراءهم لا تطابق
صفاتهم الشخصية بل مراكزهم الاجتماعية . ومن هنا كان كل طالب ثوريا ،
وكل موظف مدنياً ، وكل فى ملحد ، وكل ضابط طالب رتبة ، فإذا حدث مصادفة
أن طالباً مال إلى مبادئ المحافظين ، أو أن ضابطاً صار فوضوياً ، فلا بد أن يعد
هذا أمراً شاذاً باعثاً على أشد العجب بل مستكراً . وإذا ذهبنا نعتبر سانين وأصله
وتربيته رأينا أنه كان ينبغي أن يكون على خلاف ما هو ولذلك أحست ماريا
إيفانوفنا — مثل ليدا ونوفيكوف وسائر من اتصل به — أنه خيب الأمل فيه .
ولم يفت غريزة الأم ما يقع فى نفوس الناس من ابنها فتألمت .

ولم يكن سانين يجهل ذلك وكان يود لو طمأنها ، غير أنه لم يدرك كيف يعالج
ذلك مبتدئاً . وخطر له أولاً أن يرائى ويدعى المكذوب من العواطف ليهذا
روعها ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن ضحك .

ثم قام وخرج وظل برهة في سريره مستلقياً يفكر ويخيل إليه كأنما يريد الناس أن يحيلوا الدنيا ثكنة عسكرية خاضعة لقائمة من القواعد والأصول المجعولة للقضاء على الشخصية أو يجعلوها طوع قوة ما غامضة عتيقة . وأحب به التفكير وأوضع حتى تناول المسيحية ومصيرها ولكنه مل هذا الشأن حتى أخذه النوم ولم يستيقظ إلا بعد أن حال المساء ايلاً حالكا .

ولاحظته أمه وهو يخرج وزفرت هي أيضاً واستغرقها الفكر وحدثت نفسها أن سارودين يتحجب إلى ليدا خاطباً ودها وتمنت أن يكون الأمر جدياً وقالت لنفسها : « قد بلغت ليدا العشرين ، وسارودين رجل حسن علي ما يظهر ، وقد سمعت أنه سيعطي قيادة في هذا البام . نعم إنه غارق في الدين - ولكن ... لماذا رأيت ذلك الحلم الشنيع ؟ وإنى لأدري أنه خاطر سهيف غير أنى لا أستطيع أن أخلي منه رأسي ! » .

وكان الحلم الذى رآته قد بدا لها في نفس اليوم الذى دخل فيه سارودين البيت لأول مرة فخيّل إليها أنها رأت ليدا في ثياب بيضاء تسير في مروج خضراء متألفة الأزاهير .

وجلست ماريا إيفانوفنا على كرسي وثير وأسندت رأسها إلى كفها كما تفعل العجائز وأثارت نظرها إلى السماء المظلمة وساورتها الخواطر السوداء وعذبتها ولم تدع لها راحة وأحست شيئاً مبهماً أثار مخاوفها وأزعجها .

(٣)

كان الظلام قد خيم لما انقلب القوم عائدين من الحديقة . وكانت أصواتهم الصافية الجذابة تدوى في الغسق اللين الذى اكتشف الحديقة فجرت ليدا إلى أمها ضاحكة متألفة البرجة وحلت معها طيب النهر

مشوياً بأرج خمالها وربا شبابها الغض تصوعه رفقة المعجبين ومصاحبة المفتونين .

وصاحت بأماها مداعبة لها وجرتها معها : « العشاء يا أماء ! هات لنا العشاء ! وفي خلال ذلك يغنيننا فيكتور سرجيفتش » .

فخرجت ماريا إيفانوفنا لتبهي العشاء ونفسها تحدتها أن التقدر لا يسعه على التحقيق أن يدخر غير السعادة لفئة جميلة ساحرة مثل ابنتها ليدا . ومضى سارودين وتاناروف إلى اليبانو في حجرة الاستقبال .

واطرحت ليدا في فتور وكسل على كرسي هزاز على الشرفة . وجعل نوفيكيوف يروح ويحي صامتاً على أرض الشرفة ويخالس النظر إلى وجه ليدا وصدرها الناضج المكتنز وقدميها الصغيرتين في حداثتهما الأصفر وساقيهما الرشيقتين وهي في غمرة من سحر الحب الأول وسطوته لا تكترث إليه ولا تلتفت إلى لحظاته فأغمضت جفניה وابتسمت لها يطوف برأسها من الخواطر .

وكان الصراع القديم دائراً في صدر نوفيكيوف : يحب ليدا ولا يدري ما شعورها نحوه ويخطر له أحياناً أنها تحبه ويهجس بقلبه أحياناً أخرى أنها لا تعبا به وإذا خال الخواب « نعم تحبك » قال لنفسه : ما أحلى وأسهل أن يؤاتيه هذا الجسم النقي اللين . وإذا كان « لا » فياله من خاطر بغيض بشع ! وراح تغضبه شهوته وذهب يعد نفسه ندلاً غير أهل لليدا .

ولما أنفضته هواجسه آلى أن يستهدى الحظ . « إذا دست بقدمي اليمنى على آخر مربع خطبتها لنفسى وإذا دست بقدمي اليسرى فـ... » وجبن عن التفكير فيما يحدث في هذه الحالة .

وداس المربع الأخير بقدمه اليسرى ! فتصبب العرق البارد ولكنه لم يلبث أن طمأن نفسه وهون الخطب عليها .

« يا لها من دهشة ! لقد أشبهت العجائز ! والآن : واحد . اثنان
ثلاثة . - في الثالثة أذهب إليها وأكلمها . نعم ولكن ماذا أقول ؟؟
هكذا لا يهم ! فلأمض ! واحد . اثنان . ثلاثة ! كلا ! بل ينبغي
أن يكون العدد ثلاث مرات ! واحد . اثنان . ثلاثة ! واحد .
اثنان - » .

والتهب ذهنه وعصب ريقه وبلغ من عنف دقات قلبه أن ركبتيه
تخاذلتا وارتعشتا .

وصاحت به ليذا وفتحت عينها : « لا تخط الأرض كذلك !
إني لا أسمع شيئاً ! » .

في هذه اللحظة فقط أدرك نوفيكوف أن سارودين يغنى .
وكان الضابط الغنى قد اختار أغنية قديمة مطلعها :

« أحبيتك مرة ! »

« وهل يسعك أن تنسى ؟ »

« وما زال الحب يلعب قلبي »

ولم يكن غناؤه قبيحاً ولكنه كان كأحداث الفن يعالج الأداء
بالمبالغة في تخريج الأنغام .

ولم يلف نوفيكوف ما يلذه في هذا العمل فسألها بمرارة غير مألوفة
« ما هذا ؟ أغنية من تأليفه ؟ » .

فقالت بحدة : « كلا ! لا تقلقنا من فضلك . اجلس . وإذا
كنت لا تحب الموسيقى فاذهب وانظر إلى القمر ! » .

وكان القمر في هذه اللحظة يصعد من وراء قم الأشجار السوداء -
كبيراً مستديراً متوهجاً ولمست أشعته اللينة الدرج الحجري وامتدت
إلى ثوب ليذا واستراحت إلى وجهها الباسم المتفكر وكانت الظلال في
الحديقة قد تكاثفت وصارت لها جهامة ظلال الغاب وعمقها .

فتمتم نوفيكونوف : « أت عندى خبر من القمر » ثم لنفسه :
« إنها لكلمة سخيفة ! » .

فاستضحكت ليدا وقالت : « ياله من إطراء خشن ! » .

فقال باكتشاب : « لست أحسن الإطراء » .

— « حسن . إذا فاجلس واستمع » .

وهزت كتفها متضايقة .

ومضى سارودين يغنى :

« ولكنك لا تعباين بي فلماذا أحزنك بهموى » .

وكانت أنغام البيانو تدوى فضية الرنة فى جوانب الحديقة الخضراء
الرطبة . وأخذ ضوء القمر يزداد تألقاً والظلال سواداً .

ومضى سائين إلى شجرة الزيزفون وجلس فى ظلها وهم أن يشعل
سجارة . ولكنه وقف فجأة وجد كأنما سحره سجو الليل الذى زاد
فى سكونه البيانو وذلك الصوت الطرى الفتى ولم يزعجه .

وقال نوفيكونوف مسرعاً كأنما ينبغى أن لا تفوت هذه اللحظة :
« ليدا بروفنا ! » .

فقال وهى تلحظ الحديقة والقمر والأغصان الخالكة بادية تحت
قرصه الفضى : « ماذا ؟ » .

— « لقد طال انتظارى — أعنى أريد أن أقول لك شيئاً » .

فأمال سائين رأسه مصغياً .

وسألت ليدا وهى غائبة الذهن : « أى شئ ؟ » .

وكان سارودين قد فرغ من أغنيته ثم عاد يغنى بعد فترة وكان
يعتقد أن له صوتاً باهر الجمال وكان يحب أن يسمعه .

وأحس نوفيكونف أن وجهه يحمر ثم يمتقع كأنما يوشك أن يغشى عليه
ثم قال :

— « إني — اسمعى يا ليدا بتروفنا — هل تقبلين أن تصبحى لى زوجة ؟ » .
وكان وهو يتمم هذه الكلمات يحس أنه كان ينبغي أن يقول شيئاً يخالفها
وأن عواطفه كان يجب أن تكون غير ذلك أيضاً وما كاد ينطق بها حتى أبقن
أن الجواب سيكون « لا » ووقع في نفسه أن أمراً بالغاً غاية السخافة سيحدث .
فسألته ليدا : « زوجة من ؟ » .

ثم ما عثمت أن صبغ وجهها الخجل فنهضت نهوض من يهم بالكلام
ولكنها لم تقل شيئاً .

وانصرفت عنه بوجهها وهي مرتبكة فاستقبلها القمر بنوره وقال
نوفيكونف : « إني احبك ! » .

ولم يعد القمر يضيء في عينه وأخذ بمخنقه اللسيم وشعر كأن الأرض
ستنشق تحت قدميه ثم قال :

— « لست أحسن إلقاء الخطب — ولكن — هذا لا يهم — إني احبك جداً » .
ثم حدث نفسه « أقول جداً ؟ لكأنى أحدثها عن القشدة الثلجية ! » .
وأخذت ليدا تعبت وهي مضطربة بورقة صغيرة هوت عن الشجرة إلى
يديها وحيرها ما سمعت إذ كان غير متوقع ولا طائل تحته . هذا إلى أنه أشعرها
إحساساً جديداً من الكلفة البغيضة بينها وبين نوفيكونف الذى كانت تنزله منذ
صباها منزلة القريب وتحبه على هذا الاعتبار فقالت :

« لا أدري ماذا أقول ؟ إني ما فكرت في هذا قط ! » .

فأحس نوفيكونف ألماً وفتوراً يعتوران قلبه كأنما سيكف عن الخفقان
ونهض مصفراً وتناول قبعته .

وقال وهو لا يكاد يسمع صوته وتلوت شفته المرتجفتان عن ابتسائه :
لا معنى لها : « عمي مساءً » .

— « أذهب أنت ؟ عم مساء » .

وضحكت ضحكة عصبية ومدت يدها فصافحها نوفيكون مسرعاً وسار دون أن يغطى رأسه إلى الحديقة ولما بلغ الظل وقف جامداً وأمسك رأسه بكلتا يديه وخاطب نفسه :

« رب ! لقد قضيت لي مثل هذا الحظ ! أقتل نفسي ؟ كلا ! هذه سخافة ! أقتل نفسي ؟ » .

ودار بذهنه كل خاطر ضال غامض بمثل خطف اليرق . وأحس أنه أشقى الناس وأذلم وأسفهم .

وأراد سائين أن يناديه ولكنه ردت نفسه واقتصر على الابتسام مرثياً أن من الخرف أن يمزق نوفيكون شعره وأن يبكي لأن امرأة يشتهي جسمها لم تشأ أن تبذله له وسره في الوقت نفسه أن أخته الجميلة لا تحفل بنوفيكون . وظلت ليذا لحظة وهي جامدة في مكانها . وكان خيالها الأبيض في ضوء القمر قيد لحظ سائين .

ثم خرج سارودين من الحجرة المضاءة إلى الشرفة . وكان سائين يسمع صوت مهنازه بوضوح . وظل تاناروف في الغرفة يوقع لحناً شجياً عتيقاً جعلت أنغامه المملة تسبح في الجو .

ودنا سارودين من ليذا ولف ذراعه بلطف وحذق حول خصرها . ورآهما سائين يلتصقان حتى صارا شخصاً واحداً يترنح في الضوء الغائم . وهمس سارودين في أذنها : « ما بالك تفكرين ؟ » . والتفت عيناه لما لامست شفتاه أذنها اللطيفة الجميلة .

وشاع في نفس ليذا الطرب والخوف معاً ودبت في عودها هزة كانت تسبها كلما عانقها سارودين . وكانت لا يخفى عنها أنه دونها ذكاء وتهذيباً وأنه لا قبل له بالاستبداد بها والغلبة عليها غير أنها في الوقت نفسه سرها وأفرعها أن تدع هذا الشاب الوسيم القوي بلاسها . وكأنها تنظر إلى هاوية سحقة ملتبئة

الأمر وحديثها نفسها أنها تستطيع أن تلقى بنفسها فيها إذا شاءت فقالت بصوت لا يكاد يسمع : « سبروننا » .

ولم تشجعه على احتضانها ولكنها على هذا لم تنفر منه فهاجه منها هذا الإمكان السلي .

فقال : « كلمة واحدة — لا أكثر » — وشدها إلى صدره وعروقه تنبض بها الرغبة : « هل توافيني ؟ » :

فارتجفت ليذا ولم تكن هذه أول مرة سألتها ذلك وكانت كل مرة تحس رجفات غريبة تسلبها إرادتها .

فسألته بصوت خافت وهي تحلم إذ تنظر إلى القمر « لماذا ؟ » .

— « لماذا ؟ لتكوني قريبة مني ولأراك وأحدثك . آه إنه لعذاب ؟ نعم باليدا إنك تعذبيني . والآن هل توافيني ؟ » :

قال ذلك وجذبها إليه بقوة الرغبة الجامحة به وكأنما لامسها منه حديد ملتهب سرت في أعضائها وقدرته وكأنما لفها ضباب كثيف حالم ضاغط . فتوتر جسمها اللين المرن ثم مالت إليه والسرور والخوف برعشان منه . وعاد كل ما حولها وقد تغيرت وجوهه فجأة تغيراً عجيماً . ولم يعد القمر قبرا بل دنا فحاذى مظلة النشرفة وصار كأنما هو معلق فوق بساط الروضة . وحالت الحديقة عما عهدته وتبدلت أخرى غامضة مستهمة زحفت إليها والتفت بها . وهاج ذهنها وتراجعت وتخلصت بفتور عجيب من عناق سارودين وتمتمت بصعوبة وقد جفت شفتاها وابيضتا : « نعم » .

وانقلبت إلى البيت بخطى غير ثابتة وأحست أن شيئاً مرعباً إلا أنه مفر يجرها إلى حرف الهاوية . وقالت لنفسها وهي تفكر « هذا كلام فارغ ؟ وليس الأمر كذلك . إنما أمزح . ويلد لي هذا ويسليني أيضاً . لا أكثر ولا أقل » .

وهكذا حدثت نفسها لتقنعها وهي تواجه المرأة المظلمة في غرفتها . ولم تر في صقالها إلا ظلها الأسود قبالة الباب الزجاجي لغرفة الطعام المضئنة . ورفعت ذراعها في بطء فوق رأسها وتمطت في كسل وفتور وجعلت وهي تفعل ذلك تتأمل حركات عودها اللين وتحس لذتها .

أما سارودين فإنه لما صار وحده اعتدل ونفض عن أعضائه فتورها وكانت عيناه مفتوحتين كغمضتين وابتسم فالتفت ثناياه تحت شاربها اللطيف .

وكان الحظ قد عوده أن يؤاتيه وتوقع في هذه المرة أن ينال من المتع والذات ما هو أعظم في المستقبل القريب .

وتمثلت لعينه ليدا وجمالها المثير ساعة تبذل له منه وعصفت به هذه الصورة فأحس لها ألماً جثمانياً .

وكانت ليدا في مبدأ الأمر وإذا هو لا يزال يتردد إليها وحتى بعد ذلك لما أذنت له أن يعانقها ويقبلها — لانتفك شعره شيئاً من الخوف . وكان يطالعه من عينيها السوداوين وهو يسمح بيده شعرها شيء عجيب لا يفهمه كأنما تحتقره في سريرتها .

وكانت أبداً تبدو له أبرع من غيرها من النساء اللواتي لم يشعر في حضرتها إلا بأنه أسمى منهن وأرقى . وهي من الاختلاف عنهن ومن الشموخ بحيث كان يتوقع إذا قبلها أن تلكمه بجمع يدها على أذنه .

فكادت فكرة احتيازها تبيت مزعجة ومرت به أحياناً اعتقد فيها أنها إنما تعبت به فكان موقفه في نظره غاية السخافة والحمق .

أما اليوم بعد هذا الوعد الذي قطعه له مترددة متلعثمة كغيرها من النساء فقد صار على يقين من قوته ومن وشك الظفر ولم يبق عنده من ريب في أن الأمور ستجري على ما يجب . واختلط عنده الإحساس الناشئ عن انتظار مواجهة الذات بشيء من الكيد ، هذه الفتاة الطاهرة المهذبة المزهوة ينبغي أن تبذل له نفسها كما فعل سواها وسيستمتع بها وفق هواه كما استمتع بغيرها .

وتمثلت لعينه مناظر مما صورت الشهوة والانحطاط : وصارت ليدا في خياله — عارية متهدلة الشعر حول عينيها من سبيل إلى سبيل غورها —

الصورة البارزة فيها حرك أشباحه قصف الشهوة والقسوة المضطرب . ثم بدت له فجأة على أوضح صورة منطرحة على الأرض وسلك مسمعه هزم السوط وأخذت عينه خطا داميا على جسمها العريان اللين الخاضع فنبض رأسه لهذه الصورة وتطرح مترجعا ورقصت لعينيه شرارات نار وعادت وطأة الفكرة أثقل مما يطاق وارتعشت يده وهو يشعل سيجارة وتلوت أعضاؤه القوية تلوى التشنج ثم دخل الغرفة .

وكان سانين لم يسمع شيئا إلا أنه رأى وفهم كل شيء فتيحه وفي نفسه مثل الغيرة وقال لنفسه « أمثال هذا الوحش يماثلهم الحظ دائما . ماذا ترى معنى هذا كله ؟؟ ماذا يهمان به هو وليدا ؟ » .

ولما جلسوا إلى العشاء كانت ماريا إيفانوفنا غير مرتاحة على ما يظهر ولم يقل تاناروف شيئا — كعادته — ولكنه كان يتمنى أن يكون سارودين وأن تكون له عشيقة مثل ليدا تحبه . إذا لأحبها ولكن على طريقة أخرى فإن سارودين — في رأيه — لا يحسن تقدير حسن حظه .

وكانت ليدا ممتعة صامتا لا تنظر إلى أحد .

أما سارودين فكان جدلا طروبا متحفزا كالوحش استروح فريسته . وجلس سانين يتأعب على عادته وأكل وشرب كثيرا من النبيذ وكأنا كان يريد أن ينام ولكن العشاء لم يكد ينتهى حتى أعلن عزمه على مرافقة سارودين إلى مسكنه .

وكان الليل قد أوشك أن ينتصف والقمر يصب ضوءه على رأسيهما ، وهما سائران في صمت إلى ثكنة الضابط .

وكان سانين لا يفئا من حين إلى حين يختلس النظر إلى سارودين ويفكر فيها ينبغى له أيلطمه على وجهه أم لا يلطمه . ثم قال فجأة لما قاربا البيت : « نعم ؟ إن في هذه الدنيا كل أنواع الاندال ؟ » .

فسأله سارودين ورفع حاجبيه : « ماذا تعنى بهذا ؟ » .

— « إن الامر كذلك — على العموم — والأنذار أعظم الناس فتنه وأخذاً » .

فقال سارودين بأساً « أوتعنى ماتقول ؟ » .

— « نعم هم كذلك . وليس أبعث على كرب النفس وضيق الصدر ممن يسمونهم الأعداء والنفلاء . ماهو الرجل الفاضل ؟ إن كل امرئ يعرف برنامج العمل والفضيلة . وعلى هذا فليس فيه من جديد : ومثل هذه الفضلات العتيقة تسبب المرء كل شخصيته فيقضئ حياته في حدود الفضيلة الضيقة المملة . لا تكتذب ، ولا تغش ، كلا ولا تزن . والمضحك في هذا الأمر أن كل من يريدون سواء ! فكل امرئ يسرق ويكذب ويغش ويزنى على قدر ما يستطيع » .

فقال سارودين محتجاً نازعاً إلى تعالى « ليس كل أحد » .

— « نعم . نعم . كل إنسان ! وما عليك إلا أن تفحص حياة المرء لتعرف ذنوبه . خذ الغدر مثلاً . فبعد أن تؤدى ما لقيصر لقيصر وتؤوى في سكون إلى فراشنا أو نجلس إلى المائدة نرتكب كل أصناف الغدر » .

فصاح سارودين وبه بعض الغضب : « ماهذا الذى تقول ؟ » .

— « إننا نفعل هذا على التحقيق . تؤدى الضرائب ونقضى مدة الخدمة في الجيش . نعم ولكن معنى هذا أننا تؤذى ملايين من الخلق بالحرب وبالظلم اللذين نمتقهما . ونذهب في سكون إلى الفراش على حين ينبغي لنا أن نبادر إلى إنقاذ من يقضون نحبهم في هذه اللحظة لأجلنا وفي سبيل آرائنا . ونصيب من الطعام أكثر مما بنا حاجة إليه وندع غيرنا يموتون جوعاً وكان واجبنا — ونحن رجال فضل وخير — أن نقف حياتنا كلها على خيرهم . وهكذا تجرى : الأمور : والمسألة واضحة . أما النذل — النذل الحقيقي الضميم — فخلق آخر . فهو أولاً مخلوق مخلص طبيعي الأحوال » .

— « طبيعى ؟ » .

— « بلا شك ! إنه لا يفعل سوى ما يفعله الرجل بطبيعته . يرى شيئاً ليس له ، شيئاً تميل إليه نفسه ، فيأخذه . ويرى امرأة حسناء لا تريد أن تبذل له نفسها فيعالجها بالقوة أو بالحيلة وهذا طبيعي جداً . إذ كانت الرغبة والغريزة التي تتطلب إرضاء النفس من المميزات القليلة بين الإنسان والحيوان . وكلما كان الحيوان أكثر حيوانية كان أقل فهماً للذة وأضال إدراكها وأعجز عن نيلها إذ كان لا يعنيه إلا سد حاجاته . ونحن متفقون على أن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإن العذاب ليس قبلة المساعي الإنسانية . »
فقال سارودين : « بلا شك » .

— « حسن جداً إن اللذة هي غاية الحياة الإنسانية . والفردوس كلمة مرادفة للتمتع المطلق . وكلنا يحلم بفردوس أرضي وليست إسطورة الفردوس بسخافة وإنما هي رمز أو حلم » .

ومضى سانين في كلامه فقال بعد فترة : « نعم إن الطبيعة ما أرادت قط أن يكون الإنسان زاهداً . وأعظم الناس إخلاصاً وصدق سريرة هم أولئك الذين لا يكتفون رغباتهم أى أولئك الذين يعدمون اجتماع أنذالا — أناساً مثل — مثلك مثلاً » .

ففزع سارودين متراجعاً مذهولاً ومضى سانين في حديثه متظاهراً بأنه لم يلاحظ ما بدر من صاحبه وقال :

« نعم مثلك . أنت خير رجل في هذا العالم . أوعلى الأقل أنت تحسب أنك كذلك . قل لي ، هل . صادفت قط من هو خير منك ؟ » .

فقال سارودين متردداً : « نعم كثيرين » ولم يكن في ذهنه أضال فكرة عما يعنى سانين ولا كان يعلم هل ينبغي له أن يتظاهر بالسرور أم بالسخط .
فقال سانين : « حسن . سمهم أسمائهم . تفضل » .

فهمز سارودين كتفيه كمن هو في شك . فقال سانين مهللاً : « هاذا أنت قد عجزت ! إنك أنت خير الأخيار وكذلك أنا . ومع ذلك فلنا نحن الإثنين لا نرى ما يمنعنا أن نسرق أو أن ننسج الأكاذيب أو أن نزنى — وعلى الخصوص أن نزنى » .

فتمتم سارودين وهو يهز كتفيه للمرة الثانية : « ياله من رأى مبتكر »
فسأله سائين وعلى نبرة صوته ظل خفيف من عدم الارتياح : « أتظن ذلك ؟
إني لا أظنه ! نعم . الآنذاك كما قلت هم أشد من يتصورهم العقل إخلاصاً
لأنهم لا يرون حدود الدناءة الإنسانية ، ويسرنى دائماً على الخصوص أن أصافح
نذلاً » .

ولم يكذب يقولها حتى وضع يده في يد سارودين وهزها هزاً عنيفاً وعينه
محملة في وجهه ثم قطب وقال بإيجاز فيه من سوء الأدب مافيه : « عم مساء »
وانصرف عنه .

وظل سارودين برهة وهو جامد يرقبه ولا يدري على أى حمل يحمل مثل
هذا الكلام من سائين ، فحار وقلق ثم فكر في ليذا وابتسم : أن سائين أخوها .
وماقاله صحيح في الواقع . وأخذ يحس نوعاً من العلاقة الأخوية به ، وقال
لنفسه وقد استشعر الرضى عنها : « إنه لرجل ممتع ! » كأنما سائين بعض ما يملك :
ثم فتح البوابة واجتاز الفناء المقمر إلى غرفه .

أما سائين فإنه لما بلغ البيت خلع ثيابه واستلقى على فراشه وحاول أن يقرأ
« هكذا قال زردشير » (١) وهو كتاب وجدته في مكتبة ليذا ولكن الصفحات
الأولى كانت كافية لتزهيده فيه . وهو زجل لا يحرك نفسه مثل هذا الأسلوب
المتنفخ فبصق ورعى بالكتاب جانباً وما عم أنه أخذه النوم .

(٤)

كان الكولونيل « نيقولا يجوروفتش سفاروجتش » المقيم بهذه البلدة
الصغيرة ينتظار وصول ابنه الطالب بمدرسة الصناعات في « موسكو » . وكان
ابنه هذا تحت مراقبة البوليس فطرده من موسكو لاشتباههم فيه ولظنهم
أن بينه وبين الثوريين تواطؤوا .

وكان « يورى سفاروجتش » قد كتب الى أبويه من قبل يبلغهماخير القبض
عليه وسجنه ستة شهور وطرده من العاصمة فتيها لأوبته .

(١) اسم كتاب لنيتشه الفليسوف الالمانى المشهور .

ومع أن أباه نيقولا عد الأمر من أوله إلى آخره حماقة صبيانية إلا أنه تألم إذ كان مشغولاً بابنه فاستقبله فاتحاً له ذراعيه واجتنب أن يشير إلى هذا الموضوع المؤلم وكان « يورى » قد قضى يومين كاملين مسافراً فى الدرجة الثالثة ولم تغتمض عيناه لحظة لفساد الهواء ولما آذاه من كربه الروائح وصياح الأطفال فخارت قواه ولم يكده يحى أباه وأخته لودميلا ويسمونها فى العادة لياليا « حتى استلقى على فراشه ونام .

ولم يستيقظ إلا مساء والشمس دانية من الأفق . نفذت أشعتها المائلة من زجاج النافذة ورسمت على جدران الغرفة مربعات وردية . وسمع يورى فى الغرفة المجاورة صوت الملاعق والأكواب وصافحت أذنه ضحكة لياليا الجذلة وصوت رجل كذلك — لذيذ مصقول لا يعرفه .

وقام فى نفسه ساعة استيقظ أنه مازال فى مركبة القطار وسمع ضوضاء وصوت زجاج نوافذه والركاب فى الجانب الثانى ، غير أنه لم يلبث أن عرف أين هو الآن فاعتدل فى فراشه وقال وهريثاءب :

« نعم هذا أنا هنا »

ثم عبس وهو يزج أصابعه فى شغره الكثيف الأسود القوى . ثم خطر له أنه لم يكن ينبغى أن يغود إلى بيته ولقد تركوا له أن يختار مكاناً يقيم فيه فلماذا عاد إلى أبويه ؟ لم يستطع أن يعلل ذلك .

واعتقد، أو شاء أن يعتقد أنه اختار المكان الذى خطر له . ولكن هذا لم يكن الواقع . فإن يورى لم يضطر قط أن يكده ليعيش ، وكان أبوه لا يزال يمدد بالمال وقد استهول أن يعيش وحده وبلا مورد بين قوم أغراب . وأخجله هذا الإحساس واستكره أن يعترف به لنفسه .

والآن خطر له أنه أخطأ . ويمكن أن يفهم أبواه حكايته كلها أو أن يكونا رأيا ما فى قصته — هذا شيء واضح — وهناك إلى جانب هذا

— المسألة المادية والأعوام العديدة الضائعة التي كلفت أباه . ومن شأن هذا أن يجعل من المستحيل حصول التفاهم الودى المتبادل . يضاف إلى ذلك أن الحياة خلقة أن تكون ثقيلة الإملال في هذه البلدة التي لم يرها منذ عامين . وكان يورى يعد أهل البلاد الريفية الصغيرة ضيق العقول ، عاجزين عن أن يدركوا أو يكثرثوا لتلك المسائل الفلسفية والسياسية التي يراها الشيء المهم الوحيد في الحياة .

نهض يورى وفتح النافذة وأطل وكان على طول جدار البيت حديقة زهر صغيرة يانعة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وقرمزي وأبيض فكأنها الكليد سكوب (١) ومن ورائها الحديقة الكبيرة الجهمة الممتدة إلى النهر كغيرها من حدائق هذه البلدة وهو يلتمع كالزجاج الخالي باديا من خلال الأشجار .

وكان المساء ساكناً صافياً وخالج يورى اكتئاب غامض وكان قد طال مكثه وإلفه للمدن الكبيرة المشيدة بالأحجار ومع أنه يحب أن يتوهم أنه يعيش الطبيعة فإنها لم تجد عليه بشيء : لا السلوى ولا سكون النفس ولا الانشراح . ولم تثر في صدره إلا حنيناً مبهماً حالمًا مدنفًا .

ودخلت (لياليا) الغرفة وقالت « آها . لقد قمت أخيراً ! وجاء قيامك في حينه »

وكاد يورى — لثقل إحساسه بقلق مركزه وبشجى النهار — يقضى نحيبه . يضايقه مراح أخته وصوتها الطروب فسألها على غير انتظار :

— « بأى شيء سرورك هذا ؟ »

— « انى لا أضجر ! »

وفتحت عينها وضحكت مرة أخرى كأنما أذكرها سؤال أخيها أمراً ممتعاً وقالت « وتصور سؤالك إياى ماذا يسرنى ؟ أنا لا أعرف السامة . كلا : ليس عندى متسع من الوقت لهذا »

(١) منظار في أحد طرفيه قطع ملونة يتألف منها شكل جديد كلما هزتها .

ثم قالت بصوت وطيء وقد زهاها ما قالت : « إننا نعيش في أيام فيها من المتعة ما يجعل السامة ذنباً . وعندى العمال أعلمهم ثم المكتبة تستنفد شطرا عظيما من وقتي ، فقد أنشأنا في غيابك مكتبة عامة وهى سائرة على منوال حسن » ولو أن هذا قيل له في أى وقت آخر لبعثه على الاهتمام ولكنه لم يكثرث الآن لسبب ما .

وظلت لياليا جادة تنتظر انتظار الطفل ثناء أخيها .
فتمكن أخيراً من أن يقول : « حقيقة ؟ »
فقال بصوت الراضى المطمئن : « إذا كان هذا كله أمامك فهل يسعك أن تمل ! »

فلم يملك يورى أن يقول : « على كل حال أرى كل شئ يضجرنى »
فتظاهرت أخته بالاستياء وقالت : « ما أطف هذا منك ؟ إنه لم تمض عليك ساعتان في المتزل قضيتهما نائما ومع ذلك فقد ضجرت ! »
فأجابها بلهجة فيها بعض الشموخ : « إن هذا ليس خطئى ولكنه سوء حظى »
وظن أن من دلائل الذكاء السامى أن يضجر لا أن يسر .
فقال منهكمة « سوء حظك حقيقة ! ها ها »

وداعبتة بكفها على خده : « ها ها »
ولم يظن يورى إلى أن مزاجه اعتدل وأن صوت لياليا الطروب ومراحها قد أطمأ عن نفسه الكتابة التى كان يحسها حقيقة عميقة ولم تكن لياليا تؤمن بكآبته هذه ومن أجل هذا لم يقلقها ما قال .

ورفع يورى طرفه إليها وقال وعلى وجهه ابتسامة :
— « إني لا أعرف الجدل أبداً »

فضحككت منه « لياليا » كأنما كان قال ما يغرى بالاستغراق في الضحك وقالت :

— « حسن جداً أيها « الفارس ذو الوجه العبوس » إذا لم تكن بالمنشرح فلست به . دعك من هذا وتعال معى لأعرفك بشاب فائن تعال . »
وهزت يد أخيها وجرتة معها وهى تضحك :
— « قفى . من هذا الشاب الفائن ؟ »

— « خطيبي » .

قالت ذلك وهي فرحة مضطربة واستدارت بسرعة فانتفخ ثوبها .
وكان يورى يعلم من رسائل أبيه وأخته أن طبيباً شاباً نزل بالبلدة وأنه
يخطب ودها ولكنه لم يكن يعلم أن خطبتهما صارت أمراً واقعاً .

فقال وبه دهشة : « هل تعين هذا حقاً ؟ »

وخيل إليه أن من بواعث العجب أن يكون لأخته لياليا الصغيرة الحسنة
النضرة عاشق وهي تكاد تكون طفلة ، وأن توشك أن تصبح عروساً وزوجة .
وخالجه العطف على أخته والمريّة لها . فلف ذراعه حول خصرها ومضى معها
إلى غرفة المائدة حيث كانت تلتصق آنية الشاي الصقيلة في ضوء المصباح فألقى
بجانب أبيه شاباً وثيق التركيب ، قوى معارف الوجه مليحها ، حاد العينين براقهما
إلا أنه ليس بالروسى في سحته . وكانا جالسين إلى المائدة فوقف الشاب لما
أقبل يورى بهيئة المتودد وقال : « قدمينى إليه »

فقالت لياليا متصنعة الوقار المضحك في إعائها : « أنا تول بافلوفتش
ريازانتريف ؟ »

فأضاف أنا تول إلى قولها مازحاً بدوره :

— « وهو ينشد صداقتك وتسامحك »

فتصافق الرجلان وهما صادقاً الرغبة في التآخي وكان من يراهما يقول لهما
يهمان بأن يتعانقا ، ولكنهما كبها نفسيهما واجتزعا بأن يتبادلا نظرات الود
الصريحة .

قال ريزازانتريف لنفسه مندهشاً : « وهذا إذن أخوها ؟ »

فقد كان يتصور أن أخا لياليا القصيرة الحميلة الضحوك لا بد أن يكون
قصيراً جميلاً ضحوكاً مثلاً . ولكن يورى كان على عكسها طويلاً نحيفاً أسمر
وإن كان على هذا وسياً حسن الوجه .

ودار في نفس يورى وهو ينظر إلى ريزازانتريف هذا الحديث : « وهذا
إذن الرجل الذى يحب المرأة في شخص أختي الصغيرة لياليا النضيرة الحميلة
كالفجر في الربيع — يحبها كما أحببت أنا النساء »

وآلمه لسبب ما ، أن ينظر إلى لياليا وريازانتريف ، كأنما أشفق أن يقرأ خواطره .

وأحس الرجلان أن في نفس كل منهما كلاماً مهماً يجب أن يقوله لصاحبه .

وود يورى لو استطاع أن يسأله : « أنحب لياليا ؟ حباً صادقاً حقيقياً ؟ إن الأمر يكون محزوناً بل عاراً إذا أنت خنتها فهي نقية الذيل بريئة العهد » وإذن لود ريزازانتريف لو يجيبه هكذا :

« نعم أحب أختك حباً عميقاً . ومن ذا الذى يستطيع ألا يحبها ؟ انظر كيف نقاؤها وحلاوتها وفتنتها ! وتأمل كيف تحبني ! ما أحلى خلها ! » ولكن يورى لم يسأله شيئاً وسأله ريزازانتريف :

— « هل طردت إلى أمد طويل ؟ » .

فكان جواب يورى : « لخمس سنوات » .

وكان أبوه نيقولا يقطع الغرفة جيئة وذهوباً . فلما سمع منه هذا وقف برهة ثم تنبه وعاد إلى سيره بخطى الجندى المتزنة المنتظمة ، وكان يجهل تفاصيل نفي ابنه فصدمه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه ، وقال لنفسه : « ترى ما معنى هذا كله ؟ » .

ولم يفت لياليا مدلول هذه الحركة من أيها وكانت تخشى أن تقع المشادة بينه وبين أخيها فحاولت أن تغير الحديث وقالت لنفسها : « كيف بلغ من حمقى أن أنسى أن أنبه أناقول ؟ » .

ولكن ريزازانتريف لم يكن يدرى حقيقة الأمر ولما دعت لياليا أن يتناول بعض الشاى أجابها إلى ذلك ثم عاد إلى مساءلة يورى :

— « وماذا تنوى أن تصنع الآن ؟ » .

فقطب نيقولا وجهه ولم يزد .

وأدرك يورى معنى ضمت أبيه ، وقال متحدياً له قبل أن يفكر فى عواقب جوابه :

— « لا شيء فى الوقت : الحاضر »

فسأله نيقولا ووقف « ماذا تعنى بلا شيء ؟ » ولم يرفع صوته ولكن لهجته كانت تحمل فى ثناياها تأنيباً مستوراً مؤداه : « كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ أمكره أنا دائماً أن أتركك معلقاً بعنق ؟ كيف تنسى أنى شيخ هرم ، وأنه آن أن يكون لك مرتزق ؟ لست أقول شيئاً . عش كما بدا لك . ولكن ألاستطيع أن تفهم ؟

وعلى قدر إحساس يورى بأن أباه على حق فيما يجرى بمخاطره كان استياؤه .. فقال وهو محقق :

— « نعم لاشيء . ماذا تنتظر أن أصنع ؟ »

وهم نيقولا أن يكر عليه بجواب مؤلم ولكنه لم ينبس ولم يزد على أن هز كتفيه وعاود خطاه المنتظمة من ركن إلى ركن وكان أحسن أدباً من أن ينازع ابنه فى يوم أوبته .

وراقبه يورى بعينين متقدتين وهو لا يكاد يضبط نفسه ، فلو سحنت له أضال فرصة لنازل أباه .

وكادت لياليا تبكى وجعلت تنقل لحظها بين أخيها وأبها مستعطفة راجية .

وفطن ريزانتريف أخيراً إلى الأمر ، وأدركه العطف على لياليا فحول الحديث إلى مجرى آخر تحويلاً ليس فيه حذق ولا خفة .

وزحف الليل بطيئاً ثقيلاً .

وكان يورى لا يريد أن يعترف بأنه ملوم ، إذ كان لا يشايح أباه على أنه لم يكن من شأنه أن يشتغل بالسياسة .

وذهب يعد أباه عاجزا عن فهم أبسط الأشياء لأنه هرم غبي وأخذ يلومه من حيث لا يشعر على شيخوخته وآرائه العتيقة وراح تهيج منه وتستفزه هذه الآراء .

ولم يلتذ ما طرقة ريان انتزيف من الأحاديث ، بل لم يكد يلتقى إليه سمعه وجعل يرصد أباه بعين لامعة مظلمة .

ولما جاء وقت العشاء دخل نوفيكون وإيفانوف وسمينوف .

وكان سمينوف طالبا مصدورا يعيش منذ شهر في البلدة حيث يدرس وهو نحيف دميم ضعيف وعلى وجهه الذى أدركه الهرم قبل الأوان ظل الموت الزاحف .

أما إيفانوف فمدرس ، وهو رجل مجتوى طويل الشعر ، عريض الكتفين لا تروقك شمائله .

وكانوا يتمشون في الشارع فسمعوا أن يورى عاد فوفدوا لتحيته ، وصار المجلس بهم أنيساً وكثر الضحك والمزاح ، ودارت على الأكل الكؤوس والأقداح وبذهم إيفانوف في هذا الباب

أما نوفيكون فإنه في الأيام التالية لخطبته المنحوسة ليدا هدأت نفسه قليلا وخطر له أن تأبى ليدا قد يكون عارضا وهو على كل حال خطأ تلزمه تبعته فقد كان ينبغي أن يعدها لمثل هذه المكاشفة ولما كان يؤلمه مع ذلك أنه يزور أسرة سانين فقد جعل يتوخى أن يلاقى ليدا خارج بيتها - في الطريق أو في منزل صديق له ولها - وجعلت هي تترئى له وتنحى باللائمة على نفسها واندفعت لذلك تبالغ في ملاطفته ، فتجدد الأمل في نفس نوفيكون .

ولما هموا بالانصراف قال نوفيكون . « ما قولكم في هذا ؟ أقترح أن نخرج إلى الدير »

وهذا الدير قائم على تل غير بعيد من البلدة ، وإليه يذهب الناس كثيرا طلبا للترهة وهو قريب من النهر والطريق إليه حسن .

فارتاحت لياليا إلى الفكرة وحمست لها، وكانت ولوعة بكل أنواع الملامى من استحمام وتجذيف وسير في الغابات وقالت :

— « نعم لنذهب . نعم بلا شك . ولكن متى يكون هذا ؟ »

فقال نوفيكونوف : « لماذا لا نذهب غداً ؟ »

وسأل ريبازانتزيف : « ومن ندعو غيرنا ؟ »

وسره أن يخرج إلى الهواء الطلق ليهياً له بين الأشجار أن يضم لياليا بين ذراعيه وأن يقبلها، وأن يحس أن الجسم الحلو الذى يشتهي أدنى شيء إليه :

— « دعونا نفكر . نحن ستة . ما قولكم فى شافروف ؟ »

فسأل يورى : « من يكون هذا ؟ »

— « طالب شاب » .

-- « حسن جداً . وعلى » لود مللاً فيقولان « أن تدعو كارسافينا وأولغا إيفانوفنا » .

فسأل يورى مرة أخرى : « من هذان ؟ »

فضحكت لياليا وقالت : « سترى » .

ولتجت أطراف أصابعها ونظرت إليه كأنما فى الأمر سر .

فقال يورى مبتسماً : « آها ! حسن . سترى ما سترى »

وبعد تردد قال نوفيكونوف بغير اكتراث :

— « ولا بأس من أن ندعو أسرة سانين أيضاً »

فصاحت لياليا « آه لا بدّ لنا من ليدا » ولم يكن ذلك منها عن إيثار خاص لليدا، بل لأنها تعلم حب نوفيكونوف لها وتريد أن تدخل السرور على قلبه وهى سعيدة بحبها تود أن يسعد من حولها مثلها .

فلاحظ إيفانوف نجث « اذن يتحتم أن ندعو الضباط كذلك » .

— « ماذا بهم ؟ لنُدعهم . فكلما كثر العدد زاد السرور » .

ووقفوا جميعاً أمام الباب في ضوء القمر وقالت لياليا : « ما أجل

الليل ! »

ردنت من حبيها وهي لا تشعر وكانت لا تريد أن يفارقها الآن .

فضغط ريزانتزيف ذراعها الدافئ المفتول . وقال : « نعم إنها

ليلة بديعة » .

وكان لهذه الألفاظ البسيطة معنى لا يدركه غيرها .

فقال إيفانوف بصوته الضمخم العميق : « ويحكم أنتم وليلتكم . إن النوم

يغالبنى فعموا مساء ياسادق » .

ومضى مخترقاً الشارع وجعل يطوح بذراعين كذراعى الطاحون .

وتلاه نوفيكوف وسمينوف ، وظل ريزانتزيف لحظة طويلة يودع

لياليا متخذاً من الكلام على الترهة حجة له وعذرا .

ثم قالت لياليا لأخيها بعد أن ودعها حبيها : « والآن يجب أن نذهب

نحن أيضاً »

وأصعدت زفرة أسف على الانكفاء عن الليل المقمر والنسيم المترقق

في حواشي الظلام وكل ما يطلبه جمالها وشبابها .

وذكر يورى أن أباه لم يذهب إلى مخدعه بعد ، وخاف إذا هو لقيه

ألا يلقيها بدأ من الكلام الجارح الذى لا خير فيه .

فقال وعيناه قيد الضباب الأزرق الخفيف حوالى النهر : « كلا . لا أريد

النوم . وسأتمشى قليلا » .

فالت له لياليا بصوتها الرقيق الحلو : « كما تحب » .

ومبغت أعضائها وثنت جفونها قليلا كالقطة، ومنحت القمر ابتسامة ودخلت.

ولبث يورى دقائق في مكانه يرصد الظلال الكثيفة التي ترميها المنازل والأشجار، ثم مضى على سمت سمينوف :

ولم يكن سمينوف قد أبعد فقد كان مشيه بطيئا، وكان ينحنى كلما سعل. وفي أثره ظله يطارده على الطريق المقمر، فأدركه يورى ولم تلبث عينه أن أخذت ما طرأ عليه من التغيير : فقد كان سمينوف أثناء العشاء يضحك ويغزح، كما لم يضحك سواه. ولكنه الآن كان يمشي مكتئبا غارقا في نفسه وفي سعلته الجوفاء شيء من اليأس والوعيد، كاللداء الذي يخامره فقال بصوت رأى فيه يورى نفورا :

— « أهذا أنت ؟ »

— « لم أطلب النوم وإذا سمحت رافقتك »

فقال سمينوف بدون احتفال : « نعم . افعل »

وسأله يورى : « ألا تحس البرد ؟ »

ولمّا سأله لأن هذا السعال المزعج نبه أعصابه .

فأجابه متضايقا : « إني دائما بردان »

وتألم يورى كأنه كان تعمد أن يلمس جرحا دائما . وقال :

— « هل تركت الجامعة منذ زمن طويل ؟ »

فلم يجب سمينوف مباشرة وقال بعد برهة : « زمن طويل » .

فشرع يورى يتحدث عن إحساس الطلبة، وما يعدونه بجوهريا مهماً وكان يتكلم في أول الأمر بهدوء وسكون ولكنه أرسل نفسه على سجيته وحسن تدريجاً وأجاد الإعراب عن خواطره :

ولم يقل سمينوف شيئا وإنما أصغى :

ثم أخذ يورى يندب عدم وجود الروح الثورية بين الجماهير وكان من الواضح الجلى أنه يألم ذلك أعمق الألم .

ثم سأله صاحبه : « هل قرأت آخر خطبة ألقاها بيل ؟ »

— « نعم قرأتها »

— « ما قولك فيها ؟ »

فلوح سمينوف بعصاه تلويح المتضايق ، وكان لها رأس ملثو وحاكاه خياله فرقع ذراعا طويلة سوداء ثم وضعها فثلث لذهن يورى صورة أجنحة سوداء يخفق بها طير جارح ناثر .
ولوح بعصاه وحاكاه ظله .

ورأى سمينوف ذلك فى هذه المرة فقال :

— « انظر ! ها هنا ورأى يقف الموت يرصد منى كل حركة ! ماأنا وبيل ؟ إن هو إلا ثرثارة يهذى فى هذا . وسيجىء مائق غيره يهتز عن ذلك . وسواء على هذا وذاك ؟ وإذا لم أمت اليوم فسأموت غدا »
فلم يجب يورى واضطرب وتألم .

ومضى سمينوف فى كلامه : « وأنت مثلا تحسب هذا الذى يجرى فى الجامعة وما يقوله بيل مهما ولكن الذى أراه هو أنك إذا أيقنت — كما أنا موقن — أنك ستأموت ، فلن تكترث لما يقوله بيل أو نيتشة أو تولستوى أو غير هؤلاء »

وصمت سمينوف . وكان القمر لا يزال بريق ضوئه وخلف الرفيقين الخيال الأسود يتعقبهما .

ثم قال سمينوف فجأة بصوت آخر هزيل شاك : « إنى مقضى على ... ولو كنت تدرى كيف فزعى من الموت ... لا سىا فى ليلة قراء رقيقة الحواشى كهذه »

ولفت إلى يورى وجهه الدميم الغائر العينين اللامعها : « كل شيء يحيا .
أما أنا فلا بد أن أموت . وإني على يقين من أن هذا الكلام لا يقع من
نفسك إلا موقع القول المبذل — لا بد أن أموت — ولكنى لم أقتبسه من
روايه ولا أخذته من كتاب يطالعك أسلوبه بصدق الفن وبراعة التصوير .
إني حقيقة سأموت وهذه الألفاظ فى مسمعى غير مبتذلة . وستكف يوما عن
حسابها كذلك . إني أموت ... أموت . وسيقضى الأمر . »

وسعل سمينوف مرة أخرى وقال :

— « وكثيراً ما يخطر لى أن الظلام سيشتمل على بعد قليل وإني سأدفن
فى الأرض الباردة وإن أنفى سيغور فى وجهى وتتعفن يداى ، على حين يبقى
كل شيء فى الدنيا كما هو الآن ، إذ أمشى على ظهرها حياً . وستكون حيا
وتستنشق النسيم وتسبح فى ضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم عظامى النخرة
الشيعة البلى . ماذا تظننى أعباً بيبل أو تولستوى أو بليون آخر من هذه القروء
الهاذرة . »

وكان يورى أشد اكتئاباً من أن يسعه أن يرد .

ثم قال سمينوف بصوت ضعيف خافت : « عم مساء فسادخل البيت »
فhez يورى يده وأدركه العطف الشديد على هذا الرجل الخاوى الصدر ،
المستدير الكتفين ، ذى العصا العوجاء المتدلية من عروة معطفه . وكان بوده
لو استطاع أن يعزيه وأن يبعث فيه الأمل . ولكنه أحس أن هذا مستحيل
فلم يزد على : « عم مساء » وتهد .

ورفع سمينوف قبعته وفتح الباب وتضاءل وقع قدمه ، وخفت صوت
سعاله ثم عاد كل شيء ساكناً .

ورجع يورى يستقبل من طريقه ما استدبر وقد ماتت الدنيا فى عينه —
مات كل ما كان منذ نصف ساعة فقط ، وضيئاً جميلاً ساكناً — ضوء القمر

ونجوم السماء والأشجار الفضية الروعة والظلال الغريبة — وطالعه من كل
هاتيك برد القبر وفظاعته وهوله ٥

ولما بلغ البيت قصد إلى غرفته وفتح النافذة المطلة على الحديقة . فجرى
بذهنه لأول مرة في حياته . أن كل ما استغرق حواسه ومدراكه وأظهر في
سبيله من الحماسة والإيتار ما أظهر ، ليس في الواقع بالمهم ولا بالصواب .
وإذا رنق الموت فوقه ، يوما مثل سمينوف ، فإن يقطع قلبه الأسف على أن
جهوده لم تزد الناس سعادة ولن يحزنه أن مثله العليا لم تتحقق . وإنما يكون
حزنه لأنه سيموت ويحرم النظر والاحساس والسمع قبل أن يتاح له أن يذوق
كل مسرات الحياة ولذاتها .

ولكن هذا الخاطر أخجله فتحاه عن فكرة وأخذ ينشد تعليل ذلك .

الحياة جهاد

« نعم ولكن جهاد في سبيل من ، إن لم يكن في سبيل الذات ، ومكان
المرء تحت الشمس ؟ »

هكذا قال له صوت من داخل نفسه .

فتظاهر يورى بأنه لم يسمعه وحاول أن يفكر في أمر آخر ، ولكن ذهنه
كان يكر راجعاً إلى هذه الفكرة بلا انقطاع . فعذبه هذا حتى لقد أبكاه
بكاء مرأ .

(٥)

لما تلقت ليذا سانين دعوة لياليا أطلعت أخاها عليها وكانت تتوقع منه
أن يرفضها ، بل كانت ترجو ذلك لأنها تعلم أنها هناك على النهر ستكون قريبة
من سارودين فيعاودها ذلك الإحساس الجامع بين اللذة والقلق ، وأخجلها في
الوقت نفسه أن يعلم أخوها أنها تحب — دون خلق الله — سارودين الذي يحترقه
سانين من أعماق قلبه .

ولكن سانين قبل الدعوة مسروراً ٥

وكان اليوم بديعا وضيئا ، لا تضر شمس السحب ، فلم يسع ليدا إلا أن تقول :

— « لاشك أنه سيكون هناك بضع فتيات حسان قد يعينك أن تعرفهن ؟ »

— « آه . هذا حسن . والجو كذلك رائع . فلنذهب »

ولما جاء موعد الذهاب حضر سارودين وتاناروف في مركبة كبيرة من مركبات فرقهما ، يجرها جوادان ضخمان من جيادها .

وكان سارودين في ثياب بيضاء معطرة فقال : « ليدا بتروفا . إننا في انتظارك » .

وكانت ليدا في ثوب رقيق شفاف من المخمل الوردى ، مشدود على خصرتها ، فاندردت إليهما ومدت إلى سارودين كلتا يديها فأمسك بهما لحظة وعينه جائلة في جسمها مفتونة به .

فالت منها هذه النظرة التي تعرف معناها وأضطربت لها فصاحت :

— « فلنذهب . فلنذهب »

وسرعان ماعدت بهم المركبة في الطريق المهجور بين السهوب ، وكانت أغيصان النبات تنثني تحت العجلات ويهب النسيم على رعوس أخواتها فتموج وترنج . ولما جاوزوا البلدة أدركوا مركبة أخرى تقل ليايا ويورى وريازانتريف ونوفيكوف وإيفانوف وسمينوف متكديسين متزاحمين وإن كانوا على هذا مجذلين مبتهجين ، إلا يورى فقد حيره سلوك سمينوف بعد حديث البارحة ولم يستطع أن يفهم كيف يتبأ له أن يضحك ويمرح كغيره واستغرب منه هذا المرح بعد الذى سمعه وجعل يسأل نفسه : « هل كل هذه تصنع ؟ » ويسارقه النظر إلا أنه أحجم عن هذا التفسير لما يبدو له من حال سمينوف .

وتبادلت المركبتان الفكاهة والدعابة ، ووثب نوفيكوف عن مقعده إلى الأرض وراح يسابق ليدا على الحشاش وكأنهما آليا أن يتظاهرا بأنهما خير

الأصدقاء فقد جعلوا يتداعبان طول الوقت .

وقاربوا التل القائم على ذروته الدير بقبابه اللامعة وجدرانها البيضاء .
وعلى التل غابات تحال أطراف بلوطها من الصوف ، وإلى سفحه جزائر يتدفق
حولها ، النهر وفيها أشجار البلوط قائمة .

ومالت الخيل عن الطريق إلى الأرض اللينة وجعلت العجلات تحفر فيها
أخاديد عميقة وسطع الأنوف من الأرض والأوراق الخضراء عرف ذكى .
وكان ينتظرهم في الموعد المضروب على المرج طالب وفتاتان في ثياب
« الروسية الفتاة » وكانوا جالسين على بساط الروض ، وإذا كانوا أسبق من
سواهم فقد اشتغلوا بإعداد الشاي والمرطبات الخفيفة .

ووقفت المركبة وجعلت الخيل تنفخ وتذود الذباب بذيلها ووثب كل
من فيها عنها ، وقد أنعشهم الركوب وهواء الريف النقي ، وطفقت لياليا تقبل
الفتاتين اللتين تعدان الشاي قبلا رنانة ، وقدمتهما إلى أخيهما وإلى سائين
فجعلتا تتأملانه في حجل .

وأدركت ليذا أن الرجلين لا يعرف أحدهما الآخر ، فقالت ليورى :
— « أسمح لى أن أقدم إليك أخى سائين فلاديمير »
فابتسم سائين وصافحه .
ولكن يورى لم يكده يلتفت إليه .

وكان سائين امرأ يلذه كل إنسان فهو لهذا مرتاح إلى معرفة الناس .
ولكن يورى كان يذهب إلى أن الناس قل أن يكون فيهم من يطيب خبره
ومن أجل ذلك كان يزهد في لقاء الغرباء وكان إيفانوف يعرف سائين قليلا
وقد راقه ما سمعه عنه فذهب إليه قبل سواه ، وأخذ يحادثه وصافحه سمينوف
محتفلا .

وقالت لياليا : « الآن نستطيع أن نتمتع جميعا بعد هذه الرسميات المتعبة »
ولكن الكلفة ألفت ظلها على الجمع في أول الأمر ، إذ كان كثيرون منهم لم

يسبق لبعضهم ببعض عهد فلما شرعوا يأكلون وأصاب الرجال من الأشربة والنساء من النبيذ لم تلبث الكلفة أن أخلت الأيدان للمرح فشربوا كثيراً وكثر الضحك والمزاح وتسابق البعض وصعد الآخرون على التل وكان كل ما حولهم من السكون والوضاعة ، والغابات الخضراء من الجمال بحيث لا يتأتى للكآبة أن تبسط ظاهها على نفوسهم .

وقال ريانترزيف وهو يلهث ووجهه متقد : «لو أن كل امرئ وثب وجرى على هذا النحو لأخفت تسعة أعشار الأمراض من العالم .. » .
فزادت لياليا «والرذائل أيضاً» .

وقال إيفانوف : «أما من حيث الرذائل فسيتبقى منها الكفاية دائماً» .
ومع أنهم ير أحدان في هذا القول فكاهة أو سداداً فقد ضحكوا جميعاً .
ومالت الشمس للمغيب وهم يشربون الشاي وتوهج النهر ونفذت أشعة النور الدافئة الحمراء من خلل الأشجار .

وصاحت بهم ليذا «والآن . إلى الزورق» .
وأمسكت بثوبها وانحدرت إلى الشاطئ وقالت : «من يكون أول واصل إليه ؟» .

فعدا بعضهم وراءها وتبعهم الباكون على مهل وبلغوا جميعاً الزورق الكبير المنقوش صاحبكين .

فقال ليذا بصوت الأمر الطروب : «اخرجوا به» .
فاندفع الزورق عن الشاطئ وخلف وراءه على سطح الماء خطين عريضين لم يلبثا أن تكسرا على حافة النهر .

وسألت ليذا يورى : «مالك صامتاً ؟» .
فابتسم وقال : «ليس عندي شيء أقوله» .
— «مستحيل !» .

ومطّأت أرق شفتين ورمت رأسها إلى ظهرها فعل من يعلم أن الرجال لا يدرون لسحرها من رقية .

فقال سمينوف : «إن يورى لا يحب أن يهذر . وهو يطلب .» .
فقاطعت ليذا «موضوعاً جدياً ؟ أهذا ما يريد ؟» .

وقال سارودين وأشار إلى الشاطئ أنظروا : « هذا موضوع جلدى »
 وكان على صخور الشاطئ بين جزوع شجرة بلوط عتيقة
 معقدة مدخل ضيق تغطيه إلا قلة من الحشائش والاكلاء .
 فسأل شافروف وكان لا يعرف هذه الناحية : « ما هذا ؟ »
 فأجاب إيفانوف : « غار » .

« أى نوع من الغيران هذا ؟ »
 — « علم هذا عند الشيطان ! على أنهم يقولون إنه كان فى وقت من الأوقات
 مشوى نفر من مزيفى النمود قبض عليهم جميعاً كما هى العادة : أعمال خطيرة
 أليس كذلك ؟ »
 فقال نوفيكوف : « أظنك تود أن تضرب على هذا القالب وأن تزيف
 قطعاً من فئة العشرين كوبيك ؟ » .

فقال إيفانوف : « كوبيك ؟ كلا ! الروبلات يا صديقى الروبلات ! »
 فهمهم سارودين وهز كتفيه وكان لا يحب إيفانوف ولا ينهم نكاته .
 وعاد إيفانوف إلى قصته فقال : « نعم قبضوا عليهم جميعاً وامتلاً
 الغار ثم تداعى على الأيام وليس يغشاه الآن أحد . بيد أنه مكان للذئب » .
 فصاحت ليذا : « للذئب ؟ ؟ أحسبه كذلك » .
 وقال يورى : « فكتور سرجفتش . هلم إليه . إنك أحد الشجعان المغاوير »
 فسأله سارودين وقد ارتبك : « لماذا ؟ » .

فقال يورى وقد أخجله أن يظنوا به المباهاة الكاذبة : سأفعل
 وشجعه إيفانوف فقال : « إنه لمكان عجيب » .
 — فسأله نوفيكوف : « أذهب أنت أيضاً ؟ » .
 — « كلا إنى أفضل البقاء هنا » .
 فضحكوا منه جميعاً .

ودنا الزوق من الشاطئ

وهبت على رؤوسهم من الغار موجة هواء باردة :

وحاولت لياليا أن تحمل أخاها على العدول فقالت :

« ناشدتك الله لاتفعل ! إن هذا خرق حقيقة » :

فقال يورى مبتسما « خرق نعم بلا شك ! ناولنى ياسمينوف هذه الشمعة » .
« أين هى ؟ » .

« خلّك . فى السلة » .

فأخرج سمينوف الشمعة متريثا .

وسأله فتاة طويلة بديعة القوام رائعة التناسب : « أذهب أنت حقيقة ؟ » .
وكانت لياليا تسميها « سينا » ولقبها كرسافينا .
« بلا شك . لماذا لا أذهب ؟ » .

وتظاهر بعدم الاكتراث . وذكر أنه فعل مثل هذا مرة فى بعض مخاطراته السياسية ولم تقع هذه الذكرى موقعا حسنا من نفسه لأمر ما .

وكان مدخل الغار رطبا مظالما ونظر فيه سائين وانفجرت شفتاه عن « بررر » واستخف من يورى أن يرتاد مكانا خطرا يكرب النفس لالسبب سوى أن الناس يشهدونه وهو يفعل ذلك .

وكان يورى شديد الإحساس بنفسه فأوقد الشمعة وهو يقول لنفسه :
« إنى أعالج ما يضحك منى الناس أليس كذلك ؟ » .

ولكن الواقع أنه بدل أن يثير سخرهم فاز بالإعجاب ولا سيما من النساء اللواتى راقهن منه ذلك وأعجبهن إلى حد الإزعاج .

وتهمل يورى إلى أن أضاءت الشمعة ثم ضحك تفاديا من التضاحك وغاب فى ظلام الغار وكأنما اختفى النور معه فقلقوا عليه وودوا لو يعرفون ماذا عسى أن يقع له .

وصاح به ريزا تنزيه : « احذر الذئاب » .

فتهدى إليه من جوف الغار صوت ضعيف غريب يقول :

-- « لاخوف فإن معى مسدسا » .

تقدم يورى فى بطء وحذر وكانت جوانب الغار قصيرة وعرة رطبة والأرض من الوعثة وعدم الاستواء بحيث كادت تزل به قدمه مرتين فى جحر وخطر له أن الأحجى أن يعود وأن يبقى مكانه برهة ليؤاتيه أن يدعى أنه قوغل .
وفاجأه وقع أقدام وراءه تخطو على الطين البلبل ونفس مسرع فرفع يده بالشعبة وصاح مذهولا : « سينا كرسافينا ؟ » .

— « هى بعينها » .

وأمسكت بثوبها وتخطت الجحر بحقة .

وسريورى أن تكون هذه الفتاة الجميلة هى التى جاءت فحيها بعينين ضاحكتين .

وقالت سينا وهى خجلة : « دعنا نتقدم » .

فأطاع يورى ولم يعد تزعجه فكرة الخطر الآن .

وأخذ يعنى بإنارة الطريق أرفيقتة ولمح مخارج عديدة كلها قد سدت ورأى فى ركن بضع ألواح من الخشب يحسبها الرأى آثار نعش قديم

فقال يورى وخفض صوته وهو لا يدري : « ليس بالممتع جدأ .. » .

وأخذ نفسه الضيق فى جوف هذه الكتلة الأرضية .

فهمست سينا : « بلى إنها لمتعة » .

والتفتت حولها فالتمعت عيناها فى ضوء الشمعة . وكانت مضطربة فتوخت أن تكون قريبة منه ليحميها ، ولاحظ هو ذلك وأدركه العطف على رقيقته الجميلة الضعيفة .

وعادت إلى الكلام : « لكأن المرء هنا مدفون حيا . وإذا صرنا لم نسمعنا

أحد »

فقال ضاحكا : « لاشك » .

وطاف برأسه فجأة خاطردار له ذهنه . أن هذه الفتاة الجميلة الضعيفة المشتهة فى قبضة يده وتحت رحته . وليس من يراحمها أو يسمعها .. ولكن هذا الخاطر من الدناءة بحيث لا سبيل إلى وصفه فأسرع فتفاه وقال :

« ولنفرض أننا جربنا ؟ » .

وارتعش صوته . أتراها أدركت مادار بذهنه ؟

فقالت « نجرب ماذا ؟ » .

قال - « إنى أطلقت مسدسى ؟ » .

وأخرجه .

قالت : « هل تسقط الأرض علينا ؟ » .

قال : « لأدرى » .

وإن كان على يقين من أنه لن يحدث شيء من هذا . ثم قال : « أخانفة ؟ » .

قالت : « لا : لا : لا ! أطلق ! » .

وتراجعت خطوة أوبعض خطوة :

ومد ذراعه بالمسدس وأطلقه فأبرق المكان ولفتهما سحابة من الدخان

وتجاوبت الأصدااء ثم فئبت تدريجاً .

فقال بوري : هذا كل ما حدث .

قالت : « دعنا نرجع » .

فعاادا أدراجهما وسارت أمامه فأثار منظر ردفهما المكتنزين المستديرين

في ذهنه خواطر جنسية كان من الصعب عليه أن يغض عنها فقال بصوت

مضطرب :

- « اسمعى ياسينا . إنى أريد أن أسألك سؤالاً سيكولوجياً لطيفاً كيف لم تخافى

أن تأتى إلى هنا معى ؟ لقد قلت أننا لو صرخنا لما سمعنا أحد . وأنت لاتعرفين

عنى شيئاً على الإطلاق ! » .

فخجلت في الظلام وصمتت ثم قالت أخيراً بصوت خافت :

- « لأنى رأيت أنك يمكن الثقة بك » .

قال : « وافرضى أنك كنت مخطئة ؟ » .

فقالت بصوت لا يكاد يسمع : « إذا كنت ... أغرق نفسى » .

فلأته هذه الألفاظ عطفاً وسكنت نزعاته واطمأنت نفسه .

وقال لنفسه : « ما أطيبها من فتاة » .

ووقعت منه أعظم وقع عفتها البسيطة الصريحة .

وزهاها ردها عليه وأرضتها موافقته الصامته عنه فابتسمت له لما عادا إلى مدخل الغار . على أنها كانت تعجب لماذا لم تر في سؤاله ما يسوء أو يفصح ولماذا ارتاحت إليه على العكس من ذلك ؟

(٦)

بعد أن انظر الباقون برهة عند مدخل الغار وركبوا سينا ويورى بالنكات أخذوا يتمشون على شاطئ النهر وأشعل الرجال السجائر والقوا بعيدان الكبريت في الماء وجعلوا يرقبون اندياح الدوائر على سطح التيار .

وراحت ليذا تخطر ويداها إلى جانبي خصرها مما يلي رد فيها وتغنى وهي سائرة وقد ماها الصغيرتان الرشيقتان في حذاء بهما الأصفرين برتجلان الرقص من حين إلى حين .

أما لياليا فكانت تقطف الأزاهر وترمي بها ريارا تنزيف وتداعبه بعينها .
وقال إيفانوف لسانين : « ما قولك في الشراب ؟ » .
— « فكرة بديعة » .

فانقلبا إلى الزورق وفتحاعدة زجاجات من البجعة وشرعا يشربان .

فصاحت بهما لياليا « وبحكما من سكيرين فظيعين ! » .
وراحت ترميهما بخصل من الحشائش .

فقال إيفانوف ومص شفثيه « إنها من الطراز الأول » .

فضحك سنانين وقال مازحا : « كثيراً ما أعجب للناس لماذا ينحون على الكحول . وفي اعتقادي أن السكير هو الذي يعيش كما ينبغي له » .
فأجابه نوفيكوف من الشاطئ : « أى كالبهم ! »

فقال سائين : « ربما ! على أنه مهما يكن من ذلك فالسكران إنما يفعل ما يريد . فإذا خيل له أن يغنى غنى . وإذا طلبت نفسه الرقص رقص ولم يستحي أن يطرِب ويمرح » .

فقال ربازانتريف : « وقد يضارب أيضاً » .

فأجاب سائين (نعم يفعل - أعني إذا لم يعرف المرء كيف يشرب) .

فسأله نوفيكوف : « وهل تحب المضاربة وأنت ثمل ؟ » .

فأجاب سائين : « كلا : بل أفضل أن أضارب وأنا صاح . فإذا سكرت عدت أطيب الناس قلباً لأنى أنسى كل ما هو حقير وضعيع » .

فقال ربازانتريف : « ليس كل الناس هكذا » .

فأجاب سائين : « إني آسف لحـم . على أن غيرى لا يعنينى على الإطلاق » .

فقال نوفيكوف : « لا يسع المرء أن يقول هذا ؟ » .

فأجاب سائين : « لماذا لا يقوله إذا كان حقاً ؟ » .

فقالت لباليا وهزت رأسها : « إنه لحق بديع ! » .

فرد إيفانوف عن سائين : « هو أبذع ما أعرف على كل حال » .

وكانت ليذا تغنى بصوت عال فسكتت فجأة وبدا على وجهها الضيق وقالت :

« إنهما لا يستعجلان على ما يظهر » .

فأجابها يورى : « ولماذا يستعجلان . إن من الخطأ العظيم أن يستعجل المرء فى أى أمر » .

فقالت ساخرة : « وسينا فيما أظن هى البطلة المتزهة عن الخوف المرأة من العيب » .

ولم يستطع تاناروف أن يكتم خواطره فى هذه اللحظة فانفجر يضحك ثم استحي

وكانت ليذا واقفة ويدها إلى ردفها وهى تميد يمنة ويسرة برشاقة فالتفت إليه وقالت وهزت كتفها :

« أحسبهما قد ظفرا بأمر متع » .

وقال ربازانتريف وقد نادى إليهم صوت طاق : « اسمعوا » .

فقال شافروف : « هذه طلقة مسدس » .

وتعلقت لباليا وهى مضطربة بذراع حبيبها وقالت :

— « مامعنى هذه الطلقة ؟ » .

قال : « لاتنزعجى إن كان ذنباً فالذئباب أليفة فى هذا الوقت من العام وهى على كل حال لاتنهم باثنين »
وحاول ريباز انتزيف أن يطمئنئها وإن كان انقلق قد ساوره من هذه النزوة الصبيانية التى نزت برأس يورى .

وقال شافروف وبه مثل ما بهم من الغيظ : « حتمى » .

ثم صاحث ليذا بلهجة المستخف : « إنها آتيان — آتيان فلا تقلقوا ! »
وكان وقع أقدامها مسموعاً الآن ولم يلبثا أن خرجا من الظلام فأطفأ يورى الشمعة وابتسم وهو مضطرب إذ كان لا يدرى كيف يستقبله القوم .
وقد جلله الطين الأصفر . وكان منه آثار على كتف سينا فقد احتكت بجانب الغار .

وسألها سمينوف بفتور : « ما عندكما ؟ » .

فقال يورى وكأنه يعتذر : « إن المكان رائق جداً لولا أن الممر لا يفضى إلى بعيد وهو مسدود وقد رأينا ألواح خشب متعفنة ملقاة هنا وهناك » .
وقالت سينا والتمعت عينها : « هل سمعتم طلقة المسدس ؟ » فقاطعتها إيفانوف صائحاً : « أيها الاخوان لقد شربنا كل البجعة وانتعشت نفوسنا جداً فلنعد »
ولما توسطوا النهر بالقارب كان القمر قد طلع . وكان الليل ساكناً صافياً والنجوم الذهبية تلتمع فوقهم وجولهم وفى قبة السماء وفى صفحه الماء فكان الزورق معلق بين كونين لا يقاس لهما غور . وبدت الغابة المظلمة على شاطئ النهر مستبهمة معجمة السر — وغرد عندليب فأصاحوا فى سكون . ووقع فى نفوسهم منه أنه ليس بطائرة بل حالم طوبى يرسل الصوت فى جوف الظلام .
وخلعت سينا كرسافينا قبتها وانطلقت تغنى أنشودة روسية عذبة شجية ككل الأناشيد الروسية . وكان صوتها العالى الرنان هافياً ينال من القلب وإن لم يكن بالقوى .

فتمتم إيفانوف « هذا عذب » وقال سائين « فتان » .

ولما فرغت من الغناء صفقوا لها جميعاً وارتد إليهم الصدى من الغابات
المظلمة على جانبي النهر :

وقالت لياليا : « غنينا لحنا آخر ياسينا — أو افعل ما هو خير — أنشدنا
قصيدة لك » .

فقال إيفانوف : « وشاعرة أيضاً ؟ ما أكثر الهبات التي يجود بها الله الكريم
على مخلوقاته ! » :

فسألته سينا وهي مرتبكة : « أو هذا شيء قبيح ؟ » .

فأجاب سائين : « كلا . بل حسن جداً » .

وعاد إيفانوف فقال : « إذا أوتيت الفتاة والصبا والحسن فما حاجتها إلى
الشعر ؟ وددت لو أدرى ! » .

وجاش صدر لياليا لها بالحب والرقّة فقالت : « دعينا من هذا وغنينا
لحنا ياسينوتشكا ! »

فأفتر ثغر سينا وانصرفت بوجهها معجبة بنفسها قبل أن تغني الأبيات
التالية بصوتها الخالص الموسيقي :

يا حبيب النفس يا خير حبيب !
إن أناجيك بسرى أبدا
لا ولن أكشف عن حر اللهب !

وإذا ما حنت العين إليك
وصبت ، أرخيت جفني جلدا
فانطوى سر الحوى عن ناظريك

ليس يديه سوى طول الحنين
ليس يدرى حي المتقدا
غير ساجي الليل لو كان يبين

كل نجم - كل روض بهوى
حالم فى الليل أما ابتدا
هامس - لو كنت تصنى - يجوى

هذه تدريه لكن لا تقول !
هى خرساء كتوم أبدا
فمن المبلغك السر المهول ؟

فشاعت فى نفوسهم خاسة الطرب مرة أخرى وضجوا بالتصفيق لسينا
لأن قصيدتها الصغيرة جيدة بل لأنها جاءت ناطقة بحالم معبرة عن مزاجهم
ولأنهم جميعاً كانوا يحنون إلى الحب وشجاء اللذيد :
وصرخ فيهم إيفانوف وقد أخذته نشوة الطرب بصوت عميق أفزعهم جميعاً :
- « يا ليل ! يا ليل ؟ يا عيني سينا الراقصين ناشدتكما ألا ماقلتما لى أنى أنا
ذلك الحبيب السعيد ! » :

فقال سمينوف : « إني أستطيع أن أوكد لك أنك لست به » .
فتوجع إيفانوف نادبا « آه ، يا ويحى ! » فلم يبق أحد لم يضحك :
وسألت سينا يورى « أشعري ردىء ؟ »
ولم يكن يرى أن فيه ابتكاراً يذكر ولقد أذكّرتة قصيدتها مئات من أمثالها
ولكن سينا بارعة الحسن وقد توسلت إليه عيناها فلم يسعه إلا أن يقول بوقار :
- « أراها على جانب عظام من الفتنة والحلاوة » .
فابتسمت وأدهشها أن يسرها مثل هذا المضحك كل هذا السرور :
وقالت لياليا : « إنك لم تعرف سينا بعد ! هى كل شىء جميل وحلو » .
فقال إيفانوف : « أتعنين هذا حقاً ؟ » .
فأصرت لياليا : « نعم أعنيه ، إن صوتها مرن رخيم وكذلك شعرها وهى
نفسها جميلة - حتى اسمها جميل عذب » :

فصاح إيفانوف : «لعمري ماذا تستطيعين أن تريدى على هذا ؟ على أنى اطابقك على رأيك » .

فاحمر وجه سينا خجلا وارتابا كما من هذه المدائح :

وقالت ليذا فجأة : «قد آن أن نعود » .

واستكرهت أن تسمع مدح سينا إذ كانت تعد نفسها أجمل وأبرع وأمتع .
وسألها سائين : « ألا تغنيننا ؟ » .

فقالت : « كلا ! إن صوتى لا يؤاتينى الآن » .

وقال ريباز انتريف « لقد آن أن نعود حقيقة » وذكر أن عليه فى الصباح أن يكون فى مشرحة المستشفى : وود الآخرون لو يتكأون قليلا ولازموا الصمت وهم عائدون وأخسوا بالتعب والرضى : وداست العجلات مرة أخرى اغيصان الحشيش وإن لم ير ذلك أحد : ولم يلبث التراب أن استقر على أرض الطريق مرة ثانية وبدأت الحقول الحوة العارية هائلة لا حد لها فى ضوء القمر الوانى .

(٧)

مضت ثلاثة أيام وفى مساء الرابع عادت ليذا إلى بيتها حزينة متعبة مثقلة القلب . ولما بلغت غرفتها وقفت ويداها متشابكتان وعيناها إلى الأرض لا وأدركت فجأة أنها فى علاقاتها مع سارودين قد جاوزت الحد فاستهولت ذلك . وتبينت لأول مرة منذ تلك اللحظة — لحظة الضعف الذى لا يعالج — أى سلطان مذل صار لهذا الضابط الفارغ العقل عليها وإن يكن دونها فى كل شىء .

— لا بد لها الآن أن تلبية إذا دعا وأن تدعن لقبلاته أو تتأبى ضاحكة ولكنه لم يعد يسعها أن تعبت به كما تشاء . ولم يبق لها إلا أن تحتمل وتطيع كالرقيق :

كيف حدث هذا ؟ — ذلك مالم تستطع له فهما . لقد كانت أبداً وعليه سلطانها وكانت تطبق التفاتاته وغزله وكان كل شىء رضىاً لذيذاً مثيراً كالعادة . ثم جاءت لحظة اتقد فيها كيانها كله وغشى ذهنها مثل الضباب ولم

تبقى إلا الرغبة المحنونة في الاندفاع إلى الهاوية . كأنما انشقت الأرض تحت قدميها ولم تعد تحكم أعضائها أو تشعر الابعين بجاذبتين تحملقان في عينها وهزت العاطفة جنباتها وعصفت به وراحت ضحية الشهوة الغالبة . على أنها مع ذلك شاقها أن تتكرر هذه التجارب العاصفة . ولما مثل لخطرها كل ذلك ارتجفت فرفعت كتفيها وخبأت وجهها في راحتها ومضت إلى غرفها متعثرة وفتحت النافذة ولبت لحظة طويلة ترمق القمر وكان طالعا فوق الحديقة - وثم بين الأشجار النائية بلبل يغنى :

وجثم على صدرها الحزن وتال منها الإحساس بالندامة وبانجراح الكبرياء للقضاء على حياتها من أجل رجل فارغ بسخيف ولأن زلتها كانت حمقاء حثيرة عرضية . وبدأ لها المستقبل منذرا بالشر واكنها عالجت أن تنفى عن نفسها المخاوف بالمكابرة .

وقالت لنفسها وهي عابسة محاولة أن تجد شيئا من الارتياح في هذه العبارة المبتذلة .

« لقد فعلتها وقضى الأمر ! ما أسخف هذا كله ! لقد أردت ذلك فكان ما أردت . وأحسست بسعادة يالها من سعادة ! وكان من الحمق أن لا استمتع وقد سنحت لي الفرصة . إلا أنه لا ينبغي لي أن أفكر في الأمر . فما من حيلة فيه الآن » .

وابتعدت في تناقل عن النافذة وشرعت تخلع ثيابها تاركة إياها تزل عن جسمها إلى الأرض وقالت وقد أروعها برد الليل لما أصاب كتفيها وذراعيها العارية .

« إن الإنسان على كل حال لا يحيا إلا مرة . وماذا كان ينبغي أن انتظر حتى أتزوج زواجا شرعياً ؟ ماذا كان يفيدني هذا ؟؟ سيان هذا وذاك ، فإذا هناك مما يزعج ؟ »

وخيل إليها فجأة أنها بهذه المخاطرة اعتصرت كل للذادة ومتعة وخير . وأنها قد صارت الآن حرة كالطير وأنها مقبلة على حياة حافلة بالحوادث مليئة من السعادة واللذة .

« سأحب إذا شئت . وإذا لم أشأ لم أعشق ! » .

هكذا غدت نفسها بصوت خافت وفي ذهنها أن صوتها خير من صوت سيدنا كرسافينا وأحلى .

« كل هذا كلام فارغ ! وأن لى إذا شئت أن ألقى بنفسى فى أحضان الشيطان نفسه ! »

وكذلك كانت ترد على ما يخالجهما من الخواطر وذراعاها العاريتان فوق رأسها وتديهاها يهتران .

وخمل النسيم إليها صوت سائين يقول لها من وراء النافذة :

— « ألم تنامى ياليدا ؟ »

فتراجعت ليدا فرعة ثم سترت كتفها بوشاح وهى تدنو من النافذة باسمه وقالت :

— « لقد أفرغتني والله ! » .

فلدنا منها سائين واتكأ بذراعيه على حافة النافذة وكانت عيناه تلمعان وثغره يفتقر وقال مداعباً لها :

— « لم تكن ثم من حاجة إلى هذا » .

فتلفت ليدا حولها وعاود الكلام بصوت منخفض مؤثر فقال :

— « لقد كنت بغير هذا الوشاح أجمل » .

فحملت ليدا فيه مذعولة وشدت الوشاح على جسمها فضحك سائين ومالت هى الأخرى على حافة النافذة وهى مرتبكة وصارت منه بحيث كانت تحس أنفاسه على خدها . فقال :

— « واهاً لك من جميلة ! » .

فأوسلت إليه نظرة عجلى وأخذها الحرف مما خيل إليها أنها تقرأه فى وجهه وأحسست كل جارحة فى جسمها أن عيني أخيها ترشقانها فلوت وجهها مستقطعة . وبأخ من استهواها خواطرها ونقرزها منها أن كاد قلبها يجمد : إن كل رجل ينظر إليها هذه النظرة وهى ترتاح إلى ذلك . فلما أن يفعل أخوها هذا فستحيل لا يحتمل التصديق : على أنها مالبثت أن ثابت إليها نفسها فقالت بحبيبة :

« نعم أعلم ذلك » :

وراقبها سائنين في سكون وكان الوشاح والقميص قد زلا عن كتفها لما انحنت على النافذة وبدأ صدرها الرقيق ملتصقا في ضوء القمر فقال سائنين بصوت خافت مرتعش :

— « إن الناس لا يزالون أبداً يقيمون سورا من أسوار الصين بينهم وبين سعادتهم » :

فبهت ليدا وسألته وعيناها إلى الحديقة مخافة أن يلتقي طرفها وطرفه :

— « وماذا تعني ؟ » :

وخيل إليها أن سيحدث شيء لا تجرؤ على التفكير فيه وعلى أنها لم يخالجها شك في ماهيته — شيء رهيب فظيع إلا أنه لذيذ فالتبث ذهنها وعادت وما تكاد تبصر وظلت واقفة مستبشرة مستغربة وهي تحس النفس الحار على خدها يعبث بشعرها ويرسل الرعدة في جسمها .

فقال سائنين وصوته يرتجف :

— « ماذا أعني ؟ هكذا ! » :

فكأنما أصابت ليدا هزة كهرباء ففزعت إلى الوراء ومالت على المنضدة وهي لا تدرك ما تصنع ونفخت الشمعة فانطفأت وأغلقت النافذة وقالت :

— « لقد آن أن أنام » :

ولما انطفأ النور خفت الظلمة خارج الغرفة وظهر شخص سائنين في الحديقة واضحا بارزا وأكسب ضوء القمر قسما وجهه شيئا من الزرقة وهو واقف بين الحشائش الطويلة المطلولة يتبسم .

وانصرفت ليدا عن النافذة وجلست على السرير وهي ترتجف من فرعها إلى قدمها وعجزت عن جمع خواطرها وتنظيمها وسمعت وقع قدمي سائنين على الحشائش فزاد خفقان قلبها وجعلت تسأل نفسها وهي مكروبة :

— « أتراني جننت ؟ ما أفزع هذا ؟ كلمة كهذه لعلها قيلت عرضا تحرك في ذهني مثل هذه الخواطر ؟ ؟ أترى هذا جنون ؟ الشهوة ؟ هل وصلت إلى هذا

الدرك من السفالة والانحطاط ؟ لقد هويت حقاً إذا كان يجري ببالي مثل هذا الخاطر ! » .

ودفنت وجهها فى الوسادة وبكت بكاء مرّاً :

ثم سألت نفسها مستغربة علة البكاء شاعرة بالذلة والمهانة والشقاوة — « لماذا أبكى ؟ » .

بكت لأنها بذلت نفسها لسارودين — لأنها لم تعد تلك العذراء النقية الذليل المزهوة الشائخة الأنف — وبكت من جراء تلك النظرة الفظيعة المهينة التى رماها بها أخوها . ولم يكن عهداً به فيها مضى أن ينظر إليها هكذا . وإنما فعل هذا — فى رأيها — لأن قدمها زلت فسقطت .

واكن أوجع مامر بها من الخواطر وأمرها جميعاً هو أنها أصبحت الآن امرأة ! وأنها لا يسمعها الآن — مادام لها صباها وقوتها وحسنها — إلا أن تجعل خير مامنحت تحت أقدام الرجال ووقف على إرضائهم وأنها على قدر المتعة التى تبذلها لهم يكون مبلغ احتقارهم لها . فسألت نفسها محمقة فى ظلام الغرفة :

— « لماذا يحتقرونى ؟ من خولهم هذا الحق ؟ أليس لى من الحرية مثل ما لهم سواء بسواء ؟ هل قضى على أن لا أعرف حياة غير هذه وخيراً منها ؟ » .

فقال لها جسمها بلسان الصبا والقوة أن لها الحق أن تقطف من الحياة كل ما هو ممتع وسار ولازم لها وأن لها أن تصنع ما تشاء بجسمها الجميل القوى الذى هو ملكها وحدها دون سواها .

ولكن هذه الفكرة ضاعت فى تيه من الخواطر المختلطة المتضاربة :

(٨)

ظل « يورى سفاروجتش » مدة يشتغل بالتصوير وكان كلفاً يصرف فيه كل أوقات فراغه . ولقد كان يحلم فى ما مضى من عمره أن يكون مصوراً ولكن الحاجة إلى المال — أولاً — ومشاغله السياسية — ثانياً — حالت

دون ذلك فصار يعالج التصوير من حين إلى حين على سبيل اللهو وبلا غاية يرمى إليها .

ولهذا السبب — ولأنه ينقصه التدريب — لم يجسد في التصوير مسالة ترضى نفسه . بل صار على عكس ذلك مصدر حسرة ومبعث خيبة . وكان كلما أخفق فيه يكتئب ويهيج وإذا وفق فيما يعالجه منه سبح في بحر من التفكير الساهم وتجسم له عبث مساعيه التي لا تنيله لا السعادة ولا النجاح .

وكان يورى قد كلف « بسينا كارسافينا » وكان يؤثر من النساء الطويلة المنسجمة الجميلة الصوت التي تمرور عينها بسحر الخيال . وكان يتوهم أنه ما جذبه إليها سوى جمالها وطهر روحها وإن كان لم يدفعه إلى تعلقها شيء سوى أنها جميلة مرغوبة . على أنه حاول أن يقنع نفسه بأن سحرها الذي يحسه روحى لا جثمانى إذ كان يظن أن هذا أنبل وأرفع وإن كانت هذه الطهارة العذرية بعينها هي التي ألهمت دمه وأثارت رغبته . وما زال مذلقيها مساء لأول مرة يحس بحنين قوى وشوق ملح غامض إلى تلويث طهارتها : والواقع أن هذا كان إحساسه كلما رأى امرأة حسناء .

والآن وقد تعلقت خواطره فتاة جميلة مرحة مليئة بلذة الحياة فقد بدا له أن يصور « الحياة » . وتحمس لهذه الفكرة كما هي عادته كلما عنَّ له رأى جديد . وراح يعتقد أنه في هذه المرة سيفوق إلى النجاح .

وبعد أن أعد لوحاً كبيراً مضى في العمل بسرعة المحموم كأنما يخشى أن يعطله معطل . وما كاد يلمس اللوح ببعض الألوان ويخرج من تواليفها أثراً ساراً متجاوباً حتى أهتز سروراً وتمثلت لخياله الصورة المزمعة بكل تفاصيلها ولكنه لما توغل في العمل نشأت المصاعب الفنية وتعددت وأحس يورى أن لا قبل له بتذليلها ونماد كل ما هو براق جميل قوى في مخيلته هزيباً ضعيفاً على اللوح ولم تعد تفتنه التفاصيل بل راح يلاش منها البرح والضيق والكرب . والواقع أنه أغفلها وأنشأ يتوشى في

الرسم الإجمال والإهمال والسرعة . وبدل أن تخرج يده صورة قوية واضحة للحياة ارتسمت على اللوح أنثى فاترة مثقلة بالألوان لا ينسجم عليها هندام . ولم يكن ثم شيء فائن أو مبتكر في مثل هذه الصورة الفاترة المكررة . إن هو إلا رسم تافه في فكرته وفي آدائه . فاكتب يورى كالعادة .

ولولا أنه استحميا لأمر ما أن يبكي لبكى ولأخفى وجهه في الوسادة وراح يعول . ولقد أحس الحاجة إلى أن يبث بعض الناس شكواه ولكن ليس من عجزه وقصور باعه . على أنه لم يفعل ، بل جعل يرمق الصورة متعسراً ذاهباً إلى أن الحياة على العموم ضنى وشجى وضعف وأنها خالية مما يلذه . وراعه أن يفكر في أنه سيكون عليه أن يقضى سنين عدة في هذه البلاء الصغيرة .

وابترد جيئته كالثلج وهو يقول لنفسه :

« إن هذا هو الموت بعينه ! »

ثم اشتاق أن يصور « الموت » وأمسك سكيناً وشرع وهو محقق يكشط صورة « الحياة » وغازله أن ما صنعه بمثل تلك الحماسة يزول بمثل هذه الصعوبة . ولم يسهل عليه أن ينزع الألوان . ولقد أفانت السكين ومزقت اللوحة في موضعين ، ثم وجد أن الطباشير لا يخلف أثراً على ألوان الزيت ففلاه هذا ضيقاً . ثم إنه شرع يعمل بالفرشة ويخطط موضوعه وجعل بعد ذلك يرسم في بطاء وقلة احتفال وبلا روح . غير أن عمله لم يخسر بذلك شيئاً بل أفاده هذا التثاقل والإهمال والأخذ بالألوان الثقيلة الراححة . واختتمت فكرته الأولى وذهب يصور « الشيوخوخة » فجعلها عجوزاً هزيلة متطرحة في طريق وعر وقد غابت الشمس واحلوا لكت السماء وارتعت ظلال الصليبان وانحنى كتفا المرأة المعروقتان تحت ثقل نعش أسود ، وارتسمت على وجهها الكتابة واليأس وإحدى قدميها على حافة قبر مفتوح - صورة مرعبة للشقاء والجهامة .

وأرسلوا إليه يدعونه إلى الطعام ولكنه لم يذهب وظل يشتغل .
ثم جاءه نوفيكونف ليبلغه أمراً ، غير أنه لم يصنع إليه ولا رد عليه .
فتنهذ نوفيكونف وجلس .

وكان نوفيكونف يحب السكون وإجالة الفكر فيما مر به وما جاء به إلى
يورى : إلا أن الوحدة في بيته ترمضه .
وكان رفض ليدا أن تتزوج لايزال يحزنه ولم يكن يدري أحزن ما به
ألم المذلة .

وكان رجلاً مستقيماً متبطلا ، ولم يتصل به ما يتحدث به الناس عن ليدا
وسارودين ولم يكن يحس الغيرة بل الأسف على حلم لم يكد يليح له
بالسعادة حتى انتسخ .

وخطر لنوفيكونف أنه أخفق في حياته ولكنه لم يفكر في اختصارها
وإن كان البقاء عبثاً . بل على نقيض ذلك رأى من واجبه الآن وقد
صارت حياته عذاباً له أن يقفها على الناس ، وأن ينحى سعادته وبطرحها
جانباً . ونازعته نفسه لسبب لا يدريه أن ينفض يده من كل شيء في هذه
البلدة وأن يمضى إلى بطرسبرج حيث يستطيع أن يجدد علاقته « بالحزن »
وأن يهجم على الموت . وقام في نفسه أن هذه فكرة سامية نبيلة ولطف من
حزنه علمه أن هذه فكرته . بل لقد شرحت صدره ، فضمخ شأنه وعظم
مقامه . في نظر نفسه ، وكأنما صار على مفارقة تاج من الذهب الوهاج .
وكان موقف العتب الذي اتخذته خيال ليدا يدفعه إلى البكاء .

ثم أحس الملل فجأة ، يدب في نفسه وكان « يورى » ماضياً في التصوير
لا يلقى إليه التفاتة .

فنهض نوفيكون مثاقلاً ودنا من الصورة ولم تكن قد تمت ، ولهذا كان لها وقع الصورة القوية .

وكان يورى قد بلغ حد طاقته فاعتدها نوفيكون آية وهو ينظر اليها وفيه مفتوح معجباً بالمصور إعجاب الطفل .

وتراجع يورى وقال : « مارأيك » .

وكان رأيه أنها أمتع صورة رأيها وإن كان لاشك في أن فيها عيوباً بجلية كبيرة . ولم يكن يدرى لماذا كان هذا رأيه . ولو أن نوفيكون استخفها لجرحه ذلك وآله .

على أن نوفيكون قال هامساً فرحاً : « بديعة جداً » .

وأحس يورى كأنه عبقرى يستخف بعمله فتهدد يورى الفرشة فلوثت طرف المخدع وانصرف عن اللوح دون أن ينظر اليه وقلل مبتدئاً :

— « آه يا صديقي ! » .

وهم بأن يعترف لنفسه ولنوفيكون بالشك الذى ينقص كل سرور بالنجاح إذ كان يحس أنه لن يستطيع أن يتم هذه البداية الحسنة ، غير أنه بعد التفكير لم يزد على أن قال :

— « كل هذا لا طائل تحته »

فظن نوفيكون أن صاحبه يتكلف ، وذكر ما لقيه هو من الخيبة المرة فحدث نفسه أن هذا صحيح .

ثم سأل بعد برهة :

— « ماذا تعنى بتوكل إن هذا لا طائل تحته ؟ »

ولم يستطع يورى إن يجيب عن هذا جواباً دقيقاً فبقى صامتاً .

وعاد نوفيكون إلى الصورة يفحصها وجلس مرة ثانية ثم قال :

— « قرأت مقالك المنشور في جريدة « كراى » وأراه حار ! »

فأجاب يورى مغضباً لغير سبب يعلمه وذكر كلام سمينوف :

— « إني الشيطان بها ! أى خير فيها ؟ انها لن تمنع الإعدام ولا السرقات

ولا العنف . وستفأل هذه كما كانت . إن المقالات لا تجدى . ما خيرا بالله ؟ أن يقرأها اثنان أو ثلاثة من البلهاء ؟ خير عظيم حقاً !! ومع ذلك فما شأنى أنا بهذا ؟ لماذا أنطح الجدار برأسى ؟ »

ونشرت الذكرى لعينى يورى مساعيه السياسية فى صدر أيامه ومثلث له الاجتماعات السرية والدعوة التى كان يعمل على اذاعتها وبثها ، والأخطار والإخفاق وحرارة حماسه وبلادة من كانت الرغبة تجمع به إلى إنقاذهم ، فجعل يروح ويجىء فى النرفة مشيراً بيديه .

فقال نوفيكوف :

« لا . إذاً ليس ثم ما يستحق من المرء أن يفعل شيئاً فى سبيله . وذكر سائين فأضاف إلى ذلك :

— « أنانيون ! هذا أنتم جميعاً ! »

فأجابه يورى بحدة وقد تأثر بذكريات ماضيه وبالغسق الذى أحال لون كل شيء فى الغرفة :

— « كلا ليس هذا كذلك ، إذا ذكرنا الإنسانية فأى خير فى كل جهودنا المبذولة فى سبيل اللدساتير أو الثورات ، إذا كان المرء يعجز عن تقدير ماتحتاج إليه الإنسانية حتى على وجه التقريب ؟ وما يدرينا ؟ لعل فى هذه الحرية التى نحلم بها جرثومة الانحطاط فى المستقبل ولعل الإنسان بعد أن يتحقق مثله الأعلى يكر راجعاً القهقرى ويمشى على أربع . وهكذا يكون علينا أن نبدأ كل شيء من جديد . وهبنى لا أكثرث إلا لننسى فماذا إذا ؟ ماذا أستفيد بذلك ؟ إن أقصى ما يبلغنى إياه طوفى هو أن أنال الشهرة بمواهبى وأعمالى ، وأن يسكرنى احترام من هم دونى أى احترام من لا أحترمهم ، ومن ينبغى أن يكون احترامهم لا قيمة له عندى . ثم ماذا ؟ أظل عائشاً — عائشاً إلى أن أبلغ القبر — ثم لا شيء بعد ذلك ! ويعتدل إكليل الغار على جمجمتى ، ويبلغ من فرط الحكماء لفة عليها أنى لا ألبث أن أحس منه الضيق والكرب ! »

قال نوفيكونف متهمكيا ولم يسمعه يورى لفرط سروره بفصاحته :
« نفسه أبداً ! »

وكان اكلامه سهوم لذيذ فى نظره، وكان ما يقوله يشرفه وبزيد
فى احترامه لنفسه وعاد فقال :

« وشر ما فى الأمر أن أصبح عبقرىاً يسىء الناس الحكم عليه -
حالملاً مضحكاً ، ومداراً للأفصاص الفكاكية، وشخصاً سخيفاً لا خير
فيه لأحد . »

فصاح نوفيكونف وهو ينهض :

« آها . لا خير فيك لأحد ؟ أو تقر بهذا إذا ؟ »

فقال يورى :

« تالله ما أسخفك ! أو تظن أنى لا أعرف ماذا ينبغى أن أحيا له
وهم أومن ؟ من المحتمل أن أقبل بسرور أن أصلب إذا اعتقدت أن
موتى ينقذ العالم ويخلصه . ولكنى لا أعتقد هذا . ومهما يكن ما أصنع
فلن يغير من مجرى التاريخ . أضف إلى ذلك أن معونتى من الهوان والضالة
بحيث لا يخسر العالم شيئاً لو أنى لم أكن . بيد أنى - من أجل هذه الذرة
من المعونة - مكره أن أعيش وأن أتعذب وأن أنتظر الموت فى حزن ! »
ولم يلاحظ يورى أنه اندفع يتكلم فى أمر آخر، وأنه لا يرد على
نوفيكونف بل على هواجسه الغريبة المحزنة .

ثم ذكر سمينوف فجأة فسكت وسرت فى ظهره رعدة باردة وقال
بصوت منخفض وهو ينظر إلى النافذة المظلمة :

« الحقيقة أنى أخشى المحتوم . وأنى لأعلم أن هذا طبيعى ، وأنه
لايسغنى أن أفر منه ، ولكنه على هذا رهيب - مهول »

فقال نوفيكونف وإن كان قد هاله صدق هذا الكلام :

— « إن الموت ظاهرة فسيولوجية لازمة » .

فقال يورى انفسه :

— « ياله من خرف ! »

ثم صاح بنوفيكونف وهو مغضب :

— « ماذا يهم إذا كان موتنا لازماً لغيرنا أو غير لازم ؟ »

فقال نوفيكونف : « وما قولك في رضاك أن تصلب ؟ »

فأجاب يورى ببعض التردد .

— « هذا شيء آخر » .

فقال نوفيكونف بالهجة فيها بعض التعالى :

— « إنك تناقض نفسك » .

ومتضايق يورى ودفع أصابعه في شعره الأسود المضطرب وقال بحدة :

— « إننى لا أناقض نفسى أبداً ! إذ من المعقول أنى إذا شئت أن أموت

بمحض إرادتى الحرة . . . »

فقاطعه نوفيكونف معانداً وبنفس اللهجة :

— « كل هذا سواء . وأنتم جميعاً تطلبون السهام النارية والتصفيق

وما إلى ذلك . وليس هذا إلا أنانية ! »

قال يورى : « هبها كذلك ! إن هذا لا يغير المسألة » .

وصارت المناقشة مختلطة . وأحس يورى أنه لم يرد أن يقول هذا

ولكن الخيط أفلت منه بعد أن كان مجراه واضحاً ممتداً منذ برهة فجعل

يقطع الغرفة رائحاً جانباً : معالجاً أن يغالب غيظه وهو يقول لنفسه :

«إن المرء أحياناً ينقص المزاج المناسب . وأحياناً أخرى يتكلم بجلاء كأنما الألفاظ مخطوطة أمام عينيه . وأنا أحياناً أكون كالالمجم فلا أحسن العبارة عما في نفسي - نعم هذا كثيراً ما يقع » .

وصمت كلاهما ، ثم وقف يورى بجانب النافذة وتناول قبعته وقال :
- « دعنا نتمشى » .

أجاب : « حسن جداً »

ووافق نوفيكوف وفي مأموله أن يلاق ليذا وسره أمله وأحزنه في آن .

(٩)

ذهب يورى ونوفيكوف يتمشيان في الميدان ولم يقابلا أحداً يعرفانه فأخذوا يستمعان إلى فرقة الموسيقى التي كانت تعزف كالعادة في الحديقة وكان عزفها ضعيفاً وألحانها خشنة متنافرة .

ولكن صبرتها كان شجياً دافياً عن بعد . ولم يريا إلا رجلاً ونساء يمازحون ويضحكون ، وكانت ضوءاء سرورهم لا تناسب الموسيقى الحزينة والليل المتجهم فأمض ذلك يورى .

وانضم إليهما سائين في آخر الميدان وحياتها محتفلاً وكان يورى لا يحبه ففتر الحديث .

وراح سائين يضحك من كل مخلوق تقع عليه عينه .

ثم قابلوا إيفانوف فضى معه سائين .

وسألها نوفيكوف :

- « أين تذهبان ؟ »

فقال إيفانوف :

— « أريد أن أشارك صديقى »

وأخرج زجاجة « فودكا » لوح لهما بها باهيا .
فضحك سائين .

وذهب يورى يعد هذا الضحك والفودكا فى الحضيض الأوهده من عامية
النفس وخشونتها ولوى وجهه عنهما مشمزا .

ولاحظ سائين ذلك منه ولكنه لم يقل شيئاً .
ولكن إيفانوف قال متهمكماً :

« أحمذك اللهم إذ لم تجعلنى كغيرى من الناس ! » .
فاحمر وجه يورى وقال لنفسه :

— « ونكتة مبتذلة أيضاً تضاف إلى سابقتها ! » .
وهز كتفيه استخفافاً وانصرف .

وقال إيفانوف :

— « نوفيكوف ! أيها الفريسي الغرير تعال معنا ! » .
فسأله — « لماذا ؟ » .

فرد عليه — « لشرب » .

فأدار نوفيكوف عينه فى المكان متحسراً، ولكن ليدا لم يكن لها أثر .
فضحك سائين وصاح به : « إن ليدا فى البيت تكفر عن ذنوبها ! » .
فقال نوفيكوف مغضباً :

— « ما هذه السخافة ؟ إن على أن أعود مريضاً ... » .

فأجاب سائين :

— « يستطيع أن يموت بدون مساعدتك ! ونحن نستطيع أن نشرب
الفودكا بدون معونتك أيضاً » .

فقال نوفيكوف لنفسه « وانفرض أنى سكرت ! » .

ثم التفت إليهم وقال :

— « حسن . سأذهب معكم » .

وكان يورى يسمع عن بعد صوت إيفانوف الضخم الحشن وضحكة
سانين الجلدة المستخنة فعاد يتمشى فى الميدان وأهابت به ظلمة الليل أصوات
فتيات ندية .

وكانت سينا كارسافينا ودوبوفا المدرسة جالستين على مقعد وهما فى
ثياب قاتمة، ورأسهما عاريان ، وفى أيديهما كتب يحملانها ، ولم يكن يسهل
أن يراها المرء فى الظلام .

فأسرع يورى ولحق بهما وسألها :

— « أين كنتم ؟ »

فقالت سينا :

— « فى المكتبة » .

— وتحركت رفيقتها دون أن تتكلم لتفصح . كانا ليورى .

وكان يود لو جلس بجانب سينا ولكنه لحجله جلس إلى جانب دوبوفا
المدرسة الديمة .

وسألته دوبوفا :

— « ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ » .

وضمت شفيتها الجافتين كما هى عادتها .

فرد عليها : — « إذا يحملك على الظن بأنى تعس ؟ إنى على العكس
منشرح الصدر . وربما كنت سأمان قليلا » .

فقالت دوبوفا :

— « إن علة ملكك أن لا عمل لك » .

قال - « أو لديك أعمال كثيرة إذأ ؟ » .

قالت - « مهما يكن من الأمر فليس عندي وقت للبكاء » .

قال - « أتريننى أبكى ؟ » .

فقالت دوبوفا مكابدة : - « إن بك نوبة سهوم » .

قال يورى : بلهجة فيها من المرارة ما ألزمهم الصمت ،

- « إن حياتى أنستنى الضحك كيف يكون » .

ثم عاد إلى الكلام بعد فترة .

- « لقد أخبرنى صديق لى أن فى حياتى عبرة كبيرة » .

وإن كان لم يقل له أحد مثل هذا الكلام .

فسألته سينا بحذر :

- « كيف ؟ » .

أجاب يورى : « هى مثال يريك كيف لا يعيش المرء » :

فقالت دوبوفا :

- « محدثنا عنها بالله لعلنا نستفيد من الدرس »

وكان يورى يرى أن حياته إخفاق مطلق وأنه هو أتعس الناس وأشقاهم .

وفى هذا الاعتقاد نوع من السلوى الشجية فكان يلد له أن يبث الناس

شكاته من حياته ومن الناس على العموم . ولم يكن يحدث الرجال بشيء

من هذا ، إذ كان يشعر بغريزته أنهم لن يصدقوه . أما النساء - لا سيما

الشواب الحميلات منهن - فكان على أتم استعداد للإسهاب معهن فى

تحديثهن عن نفسه .

وكان يورى وسيا محدثا ، ولم يعدم قط من النساء العطف عليه

والمرثية له .

فشرع يحدثهما متفكهاً فى أول الأمر ، غير أنه لم يلبث أن عاودته

نغمته المألوفة فأطال في الكلام في نفسه ويظهر مما قال أنه رجل ذو مواهب عظيمة سحقتها قوة الظروف ، وأساء فهمها حزبه وقضى عليه نحس الطالع وحماقة الناس ألا يكون أكثر من طالب منفى لا زعيم أمة .

وكان يوربي ككل الراضين عن أنفسهم لا يستطيع أن يدرك أن هذا ليس من شأنه أن يثبت عظم مواهبه ، وأن ذوى العبقرية يلتف بهم مثل رفقاءه وتعرض سبيلهم مثل هذه الكوارث والمصائب ، ولكنه كان يتوهم أنه هو وحده فريسة قدر لا يرحم .

ولما كان محدثاً بارعاً وكان في كلامه قوة وحياة فإن ما يقوله كان يكتسب رنة الصدق ، فتصدقه الفتيات ويعطفن عليه ، ويشاطرنه الأسى لما نزل به .

وكانت الفرقة لا تزال تعزف ألحانها الحزينة المتنافرة والليل حالك ثقیل الظل فاكتبوا جميعاً . ولما كف يورى عن الكلام سأله دوبروفا وهي تفكر في حياتها المملة النائرة وصباها البائد قبل أن تدرى ما الطرب أو الحب :

— « قل لي يا يورى ؟ ألم تخطر لك فكرة الانتحار ؟ » .

أجاب : — « لماذا تسأليني هذا ؟ » .

قالت : — « لا أدري لماذا ؟ » .

وصمتوا جميعاً .

ثم سأله سينا بشيء من التلهف :

— « إنك عضو في اللجنة . أليس كذلك ؟ » .

فأوجز يورى في الجواب مجتزئاً « بنعم » .

كأنه يريد أن يعترف بهذه الحقيقة ولكنه في الواقع سره أن يعترف لأنه ظن ذلك يزيد اهتمام الفتاة به .

ثم رافقهما إلى بيتهما وجعلوا يضحكون جميعاً ويتحدثون كثيراً طول الطريق ، وانقشعت عنهم سحابة الكآبة .

ولما انصرف يورى قالت سينا :

— « ما أطفه » .

فهزت دوبروفا أصبعها متوعدة .

— « حاذرى أن تقعى فى حبه » .

فقالت سينا : « أى خاطر هذا ؟ » .

وضحكت وإن كان الخوف قد خامرها .

ووصل يورى إلى بيته وهو أكثر انشراحاً وأعظم أملاً ، وذهب إلى الصورة التى كان قد بدأها وجعل يتأملها فلم يجد لها فى نفسه وقعاً ما ، فاستلقى ونام راضياً مطمئناً ، وبدت له فى أحلامه نساء جميلات متأنقات مغريات .

(١٠)

وفى الليلة التالية عاد يورى إلى نفس المكان الذى التقى فيه بسينا وزميلتها وكان نهاره كله يفكر مسروراً فيما جرى له معهما من الحديث فى الليلة السابقة .

فراح يرجو أن يلقاهما مرة أخرى وأن يحدثهما كما فعل ، وأن يرى فى عيني سينا الرقيقتين نظرة العطف والحنو التى أنس بها فى ليلته تلك .

وكان المساء ساكناً واجنوا دافئاً والأتربة الخفيفة نائرة ، والميدان خالياً إلا من واحد أو اثنين من السابلة .

فسار يورى وعيناه إلى الأرض ، وجعل يخاطب نفسه قائلاً :

— « ما أشد ملالى . ماذا أصنع ؟ »

وإنه كذلك وإذا بشافروف الطالب يغذ السير ويطوح بذراعيه ثم دنا منه وعلى وجهه ابتسامة الودود وسأله :

« مالك تمشى وتبدا ؟ »

فقال يورى بلهجة فائرة فيها شيء من التعالى :

— « لقد كاد يقتلنى الملل ولا أدرى ماذا أصنع . وإلى أين ؟ »

وكان لا يكلم شافروف إلا بهذه اللهجة لأنه عضو سابق فى اللجنة الثورية أما شافروف فما هو فى نظره إلا فنى ثورى حديث العهد . فابتسم شافروف ابتسامة

الرضى عن النفس وقال :

« ستلقى اليوم محاضرة »

وأشار إلى حزمة من الرسائل مطوية فى ملف ملون .

فتناول يورى إحداها وفتحها وقرأ المقدمة الطويلة الخافتة لخطبة اشتراكية مشهورة كان يعرفها ثم نسبها الآن .

فسأله يورى — « وأين تلقى هذه المحاضرة ؟ »

ورد إليه الرسالة وعلى فيه ابتسامة الاستخفاف .

أجاب شافروف :

فى « المدرسة »

وكانت هى عين المدرسة التى تدرس فيها سينا كرسافينا ودوبوفا .

فذكر يورى أن أخته لياليا حدثته مرة عن هذه المحاضرات ولكنه لم

يجعل باله إليها ، فسأله . « أسمح لى أن أرافقك ؟ »

أجاب « بلا شك »

وأظهر السرور بهذا الاقتراح وكان يعد يورى مهيجا صميا وبيالغ فى

تقدير كفاءته السياسة ويكبره ويحبه .

وأحس يورى أن لابد له من أن يقول :

— « لى عظيم الاهتمام بهذه الشؤون »

وسره أن عرف كيف يقضى ليلته وأنه سيلاقى سينا مرة أخرى

فقال شافروف : « نعم هم بلاريب »

أجاب : « إذن فلنمض »

وسارا مسرعين في الميدان واجتازا الجسر ، وصافجهما من جانبيه الهواء البليل ولم يلبثا أن بلغا المدرسة حيث كان الناس قد اجتمعوا . وكانت القاعة مظلمة وقد صفت فيها المقاعد والأدراج وبدأ القماش الأبيض المعد للمصباح السحري . وكان المرء يسمع أصوات الضحك المكتوم . ووقفت لياليا ودوبوفا عند النافذة ومنها كان الناظر يستطيع أن يرى أغصان الأشجار الخضراء وعليها من الظلام جهامته ، فحيثما يورى فرحتين وقالت لياليا :

— « ما أعظم سرورى بحضورك ! »

وهزت دوبوفا يده بشدة .

فقال يورى مستفهما وأدار لحظه فيمن حوله لعله يرى شيئا :

— « لماذا لا تبدأون ؟ »

ثم قال وفي صوته دابل صريح على خيبة أمله :

— « أرى سينا لا تخضر هذه المحاضرات »

وأشعل بعضهم في هذه اللحظة عود كبريت قريباً من منضدة المحاضر ، فبدت في نوره قسبات سينا وأضاء محياها النضير الجميل وكانت تبثس في سرور ، فقالت وانحنى ليورى ومدت إليه راحتها

— « ألا تخضر هذه المحاضرات ؟ »

فصافحها مسروراً دون أن يتكلم .

واتكأت هي قليلا ووثبت إلى بجانبه فأحس نغمسها العذب المنعش على خده وجاء شافروف من الغرفة المجاورة وقال :

— « قد آن أن نبدأ »

فسار الخادم بخطى ثقيلة طائفاً بالغرفة ، وموقدا مصابيحها واحدا بعد واحد فشاع في الحجرة نورها .

وفتح شافروف الباب المؤدى إلى الممر وقال بصوت عال :

— « تفضلوا من هنا » .

فدخل الناس وكان بهم في أول الأمر بعض الحياء ثم ماعتموا أن حثوا الخطي في جلبة وضوضاء .

وجعل يورى يفحص وجوههم ولما كان من مروجى الدعوة السياسية فقد تحركت نفسه واشتد اهتمامه .

ودخل الحجرة شيوخ وشبان وأطفال لم يجلس منهم أحد في الصف الأول فشغلته سبع سيدات لا يعرفهن يورى وإلى جانبيه مفتش المدارس واساتذة المدارس الابتدائية للبنين والبنات ومعلماتها وغصت بقية القاعة بلابسى الجلاليب والمعاطف الطويلة وبالخنود والفلاحين والنساء وبكثير من الأطفال في قمصان ملونة عليها جاككات واسعة .

وجلس يورى بجانب سينا إلى درج وأصغى إلى شافروف وهو يتلو في سكون — أردأ تلاوة — خطاباً موضوعه حق الانتخاب العام .

وكان صوته جافاً مملاً فقرأ شيئاً إلا خيل إلى سامعه أنه قائمة احصاءات . ولكن الناس أنصتوا مع هذا ما خلا المتعلمين الجالسين في الصف الأول . فسترعان ماقلقوا وراحوا يتهايمسون .

فساء يورى هذا منهم وأدركه العطف على شافروف والأسف لرداء القائه وكان هذا قد بدا عليه التعب فقال يورى لسينا :
— « ماقولك في أن أنوب عنه ؟ » .

فرمته بنظرة رقيقة من تحت أهدابها المرسلة . وقالت :

— « نعم . نعم افعل ذلك . بودى لو فعلت » .

فهمس في أذنها مبسماً لها كأنما كانت شريكته :

— « أترين في هذا ضير ؟ » .

فقال : « ضير ؟ كلا ، كلنا حقيقون أن نعتبط » .

وسنحت فترة فعرضت ذلك على شافروف وكان قد نال منه التعب ولم يكن يغيب عنه سوء القائه فقبل مسروراً وأخلى مكانه ليورى وقال :

- « بلاشك . حباً وكرامة » .

وكان يورى مواعداً بالالتقاء بحسنه ويجيده فتقدم إلى المنضدة دون أن ينظر إلى أحد وشرع يتلو بقية المحاضرة بصوت عال مترن .

وسدد لحظه إلى سينا مرتين . والتفت عينه في كل منهما بعينها المتألقة الناصبة . فابتسم لها مسروراً مرتبكاً ثم رجع إلى كتابه واستأنف القراءة بصوت أعلى وأقوى وكان كأنما يباشر عملاً ليس أسمى منه ولا أمتع ولما فرغ صفح له الخالسون في الصفوف الأولى فأنحنى لهم يورى في أدب ووقار وانصرف عن المنضدة وهو يبتسم لسينا كأنما يريد أن يقول ذا : « لقد فعلت هذا من أجلك » وتهاشم الناس قليلاً ثم تجاوبت الحجرة بضوضاء الكراسي لما دفعها الخالسون عليها إلى الوراء وهم ينهضون عنها .

وقدم يورى إلى سيدتين هنأتاه بحسن القائه .

ثم أطفئت المصابيح وعادت الغرفة مظلمة .

وقال شافروف وهو يهز كف يورى بحرارة :

- « أشكرك كثيراً . ربودى لو أن لنا دائماً من يلقي مثلك » .

وكانت المحاضرة شغل شافروف فأكبر صنيع يورى وطوق نفسه بغضاه كأنما كان أحسن إليه في أمر يخصه وإن كان كان قد جعل شكره باسم الشعب . وألح شافروف في ذكر « الشعب » وجعل يؤكد لفظه ويتولى كأنما يودع يورى سرّاً خطيراً :

- « إنهم لا يصنعون هنا شيئاً للشعب فإذا هم فعلوا فبدون أكثرات أو

احتفال . وغريب أدرهم ! يأتون بطائفة مختارة من خير الممثلين والمغنيين والمحاضرين ليتلهمهم المنطرون من السادات . فأما الشعب فنى محاضر مثلى الكفاية . كل امرء راض ، فساذا يطلبون فوق هذا ؟ » .

وافتر ثغره سروراً بتهكمه الرقيق :

فقلت دوبروفا :

— « هذا صحيح . والصحف تفرد أعمدة برمتها للممثلين ولأعمالهم العجيبة . إن هذا مثير حقاً . أما هنا ... » .

فقال شافروف باقتناع وهو يجمع أوراقه :

« ولكن ما أصلح عملنا وأنفعه ؟ » .

فقال يورى لنفسه :

« يا لها من غرارة كغرارة الأطفال ؟ » .

ولكن وجود سينما وما وفق إليه هو من النجاح جنحاً به إلى التسامح :
والواقع أن بساطة شافروف وسذاجته وقعا من نفسه وأشعراه بعض العطف عليه .

ولما صاروا في الشارع سألتهم دوبروفا :

— « والآن أين نذهب ؟ » :

وكان الظلام في الشارع مثله في الحجرة ولم يكن في السماء إلا بضعة نجوم مضبئة :

وقالت دوبروفا ليورى :

— « أنا وشافروف ذاهبان إلى أسرة راتوف فهل لك أن ترافق سينما إلى المنزل ؟ » .

أجاب : — « بسرور » .

وكانت سينما ودوبروفا يسكنان بيتاً واحداً قائماً وسط حديقة كبيرة مجذبة المنظر .

وكان حديث سينما ويورى أثناء رواحتهما دائراً حول المحاضرة ووقعها في نفوس السامعين .

فزاد اقتناع يورى بأنه أنى عظيما وفعل شيئاً جيداً .

ولما بلغا البيت قالت سينا :

— « هل لك أن تمكث معى برهة ؟ » .

فقبل يورى مسروراً وفتحت الباب واجتازا الفناء المعشوشب وكانت الحديقة تلوه . فقالت سينا ضاحكة :

— « اسبقنى إلى الحديقة : ولقد كان بودى أن أذكلك المسكن ولكنه ليس على ما ينبغى من النظافة والنظام فلانى لم أعد مذكرايلته فى الصباح » .

ودخلت البيت ومضى يورى متريثاً إلى الحديقة الخضراء الأرجة ولم يوصل فيها بل وقف يلتفت فى أرجائها ويحدق فى نوافذ البيت المظلمة كأنما قام بنفسه أن شيئاً يجرى هناك — شيئاً غريباً جميلاً غير مفهوم — وبرزت سينا إلى عتبة الباب ولكن يورى لم يكدها يعرفها وكانت قد نصبت ثوبها الأسود وارتدت ثوب « الروسية الفتاة » وهو صدرية إلى الخصر قصيرة الأكمام ينسدل من تحتها إلى الساقين قميص أزرق فقالت باسمه :

— « هذا أنا » .

فأجابها يورى رفى صوته نبرة توكيد لا يقدرها غيرها :

— « وكذلك أراك » .

فابتسمت ثانياً ونحت عينا عنه وهما يسيران بين الحشائش الطويلة وأغصان النيلاج . وكانت الأشجار صغيرة وأكثرها أشجار توت لأوراقها الصغيرة رائحة الصمغ . ومما يلى الحديقة مرج متفتحة فيه الأراهير بين الحشائش .

فقالت سينا :

— « دعنا نجلس هنا » .

فجلسا إلى جانب السور المتداعى وجعلتا يتأملان الشفق الزائل من وراء المرج ، وتناول يورى عود ليلاج صغير فتساقطت عنه الأنداء .

وسألته سينا : « هل أغنيك ؟ » :

أجاب : « نعم غني ! » .

فأصعدت سينا نفساً عميقاً كما فعلت ليلة الزهرة وبرزت معالم صدرها
البديع تحت صدريتها الرقيقة وهي تغنيه :

« آه يا نجم الحب الوضيء »

وسبحت ألحانها النقية الحارة في جو المساء :

وظل يورى جامداً يرمقها ويحبس أنفاسه أن تطغى بصدره .
وأحست هي أنها قيد لحظه فأغمضت عينها وانطلقت تغني أعذب غناء
وأحره .

وكان السكون شاملاً محيطاً كأن كل شيء يصغى ، ومثل في خاطر
يورى سكون الغابات الرهيب في الربيع إذا ما غرد بلبل .
وكانت خاتمة غنائها نغمة صافية عالية غادرت السكون أتم وأشد .

وكان الشفق قد زال وأمسست السماء حالكة مهولة وارتعشت الأوراق
والحشائش من حيث لا تراها عين ، وهب على المرج وجاز الحديقة نسيم
لرج خفيف كالزفرة .

فأدارت سينا عينها المتألفتين في الظلام إلى يورى وقالت :
« مالك صامتاً ؟ » .

أجاب : « ما أجمل هذا المكان » .

وتناول عود ليلاج ندى آخر :

فقال سينا بهيئة الحالم : « نعم إنه جميل » .

فقال يورى :

— « جميل جداً أن يعيش المرء » .

وطاف برأسه خاطر غامض مقلق واكنه لم يلبث أن زال قبل أن يستبين ويتضح :

وصفر بعضهم صفرتين عاليتين على الناجية الأخرى من المرجح :
ثم سكنت كل نائمة فقالت سينا فجأة وقد سرها على ما يظهر هكذا
السؤال الذى لم يكن من داع له :
- « أحب شافروف ؟ » .

فأحسن يورى ألم الغيرة لحظة واكنه أجاب بتؤدة بعد جهد لطيف :
- « إنه رجل طيب » .
فقالت : « ما أعظم انقطاعه لعمله » .

فسكت يورى وتصاعد من المرج ضباب رقيق أشهب وبحال لون
الحشائش تحت الندى .

وقالت سينا وهى ترتجف قليلا :
- « لقد اشتدت الرطوبة » .

فنظر يورى إلى كتفيا الرقيقتين المستديرتين واضطرب فجأة :
وأحست هى بنظرته فسرت إليها عدوى الاضطراب وإن كان قد سرها
ما لاحظت وقالت :

- « لنقم من هنا » .

وعادا أدراجهما آسفين وقطعا بمشي الحديقة الضيق وكانا يحتكان
أحيانا وهما سائران : وكل ما حولهما مظلم مهجور . وخيل إلى يورى أن
ستبدأ حياة الحديقة الآن - حياة مستسرة مجهولة - وأن ستسلك بين
الأشجار وترتمى على الحشائش المثقلة بالأتداء ظلال غريبة متى أحلوك
الظلام، وأن أصواتا ستهاشم فى الخضر الساكن من أرجائها .

وأفضى إلى سينا هذا الخاطر فشخصت بعينها السوداوين إلى الظلام

وهي تفكر وقيام في نفس يورى أن « سينا » لو نضت عن جسمها كل أرويتها وانطلقت تعود على الحشائش المطولة إلى حيث تتكاثف الأشجار — وهي جارية بيضاء تجذلة — لما كان في هذا شيء من الغرابة . بل أخلق به أن يكون أمراً طبيعياً حسن الوقع . وليس من شأن هذا الحادث — إذا وقع — أن يزعج حياة الحديقة الخضراء المظلمة ولعلها تستوفي به حاجتها ونازعته نفسه أن يسر إليها بهذا الخاطر ولكن شجاعته خائنه فتحدث إليها عن المحاضرات والشعب ولكن الحديث كان مقطوع الأوصال ثم كفا عن الكلام كأنما ضنا بالألفاظ أن يسوقاها عبثاً .

وهكذا وصلا إلى الباب وهما صامتان باسبان ينفضان باكتافهما الندى عن الأغصان .

وكان كل شيء ساكناً مفكراً سعيداً مثلهما .

وكان الفناء مظلياً مهجوراً كما ألفياه من قبل . ولكن الباب الخارجى كان مفتوحاً وتأدى إليهما من البيت وقع أقدام مسرعة وصوت أدراج تفتح وتغلق فقالت سينا :

— « لقد عادت أربنا » .

وسألت دوبروفا من البيت :

— « سينا ! أهذا أنت ؟؟ » .

وكان في نبرة صوتها ما يشعر بوقوع أمر مريع وبرزت إلى الباب مضطربة حائلة اللون . وقالت وأنفاسها منبهة :

— « أين كنت ؟ لقد كنت أبحث عنك . إن سمينوف يموت ! » .

فصاحت سينا فزعاً :

— « ماذا تقولين ؟؟ » .

أجابت : « نعم يموت . فقد انفجر أحد أوعية الدم . ويقول أنا تول بافلوفتش أنه مقضى عليه . وقد حملوه إلى المستشفى . وكان كل ذلك بسرعة مرعبة . فقد كنا في بيت راتوف نشرب الشاي وكان المسكين جذلاً يجادل نوفيكيوف في كل مسألة . ثم أخذ السعال فجأة فهض وتطرح ونفث الدم على كساء المائدة وفي طبق المربي ... والدم أسود سائل » .

فسألها يورى باهتمام ساهم :

« وهل هو يعرف ذلك ؟ » .

وذكر الليلة القمراء والظال الحالك والصوت الضعيف المتقطع يقول له « ستكون حياً وتمر بقبرى وتقف عليه وأنا . . . » .

فقالت دوبروفا وعلى يديها حركة عصبية :

— « نعم يظهر أنه يعرف . فقد دارت بنا عينه وسألنا « ما هذا ؟ » ثم أخذته الرعدة من فرعه إلى قدمه وقال : « أو قد قضى الأمر ؟ . . : أليس هذا فظيماً ؟ » .

فقال يورى : — « هذا أهول مما يطاق ! » هـ

وصمتوا جميعاً .

وكان الظلام الآن حالكأ . ومع أن السماء صافية فقد توهموا فيها الكتابة والحزن .

ثم قال يورى ووجهه أصفر :

— « الموت شيء فظيع » .

فتهدت دوبروفا ونظرت إلى الفضاء . وارتعشت ذقن سينيا وابتسمت وهي لا تملك غير ذلك ولم تستطع أن تحس ما أحساه من الهول . وهي عادة في عنفوان الصبا يجول في عودها ماء الحياة الدافق ولا يسعها أن تحصر

خوابها في الموت . ولم يكن مما يصدق خيالها أو يقوى على تصوره أن يتعذب أحد ويموت في ليلة صيفية جميلة وضيئة كهذه . نعم إن الموت طبيعي لا شك فيه ، ولكنه لسبب ما خطأ . وأخجلها هذا الإحساس فعاجلت أن تنفيه وأن تظهر على قسبات وجهها دلائل العطف . وراحت بفضل هذا الجهد وهي أظهر أسمى من صاحبها وسألت :

— « مسكين ! أهو حقيقة . . . ؟ » :

وكانت تريد أن تسأل « هل سيموت عاجلاً ؟ » :

والكن الألفاظ وقفت في حلقها .

وجعلت تلتقي على دوبروفا أسئلة فارغة مفككة .

فقال دوبروفا بصوت فاتر :

« إن أنا تول بافلوفتش يقول إنه سيموت الليلة أو غداً صباحاً » :

فهمست سينا :

« أولاً نذهب إليه ؟ أم تريان أن البقاء خير ؟ لا أدري ! » :

وكان هذا السؤال يدور في أذهانهم جميعاً — أبذهبون ويشهدون سمينوف وهو يقضى نحبه ؟ أ يكون هذا خطأ منهم أم صواباً — ورغبوا جميعاً في الذهاب ولكنهم أشفقوا مما عسى أن يشهدوا :

فهز يورى كتفيه وقال :

« فلنذهب . ومن المحتمل جداً أن لا يأذنوا لنا وربما . . »

فأضافت دوبروفا كأنما ارتفع عن كاهلها عبء :

— « ربما طلب سمينوف أن يرى بعضهم على الخصوص »

فقال سينا بلهجة باتة :

— « تعالوا بنا ! سنذهب »

وقلت دوبروفا وكأنها تريد أن تسوغ الأمر لنفسها :

— « إن شافروف ونوفيكوف هناك » .

وعدت سينا إلى البيت لتعود بقبعتها ومعطائها ثم مضوا جميعاً في وجوم
مخترقين البلدة إلى البناء الضخم الأشهب ذى الأدوار الثلاثة أى المستشفى
الذى كان سمينوف يجود فيه بأنفاسه .

وكانت الممرات الطويلة ذات الأقبية مظلمة تتصاعد منها رائحة اليودوفرم
والكاربولىك .

ومروا في طريقهم بقسم الخناين فسك أسماهم صوت نائر أبجش ،
ولكنهم لم يروا أحداً فزعدوا وحشوا الخطى إلى نافذة صغيرة معتمة .

وجاء إليهم فلاح هرم شائب الرأس والحية وعلى صدره « فوطه »
كبيرة وقدماه في حذاءين عالمين ضخمين يدب بهما على الأرض .
فسألهم ووقف :

— « من تريدون أن تعودوا ؟ » ؟

فقالت دوبروفا متلجلجة :

— « جئنا بطالب إلى هنا — سمينوف — اليوم ! » ؟

فقال الخادم :

— « رقم ٦ فى الدور الثانى » .

وتركهم وسمعوه يتمخط ويبصق على الأرض ثم يدهس البصاق

بقدمه .

وكان الدور الثانى أضواً وأنظف ولم تكن بالسقف عقود ورأوا باباً
مفتوحاً مكتوباً عليه « حجرة الطيب » ولحوا فيها مصباحاً يضيئها وسمعوا
أصوات الزجاجات والأكواب :

فأدخل يورى رأسه ونادى من فيها فانقطعت الأصوات .
وظهر ريبازانتزيف نضير الوجه مسروراً كعادته وقال بصوت طروب
إذا كان قد أُلِف هذه الحوادث التى أحزنت زائريه :

— « آه إن دورى اليوم . كيف أنتم سيداتى ؟ » :

ثم قطب فجأة وقال بلهجة جادة كبيرة الدلالة :

— « إنه لا يزال غائباً عن رشده على ما يظهر : فلنذهب اليه إن نوفيكونف
وغیره هناك » .

وساروا واحداً وراء الآخر فى الممر الضيق النظيف وإلى يمينهم ويسارهم
أبواب بيضاء عليها أرقام سوداء وقال ريبازانتزيف :

— « لقد أرسلنا فى طلب القسيس : ما أسرع ما جاءت الخاتمة ! إني مستغرب !
ولكنه أصيب ببرد كما تعلمون وهذا هو الذى قضى عليه . هذه هى الغرفة » .

وفتح ريبازانتزيف باباً أبيض ودخل منه وتبعه الآخرون يتصادمون على
العتبة :

وكانت الغرفة نظيفة رحبة . وفيها أربعة أسرة خالية وعلى كل منها
غطاؤه الخشن مطوياً يحضر فى الزهن صورة النعش : وفى السرير الخامس
رجل هرم ضئيل الجسم جاف العود جالس يلحظ الداخلين وعلى السرير
السادس سمينوف وفوقه غطاء خشن كذلك . وإلى جانبه نوفيكونف
منحنياً إليه . على حين كان إيفانوف وشافروف واقفين عند النافذة .

وكانوا كلهم يرون من الأمور الغريبة المؤلمة أن يتصافحوا فى حضرة
رجل يموت وربكم أن لا يفعلوا كأن فى ترك المصافحة إشارة إلى أن المتنبى
قريب . فسلم البعض وامتنع الآخرون ووقفوا جميعاً يرمقون سمينوف
بعيون مستفسرة

وكان يتنفس ببطء وجهده . وما أبعدته عن سمينوف الذى يعرفونه ،
والواقع أنه لم يكن كالأحياء . وقد ظلت معارفه وأوصاله ولكنهما صارت
متصلبةً مشدودة فظيعة المنظر . وكأن ذلك الذى يصب الحياة والحركة فى
أجسام الآدميين غيره لم يعد له وجود . وكأن أمراً مرعباً يجرى بسرعة
وتكتم فى هذا الجسم الجامد — أمراً مهماً لا سبيل إلى إرجائه وكأنما لم يبق
له من الحياة إلا تلك القوة المشتغلة بهذا العمل المتفرغة لاتمامه باهتمام حاد
لا يناله التفسير .

وكان المصباح المدلى من السقف يصب ضوءه على وجه ذلك المائت .
وكل من فى الغرفة يثره النظر ويلقى أنفاسه كأنما يخشى أن يزعج شيئاً
رهيباً . فكانت أنفاس المريض المحشجة المخنوقة — وسط هذا
السكون — واضحة وضوحاً مرعباً .

وفتح الباب ودخل قسيس بلدين قصير يسير بخطى قصيرة ضعيفة ومعه
المرتل وهو رجل أسمر هزيل ودخل معهما سانين وسعل القسيس سعالاً
خفيفاً وانحنى للطبيين وللحضور فردوا عليه بأدب مبالغ فيه ثم عادوا
إلى الصمت التام .

أما سانين فلم يجعل باله إلى أحد . ومضى إلى النافذة . ومن ثم أخذ يرصد
سمينوف والحاضرين جميعاً منقباً فى سرائرهم معالجا أن يستشف من
الوجوه ما يحسه المريض ومن حوله ويفكرون فيه فى الواقع .

وظل سمينوف جامداً يتنفس كما كان .

وقال القسيس فى رفق غير موجه سؤاله إلى أحد على التعيين .

«إنه غائب عن رشده . أليس كذلك؟»

فأسرع نوفيكوف وأجابه : «نعم» .

وتتم سائين شيئاً غير مفهوم فنظر إليه القسيس مستفسراً غير أن سائين ظل صامتا فصرف القسيس وجهه عنه ومسح شعره ورده إلى الوراء وأبس عباؤه وشرع ينشد التراتيل للميت بصوت عال شجي .

وكان صوت صاحبه المرتل ضحاً خشنا ثقيلًا فصار الصوتان مختلفان مؤلين في تنافرهما وهما يتصاعدان إلى السقف العالي .

ولم يكد الترتيل يبدأ حتى اتجهت كل العيون في فزع إلى ذلك الذي يموت . وكان نوفيكونف أدنى إليه فخیل إليه أن جفون سمينوف اختلجت قليلا كأنما تحرك من تحتها الإنسانان المكفوفان في اتجاه الغناء . أما الآخرون فلم يروا إلا أن سمينوف بقى بلا حراك كما كان من قبل .

ولم يكد الترتيل يبدأ حتى بكت سينا بكاء ساكناً ملاحاً وانهمرت الدموع على محياها النضير الجميل . فتحولت إليها العيون وشرعت دوبوفا تبكي كذلك وجات العبرات في عيون الرجال ولكنهم قرضوا أسنانهم ليمنعوا الدموع أن تسيل . وكانت الفتيات كلما علا الترتيل يزددن نحيباً . فعبس سائين وهز كتفيه محنقا وجعل يقول لنفسه : ما أخلق سمينوف أن لا يطبق — إذا سمع — هذا العويل الذي يكره نفس الأصحاب ثم قال للقسيس في غيظ :

— «خفض من صوتك !» :

فقال القسيس إليه لسمع ما يقول فلما فهم معناه قطب وزاد في صوته علوا . وحملق رفيقه في سائين ورماه الجميع بنظرهم كذلك وبهم مزيج من الخوف والدهشه كنه قال شيئاً يسوء فأعرب سائين عما به من الضيق بإيماء ولم ينبس .

ولما انتهى من الترتيل وطوى القسيس الصليب في عباؤه ألح الانتظار على النفوس بالألم .

وكان سمينوف متصنبا جامداً كالعهد به :

ثم طاف بأذهان الجميع فجأة خاطر فظيع لاسبيل إلى مغالته . ونفيه .
 « أما لو أنه انتهى الأمر بسرعة ! لو أن سمينوف يعجل بالموت ! »
 ولكن الخوف والحجل دفعاهم إلى كتمان هذه الرغبة والاكتفاء
 بتبادل النظرات الضعيفة .

فقال سائين بصوت منخفض :

— « أما لو انتهى كل هذا ! فظيع . أليس كذلك ؟ » .

فأجابه إيفانوف :

— « نعم » .

وكان كلامهما همسا ومن الجلى أن سمينوف لم يكن يستطيع أن يسمعهما
 غير أن الحاضرين بدت عليهم إشارات الاشتزاز والاستفهام .

وهم شافروف أن يقول شيئا ولكن صوتا جديدا شاكيا لاسبيل إلى
 وصف ما انطوى عليه من ألم — دوى في الغرفة وأرسل الرعدة في الموجودين .

ذلك أن سمينوف أخرج هذا الصوت :

« آه..... آه..... آه..... »

وكأنما اهتدى إلى طريقة يطلبها للتعبير والنطق ففضى يخرج هذا الصوت
 الممطوط لا يعوقه إلا نفسه المحشرج المخنوق .

ولم يدرك الحضور في أول الأمر ماذا حدث له .

ولكن سينا ودوبوفا بكتا .

واستأنف القسيس ترتيله في ببطء واحتفال وظهرت على وجهه السمين

الطيب دلائل العطف والانفعال .

ومضت دقائق . وكف سمينوف فجأة عن التوجع . وهمس القسيس أن قد

قضى الأمر

ثم حرك سمينوف ببطء وبجهد جاهد شفثيه المصمغتين وتقبض وجهه كأنما ينتهم وسمع النظارة صوتاً أجوف منكراً يخرج من أعماق صدره وكأنه خارج من نعش - يقول :

— « أيها الشيخ الأحمق ! » .

وعيناه تنظران شزرا إلى القسيس وشاعت الرعدة في جسمه ودار حلاقاه كالمجنونين في كهفيهما وتمطى...

وسمعوا جميعاً كلماته الثلاث ولكن لم يتحرك منهم أحد وغاضت - لحظة - من وجه القسيس السمين الرطب آية الحزن وتلفت نحوه في قلق غير أن لحظه أخطأ كل عين .

وكان سائين وحده ينتهم .

وحرك سمينوف شفثيه ثانياً غير أنه لم يخرج منهما صوت واسترخى أحد شاربيه الخفيفين وتمطى مرة أخرى وصار في رأى العين أطول وأقطع . وانقطع كل صوت وكل حركة . ولم يبك أحد الآن . فقد كان - نزول الموت أهول من ترنيقه وكأنما كان من الغريب المعجب أن ينتهى منظر مفتت كهذا بمثل تلك السرعة والبساطة .

فظلوا برهة وقوفاً إلى السرير يتأملون معارف وجهه الميتة النائثة وكأنهم يتوقعون أن يحدث شيء جديد وراحو - لكي ينهبوا في نفوسهم الإحساس بالهول والمرثية - يرقبون نوفيكيوف وهو يغمض أجفان الميت ويضع له يديه على صدره .

ثم خرجوا في سكون وحذر . وكانت المصابيح قد أضيئت في الممر وبدأ لهم كل شيء مألوفاً فخلصت أنفاسهم .

وكان القسيس أول الخارجين فضى بخطوات قصيرة وأراد أن يقول شيئاً على سبيل الغزاء للإيضاح من الحاضرين فتنهد وقال بصوت رقيق :

- « وآسفاه ! إنه لأمر محزن جداً ! وفي مثل هذا الشباب أيضاً .
 وآسفاه ! ومن الواضح أنه مات غير تائب ولكن الله رحيم » :
 فقال شافروف وكأنه يليه متوخياً الأدب :
 — « نعم : نعم . بالطبع » .
 فسأل القسيس :
 — « أتعرف أسرته ما حدث » :
 فأجابه شافروف :
 — « لست أدري » :
 ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة واستغربوا واستقبحوا أن لا يعرفوا
 من هم أهل الميت :
 وقالت سينا : « أظن أخته في المدرسة العالية » :
 فقال القسيس :
 — « آه حسن ! والآن عموا مساء » .
 ورفع قبعته قليلاً بأصابعه السمينة .
 فقالوا جميعاً بصوت واحد .
 — « عم مساء ! » :
 ولما بلغوا الشارع تهادوا كأنما تخلصوا . وسألهم شافروف :
 — « أين نذهب ؟ » :
 وبعد تردد قليل ودع بعضهم بعضاً ومضى كل في طريقه .

لما رأى سمينوف الدم الذى نفث وأحس الفراغ الرهيب فى نفسه ومن
 حوله : ولما احتملوه ومضوا به ووضعوه وقاموا له بكل ما كان يفعله

هو في حياته — حينئذ أيقن أنه سيموت وعجب كيف لا يشعر بأقل فزع من الموت .

وقد قالت دوبوفا : إنه ربيع لأنها هي نفسها ربيع وتوهمت أنه لما كان الصحيح المعافى يرهب الموت فلا بد أن يكون المحتضر أعظم فزعاً واستهوالاً له . وحسبت اصفراره وشروء نظراته — وهما نتيجة الضعف وخسارة الدم — دليلاً على الخوف . ولكن الأمر لم يكن كذلك في الواقع . وكان سمينوف يخاف الموت أبداً ويفرق منه لاسيما منذ عرف أنه مصاب بالسل . وكان في أول مرضه نهب الفزع وفريسة الذعر شأنه في ذلك كشأن المحكوم عليه بالإعدام ضاع كل رجاء في العفو عنه . وكاد يصور له الرعب أن الدنيا لم يعد لها وجود منذ تلك اللحظة وأن كل مستملح جميل سار قد اختفى وزال وأن ما حوله يموت ويقضى نجه وأن كل لحظة بل كل ثانية قد تكر عليه بالمفزع الذي لا يسعه طوق والمستهول كالهواية السحيقة السوداء الفاغرة . وكان الموت يتمثل له كالهواية الهائلة المظلمة كالليل . وكانت هذه الهواية أبداً ماثلة لعينه حياً ذهب . وفي ظلامها الكثيف يختفى كل صوت وكل لون وكل إحساس . وأخلق بمثل هذه الحالة النفسية أن تكون مرعبة ولكنها لم تطل وصار سمينوف كلما أخب به الداء وأوجف على مر الأيام يزيد الموت في نظره بعداً وغموضاً والتياراً .

واسترد ما حوله من الأصوات والألوان والعواطف قيمته الأولى عنده وعادت الشمس تشرق كأضواء ما كانت . ورأى الناس يباشرون أعمالهم كالعادة وأحس هو مثلهم أن ثم أموراً خطيرة وأخرى نافهة ينبغي له أن يعالجها . وصار يقوم في الصباح ويتحرى العناية في غسل وجهه ويتناول غذائه ويستمرته أو لا يستمرته كسابق عهده ويجد الغبطة بالشمس تطلع والقمر ينير والضيق بالمطر والرطوبة كما كان . ويلعب البليارد مساء مع نوفيكراف وغيره ويقرأ الكتب ويستجيد بعضها ويستسخف البعض ويسترد له كعده قديماً .

وضايقة — بل آلمه في أول الأمر — إن كل شيء ظل على حاله لم يلحقه تغيير فحاول أن يبدل هذا الحال بأن يدفع الناس إلى الاهتمام له والاكتراث لموته وأن يكرههم على أن يقدروا موقفه المفزع وأن يدركوا أن الأمر قد قضى : غير أنه كان كلما أفضى إلى إخوانه بهذا يعود فيرى أنه لم يكن ينبغي له أن يفعل ذلك وكانوا يعجبون أولاً ثم يتشككون ويذهبون إلى الريب في دقة تشخيص الطبيب للمرض . ثم جعلوا يتوخون آخر الأمر أن يتقوا غصاصة وقع المسألة بأن يغيروا موضوع الكلام ويحاولوا مجرى الحديث . وهكذا ألنى سمينوف نفسه يحادثهم في كل شيء ما خلا الموت .

ثم نزع نفسه إلى العزلة وأن يخلو أبداً بنفسه وأن يتعذب مستفرداً إذ كان حيز إدراكه قد استغرقه القضاء المنتظر . غير أن كل شيء بقى على حاله كما ظلت حياته وأوساطه كما كانت فبدا له أن من انخرط أن يتصور أن الأمر يمكن أن يكون على خلاف ذلك أو أنه هو سيصبح ولا وجود له وصار خاطر الموت أقل لذعا بعد إذ كان جرحاً عميقاً : ووجدت روحه المक्रوبة حربتها وتعددت لحظات النسيان التام وانبسطلت أمامه وجوه الحياة رائعة اللون والحركة والصوت .

ولم يعد يطوف بنفسه إحساس الهاوية السوداء إلا وهو وحده ليلاً . فكان بعد أن يطفىء المصباح يرى شبحاً مسيحاً لا شكل له ولا معارف يشارفه شيئاً فشيئاً في الظلام ويهمس في أذنيه « شش : شش » بلا انقطاع فيجاوبه صوت بشع كأنه خارج من جوفه ويحس أنه صائر بعض هذا الهمس وهذه الهيولى ويرى حياته فيها طيباً وانياً محتضراً قد ينطق في أي لحظة :

فاعتزم أن يدع المصباح يضيء الغرفة الليل كله وكانت هذه الهمسات تنقطع في الضوء والظلمة تنتسخ . وفارقه إحساسه بأنه معلق على فوهة هاوية

فاغرة لأن النور أشعره وجود ألف شيء نافه مألوف في حياته كالكراسي والنور والدواة وقدميه ورسالة لم يتم كتابتها والخذاء الذى نسى أن يتركه خارج الغرفة وغير ذلك من الأشياء اليومية المحيطة به .

على أنه مع ذلك كان يسمع همسات صادرة عن أركان الغرفة التى لم يرها ضوء المصباح فتتفرق الهاوية فاجها له . فكان يفرق من التفريق إلى الظلام بل من التفكير فيه لأنه كان إذا فعل تكتشفه الحلوة المزعجة وتحجب عن عينه المصباح وتختفى العالم كأنما أضمره ضباب بارد كثيف . وكان هذا هو الذى يعذبه ويفزع حتى اكان يحس الحاجة إلى البكاء كالطفل أو أن ينطح الحائط برأسه .

ولكنه ألف هذه الإحساسات والمواجس على مر الأيام وكلما دنا من الموت . ولم تكن تلج به وتطغى إلا إذا أذكره مذكر — من كلمة أو إيماء أو منظر جنازة أو قبر — أنه هو أيضاً لا محالة ميت فآلى — لكى يتقى هذه النذر — أن لا يسير فى سكة تؤدى إلى المقبرة وأن لا ينام على ظهره ويدها مطويتان على صدره .

وكأنما كانت له حياتان : حياته الأولى الرحبية المفهومة وهذه لا تتسع لخاطر الموت بل تغضى عنه إذ كانت فى شغل من شئوننا وهى متعلقة بالأمل فى البقاء أبداً كأننا ما كان ثمن ذلك — وحياة أخرى مستسرة غامضة غير معينة تقرض — كالودودة فى التفاحة — قلب حياته الأولى وتسمها وتجعلها غير محتماة .

وهذا الازدواج فى حياة سمينوف هو الذى جعله لا يكاد يحس أى فرع لما واجه الموت وأيقن أن المنتهى قريب . فلم يزد على أن سأل « أو قد قضى الأمر ؟ » ليعرف على وجه التحقيق ماذا يجب أن ينتظر .

ولما قرأ فى وجوه من حوله جوابهم عن سؤاله عجب للموت كيف يكون على هذه البساطة كأنه مهمة ثقيلة أرهقت قواه وأدرك فى الوقت نفسه بنوع

من الإلهام الباطن أنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا. وأن الموت نتيجة طبيعية لاستنزاف حيويته ولم يتحسر على شيء سوى أنه لن يرى شيئاً بعد ذلك .

ولما احتملوه في المركبة إلى المستشفى جعل يحملق وعيناه مفتوحتان كل الفتح محاولاً أن يأخذ كل شيء بنظرة وأسف لأنه لا يستطيع أن يثبت في ذاكرته كل دقيق وجليل في هذه الدنيا بسماها اللانهائية وأناسها وخضرها وآفاقها القصية الزرقاء وصار كل ما لم يكن قد فطن إليه حبيباً إلى نفسه عزيزاً عليها ككل ما كان يحده حافلاً بالجمال والخطر الجميل لا بل أحب من أن يناله وصف وأقوم من أن يني ببيانه تعبير . فن السماء القاعة المرامية ونجومها الواحة إلى ظهر السائق الهزيل ومن وجهه نوفيكون المكتتب إلى الطريق الترب ومن المنازل ونوافذها المضيئة إلى الأشجار الجهمة التي ظلت مكانها وراءهم في صمت . ومن العجلات المضطربة إلى نسيم العشى اللين - كل أولئك رآه وسمعه وأحسه .

ولما صار في المستشفى دارت عيناه بسرعة في الغرفة الكبيرة ورصدنا كل حركة وشخص حتى صرفهما الألم الجفاني الذي أشعره الغزلة المطلقة عما حوله . وانحصرت مداركه في صدره منبع كل آلامه - ثم أخذ في بطاء شديد يفارق الحياة وصار إذا رأى شيئاً يستغربه ولا يرى فيه معنى . . . فقد بدأ الصراع الحاسم بين الحياة والموت واكتظ به كل كينانه ونخلق له عالماً جديداً غريباً موحشاً - عالماً من الفزع والألم والصراع اليائس .

وكانت تعاوده من حين إلى حين لحظات انتباه وإفاقة فينقطع الألم ويهدأ ويعمق تنفسه وتستبين الشخصوص والأصوات من خلال النقاب الأبيض . غير أن كل شيء كان ضعيفاً وباطلاً كأنه آت من مكان سحيق . وكان يسمع الأصوات واضحة ثم لا يتبينها أما الأشخاص فلم يكن لحركاتها صوت كأنها أشباح الصور المتحركة وأنكر الوجوه التي كان يعرفها ولم يستطع أن يذكرها .

وكان على السرير المجاور له رجل له وجه حليق غريب يقرأ شيئاً ويرفع الصوت به. لماذا يقرأ؟ ولمن يقرأ؟ لم يعن سمينوف بالتفكير في هذا. وسمع بأجلى وضوح أن الانتخابات البرلمانية أرجئت وأن بعضهم حاول أن يقتل غراندوقا - ولكن الألفاظ كانت فارغة لا معنى لها كأنها الفقاقيع انفجرت وزالت ولم تخلف وراءها أثراً.

وتحركت شفتا الرجل والتمعت أسنانه ودارت عيناه وخشخششت الورقة وأضاء المصباح المدلى من السقف ودارت حوله فراشات كبيرة سوداء فظيعة المنظر. وكأنما اشتعل في ذهن سمينوف لهب فأثار كل ما يحيط به وأحس فجأة أنه لا يعنيه شيء وأن كل ما في الدنيا من قوة لا يستطيع أن يطيل حياته ساعة واحدة وأنه لا بد أن يموت. فهو مرة أخرى في أمواج الضباب الخالك وعاد الصراع الصامت بين قوتين هائلتين خفيتين تحاول إحداهما بأقصى ما أوتيت من العنف أن تقضي على الأخرى.

وكانت إفاقة سمينوف للمرة الثانية لما سمع البكاء والترتيل فلم يز وجهه الحاجة إلى هذا إذ كان لا صلة له بما هو جار في جوفه على أن ذلك أضاء ذهنه لحظة فرأى بوضوح وجه رجل مزيف الكتابة لا يعنيه من أمره شيء على الإطلاق. وكانت هذه آخر دلائل الحياة.

أما ما تلا ذلك فيتجاوز مدى الفكر والإدراك.

(١٢)

قال إيفانوف لسانين :

« تعالى عندي نجني ذكرى الفقيد » .

فهز سائين رأسه دلالة على الموافقة واشترى في طريقهما شيئاً من الفودكا

والخضر وأدركا يورى وكان يتمشى مستمهما في الميدان وعلى وجهه كآبة شديدة .

وكان موت سمينوف قد وقع من نفس يورى موقعا ألما مزعجا رأى معه من اللازم أن يحلله وإن كان قد أعجزه ذلك فقال لنفسه محاولا أن يرسم خطأ مستقيما قصيرا في ذهنه :

« إن الأمر بسيط على كل حال . لم يكن الإنسان موجودا قبل أن يولد وليس في هذا شيء مفرع أو غير مفهوم . والإنسان ينشئ وجوده متى مات . وهذا — كسابقه — بساطة وسهولة إدراك فالموت ، وهو الوقوف التام للأداة التي تخلق القوة الحيوية ، فهمه ميسور على أتم وجه وليس فيه ما يفرع الخاطر ولقد غبر زمن كان فيه غلام اسمه « يورا » ذهب إلى الكلية وضارب زملاءه وكان يتلهى ويروح عن نفسه بأن يقطع زعوس الأشواك ويقضى حياته الخاصة الممتعة على النحو الخاص به . وقد مات « يورا » هذا وذهب في سبيل من خلا وحل محلة رجل آخر يمشى ويفكر هو الطالب « يورى » . ولو أنهما التقيا لما وسع « يورا » أن يفهم « يورى » ولعله يحمته ويرى فيه أستاذا مربيا يحمله مالا آخر له من المتاعب . لهذا كان بينهما جون يتعاضم الجناز . ولهذا أيضا أرى أني أنا قد قضيت بحبي يموت الغلام « يورا » وإن كنت لم أفطن لهذا من قبل . هذا هو واقع الأمر . وإنه لطبيعي بسيط ! وماذا يخبر الإنسان بأن يموت ؟ ؟ إن الحياة على كل حال يرجح فيها الشقاء بالسعادة . نعم إن لها مسراتها وما أفسى أن ينقض المرء يده منها ! ولكن الموت يريحنا من كثير من البلايا والشرور فنحن في نهاية الأمر نستفيد به ونربح من ورائه . ما أبسط هذا وأقل عناصر الفزع فيه ! ! أليس كذلك ؟ ؟ » .

قال يورى آخر جملة بصوت عال وتنفس الصعداء غير أنه فزع فجأة ففقد طاف برأسه خاطر للذاع .

« كلا ! عالم بأسره » جافل بالحياة ، معقد الأمر إلى حد يتجاوز المدارك ، هذا العالم يحول فجأة إلى عدم ؟ ؟ كلا ! ليس هذا في شيء من تطوّر الغلام « يورا » وصيرورته الرجل « يورى » أن هذا سخيف مبهر وهو لذلك مفزع غير مفهوم ! »
وجاهد يورى بكل ما استطاع من قدرة أن يكون لنفسه فكرة عن هذه الحالة التي لا يرى أحد أن في الطوق احتمالها والتي يحتملها كل أمرى على الرغم من ذلك كما فعل سمينوف .

وعاد يورى إلى مخاطبة نفسه وهو يتنسم لغرابة الجاطر فقال :

« ولم يمت خوفا مع ذلك ! كلا ! لقد كان يضحك منا جميعاً ويزأ بنفسينا وتراتيلنا وعبراتنا . ألا كيف وسع سمينوف أن يضحك وهو متوّن أنه بعد دقائق لا يكون ؟ ؟ أتراه كان بطلا ؟ كلا ! ليست المسألة مسألة بطولة . إذا فالمت ليس من الهول بحيث أتوهم ! »
وأنه كذلك وإذا بايفانوف يحيه فجأة بصوت مرتفع فسأله يورى وهو يرجف :

« آه ! هذا أنت ! أين تراك ذاهب ؟ »

فقال ايفانوف بجذل وحشى :

« إلى الصلاة على روح صديقنا الفقيد ! ونحير لك أن تمضى معنا ما خير أن تظل دائماً مستفرداً ؟ ؟ »

ولما كان يورى حزينا مهموما فإنه لم يجتو سائين وإيفانوف كالعادة . وقال :

« حش جداً . سأمضى معكما »

ثم ذكر فجأة بعد المدى بينه وبينهما وأنهما دونه مواهب وملكات فقال لنفسه :

« أى جامعة بينى وبين مثل هذين ؟ أشار بهما الفودكا وأروح أهنر مثلها ؟ »

وهم أن ينصرف عنهما . ولكن إشفافه من الوحدة بلغ منه مبلغاً دفعه إلى البقاء معهما .

ولم يثبت سائين ولا إيفانوف بشيء ووصلوا جميعاً في صمت إلى بيت إيفانوف . وكان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ لهم شبح رجل واقف عند الباب ومعه عصا غليظة معوجة اليد فقال إيفانوف مغتبطاً :

— « أنه العم بيتر ايليتش » .

فأجابه الشيخ بصوت عميق رنان :

— « نعم هو بعينه » .

وذكر يورى أن عم إيفانوف شيخ كبير يشد التراتيل في الكنيسة وكان شاربه أبيض فأكسبه ذلك منظر الجندي على عهد نيقولا الأول . وفغمتهم من معطفه الأسود البالي رائحة كريهة .

« يوم . يوم » هكذا كان صوته فكانه خارج من جوف برميل :

وعرفه إيفانوف بصاحبه يورى فصافحه وهو لا يدري ماذا يقول . لمثل هذا الرجل . على أنه ذكر أن الناس ينبغي أن يكونوا سواء عنده فتأدب مع المغنى الكهل وتركه يتقدمه في الدخول .

وكان بيت إيفانوف أشبه بمخزن أخشاب منه بمسكن لإنسان لكثرة التراب وقلة الترتيب والنظام .

ولكن إيفانوف لم يكذب يشعل المصباح حتى وجد يورى أن الجدران مغطاة بصور فاستنسوف وأن ما خاله أقداراً ليس سوى كتب مكسدة أكواما على أن هذا لم يخفف من ضيقه فذهب يتأمل الصور ليخفى ما به . وسأله إيفانوف :

— « أتحب فامستسوف ؟ » .

ولم ينتظر الجواب بل غادر الغرفة طلباً للصحاف .

ونعني سائين صديقهم سمينوف إلى بيتر فقال هذا :

« رحمه الله ! آه ! لقد قضى أمره ! » .

فزمه يورى بنظرة المستطلع وأدركه العطف على هذا الشيخ الهرم .
وعاد إيفانوف بنخب وكؤوس وبشئ من الخضر المملحة ووضعها على
المائدة وكانت مغطاة بجريدة . ثم فتح زجاجة بسرعة لا تكاد تحس ويحذف
بلغ منه مع السرعة أن لم تسلم قطرة واحدة .

فقال بيتر معجباً موافقاً :

— « يد صناع ! » .

فقال إيفانوف بلهجة الراضى عن نفسه وهو يملأ الكؤوس بالشراب
الأخضر .

— « إنك تستطيع أن تبين فى لحظة هل المرء عارف بما يعالج أم
جاهل به . »

ثم رفع صوته وهو يتناول الكأس وقال :

— « والآن أيها السادة لنشرب على ذكر الفقيد الخ ! » .

وشرعوا يأكلون وأصابوا من الفودكا كثيراً وأقلوا من الكلام وأكثروا
من الشراب وما هى إلا برهة حتى عاد جوى الغرفة حاراً ثقيلاً .
وأشعل بيتر سيجارة فاختلط بالهواء الدخان الأزرق المتصاعد من الطباقي
الردىء .

فدار رأس يورى من الخمر والدخان والحرارة وجرى بباله سمينوف
مرة ثانية فقال :

— « إن فى الموت شيئاً مفرعاً » .

فسأله بيتر :

— « لماذا ؟ الموت ؟ هو هو هو ! إنه لا بد منه . الموت ؟ تصور أن يحيا
الإنسان أبداً ؟ هو هو ! لا ينبغي لك أن تتكلم على هذا النحو . الحياة الأبدية
حقاً ! ماذا عساها أن تكون ؟ » .

فعالج يورى أن يتصور الحياة الأبدية كيف تكون . فارتسم لعينه خط أبيض ضارب إلى السواد ممتد إلى غير غاية في الفضاء كأنما تقذفه ، ووجه وتلقفه أخرى واستعجمت كل صورة للألوان والأصوات والعواطف وتسرب بعضها في خلال بعض وغابت في ثنايا جدول مربد يتحدر أبدا . وليس هذا في شيء من الحياة وما هو إلا الموت الدائم . فاستهول هذا الخاطر . وتغم .

— « نعم لاشك » .

وقال إيفانوف :

— « يظهر أن الأمر عظيم الوقع في نفسك » .

فسأله يورى :

— « ومن ذا الذى لا يعظم وقع الموت في نفسه ؟ » .

فهز إيفانوف رأسه هزة مبهمة المعنى وشرع يحدث ييترعن آخر ساعات سمينوف . وكان الهواء في الغرفة قد صار لا يطاق . وراقب يورى إيفانوف وهو يرشف انفودكا المتألقة في ضوء المصباح وبدأ له أن كل شيء يدور ويجول .

وهمس في أذنه صوت غريب ضئيل « آ آ آ » .

فقال وهو لا يدرى أنه إنما يرد على هذا الصوت العجيب الهامس :

— « كلا ! أن الموت شيء فظيع ! » .

فلاحظ إيفانوف منهمكاً :

— « إنك تضطرب له أكثر مما يجب » .

فقال يورى :

— « أو لست أنت كذلك ؟ » .

— « أنا ؟ كلا ! لا ريب أنى لا أشتهى الموت فليس فيه متعة كبيرة

ترغب . والحياة أشهى منه وأمتع . ولكن إذا كان لا بد من الموت فأنى أحب أن يكون حياً وأن تخلو موافاته من الجلبة والكلام الفارغ » .

فضحك سائين وقال :

— «إنك لم تجرب الأمر بعد !» .

فأجابه إيفانوف :

— « كلا ! هذا صحيح » .

فقال يورى :

— « لقد سمعنا كل هذا من قبل . قولوا ماشتم فالموت هو الموت وهو فظيع فى ذاته وكفى هادما لكل لذة فى الحياة أن يفكر المرء فى هذه الخاتمة العنيفة التى لا مفر منها . ما معنى الحياة ؟ » .

فصاح به إيفانوف متضايقا :

« لا معنى لها » .

فأجابه يورى :

« كلا ، هذا مستحيل . إن كل شىء أحكم نظاما وأبرع ترتيبا

من .. »

فقال سائين مقاطعا :

— « إن رأى أنه ما من خير فى أى شىء » .

فقال يورى « كيف تذهب إلى هذا ؟ وما قولك فى الطبيعة ؟ » .

فضحك سائين ضحكة خفيفة ولوح بيده مستخفا وقال :

— « الطبيعة ؟ ها ها ، إنى أعلم أن من المؤلف أن نقول إن الطبيعة بالغة حد الكمال . والحقيقة هى أن الطبيعة مثل الإنسان نقصا وعيوبا . وفى وسع كل منا بدون جهد كبير أن يتصور عالما يكون خيرا من هذا مائة مرة . لماذا لا تكون الحرارة والضوء سرمدا علينا والرياض خضراء نظيرة طلقة أبدأ ؟ أما عن معنى الحياة فلا أشك فى أن لها معنى فإن الغاية فى مطاوتها مجرى الأمور وأخلق بالفوضى أن تكون شاملة محيطية إذا لم يكن ثم من

غاية . ولكن هذه الغاية خارجة عن دائرة وجودنا إذ هي كائنة في أساس الوجود . هذا محقق . ونحن لا يمكن أن نكون أصل الوجود ولا آخرة كذلك . وليس دورنا فيه إلا سلبيا إضافيا . ونحن نؤدى مهمتنا بمجرد حياتنا . فحياتنا ضرورية . وكذلك موتنا أيضاً » .

فقال يورى «لأى سبب ؟ » .

فأجاب سانين :

— «أتى لى أن أعلم هذا ؟ وماذا يعينى منه فضلا عن ذلك أن حياتى معناها خوابلى للذيدة كانت أو غير للذيدة وكل ما هو خارج عن هذه الحدود . . . فإلى الشيطان به ! ومهما تكن النظرية التى نشأ أن تخرجها فهى لاتعدو أن تكون نظرية ولا يمكن أن تخرج عن كونها نظرية . ومن الحرف أن نبى عليها فكرة عن الحياة . ومن شاء فليذهب ذهنه فى ذلك أما أنا فإنى معتزم أن أحيى ا »

فقال إيفانوف مقترحا :

— « لنشرب جميعا على قوة هذا العزم ! » .

وقال بيتر لسانين وهو يتأمل به بعينه الضعيفتين :

— ولكنك تؤمن بالله أليس كذلك ؟ أنه لا يؤمن أحد بشيء فى هذه الأيام

حتى ولا بما يسهل الإيمان به »

فضحك سانين وقال :

— نعم أؤمن بالله . ولقد آمنت به طفلا ولا حاجة إلى المنازعة فى أسباب

ذلك أو تأييدها . والحقيقة أنه ليس أجدى علينا من الإيمان فإذا كان الله موجودا تقدمت إليه بأصدق الإيمان وأخلصه . وإذا لم يكن له وجود كان ذلك خيرا لى » .

فقال يورى :

— « ولكن كل حياة تقوم على الإيمان أو عدم الإيمان »

فهز سائين رأسه وابتسم مغتبطاً وقال :

— « كلا ، إن حياتي ليست بقائمة على شيء من هذا القبيل » .

فسأله يورى وقد تداعت قوته :

— « على أى شيء تقوم حياتك إذا ؟ » .

وقال لنفسه : « آه ، ينبغي أن أكف عن الشرب » .

ومسح جبينه البارد الرطب بكفه ولم يسمع ماقال سائين رداً عليه فقد

كان رأسه يدور وغلبته الخمر على أمره برهة .

وقال سائين :

— « إنى اعتقد أن الله موجود وإن كنت لست على يقين جازم مطلق .

وسواء أكان موجوداً أم غير موجود فإنى عاجز عن تصوره ولا أستطيع أن

أعرف هذا حتى لو كنت أحر الناس إيماناً به ؟ إن الله هو الله ولما كان غير

آدمى فلسنا نستطيع أن نجري عليه المقاييس الإنسانية ، إن عالمه المخلوق المحيط بنا

شامل لكل شيء : للخير والشر ، وللحياة والموت ، وللجمال والقبح — كل

شيء فى الواقع — ولذلك يعجزنا كل معنى وكل تعريف محدود لأن مغناه غير

انسانى وآراؤه فى الخير والشر ليست بإنسانية ولا معدى لنا عن أن تكون فكرتنا

عن الله وثنية فى صميم أمرها وليس يسعنا إلا أن نكسو معبودنا السحنة والثوب

الملائمين للأحوال الجوية فى بلادنا التى نعيش فيها — سخافة — أليس كذلك ؟

فقال إيفانوف :

— « نعم ، أصبت . كل الإصابة ! » .

فسأله يورى ودفع كأسه مكروباً :

« إذن ما الفائدة من الحياة ؟ أو من الموت أيضاً ؟ » .

فأجابه سائين :

— « إنى أعرف شيئاً وحداً هو أنى لا أريد أن تكون حياتى شقية . لذلك

يجب على المرء أن يرضى رغباته الطبيعية قبل كل شيء . إن الرغبة هى كل

شيء . ومتى انقطعت الرغبة انتقطعت الحياة معها . وإذا قتل المرء رغبته فإنه يكون قد قتل نفسه .

فقال يورى : « ولكن رغبته قد تكون شراً ؟ » .

فأجاب سائين : « ربما » .

فقال يورى : « إذا ماذا يكون من أمرها ؟ » .

فأجاب سائين فى رفق وحذق فى وجهة بعينه الزرقاوين الصافيتين :

« إذا تكون شراً ، لا أكثر ولا أقل » .

فرفع إيفانوف حاجبيه غير مصدق ولم يتكلم . وصدمت يورى كذلك وحيرته هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان لسبب ما وجعل يرنو إليهما .

وساد السكون لحظة فكان المرء يسمع فراشة هناك تصطدم مستيشة بزجاج النافذة . وهز بير رأسه فى حزن وتبدل رأسه المخمور إلى الجريدة القذرة الملوثة .

فعاد سائين إلى الابتسام . وكانت هذه الابتسامة المترسمة أبداً على ثغر سائين تشر يورى وتفتنه كذلك فقال لنفسه :

« ما أصفى عينيه ! » .

وشهض سائين فجأة وفتح النافذة وأخرج الفراشة واندفعت موجة هواء بارد عميل كأنما أرسلتها أجنحة رقيقة .

وقال إيفانوف مجيئاً على خواطره :

« نعم ليس فى الناس اثنان متشابهان . فلنشرب على هذا كأساً أخرى » فقال يورى وهز رأسه :

« كلا ! لن أشرب شيئاً آخر » .

أجاب إيفانوف : « ولماذا ؟ » .

قال يورى : « أنى لا أكثر من الشراب » .

وكانت الفودكا والحارقة قد صدعاه فطلبت نفسه الهواء الخالص وقال وهو ينهض :

— « لا بد لي من الخروج » .

فقال إيفانوف : « إلى أين ؟ تعال . اشرب كأساً أخرى » .

فقال يورى متلعثماً باحثاً عن قبعته :

— « كلا ، يجب أن ... » .

فرد عليه إيفانوف : « حسن . نعم مساء » .

وخرج يورى وأغلق الباب وراءه .

وسمع سائين في هذه اللحظة يقول ليتر :

— « نعم أنت لست كالأطفال . إن هؤلاء لا يستطيعون أن يميزوا بين

الخير والشر . لأن نفوسهم ساذجة على الفطرة . وهذا هو السبب في أنهم ... »

وكان يورى قد أتم إغلاق الباب فلم يسمع شيئاً .

وكان القمر مضيقاً في قبة السماء ، ونهب نسيم الليل البليل على عيا يورى ،

ونجست له الطبيعة كل جميل محرك للخيال وجرى بذهنه سميتوف وهو يجتاز

الشوارع الساكنة المضيئة . فتصور سميتوف راقداً في قبر مظلم ساكن على أنه

مع ذلك لم تعاوده تلك الهواجس المحزنة التي كانت من قبل تجثم على صدره

وتسود الدنيا كلها في نظره . بل خامرتة الكتابة الهادئة المطمئنة وأحس دافعاً

يغريه بالشخص بطرفه إلى القمر . وذكر سائين وهو يجتاز ميداناً مهجوراً

فسأل نفسه « أى رجل هذا ؟ » .

وغازله أن في الدنيا رجلاً لا يستطيع هو أن يحلل شخصيته في لحظة فراح يجد

لذة في النيل منه وقال :

— إن هو إلا صواغ عبارات ليس إلا . وقد كان يتكلف الطيرة أو لا ويدعى
مقت الحياة ويرفه عن نفسه بالإعراب عن المستحيل من الآراء أما الآن
فإنه يعبث بالحوانية .

وانتقل يورى من التفكير فى سائين إلى تأمل نفسه وانتهى من الموازنة إلى
أنه لا يعبث بشيء ما، وأن كل خواطره وآلامه وشخصيته مبتكرة وأنها لا تشبه
خواطر الناس غيره وشخصياتهم فى دقيق أو جليل .

فارتاح إلى هذه النتيجة أعظم الارتياح . . ولكنه أحس افتقاد شيء :
فانقلب يفكر فى سمينوف وأحزنه أن عينيه لن تقع عليه أبداً ، واستوحشت
نفسه وإن كان لم يشعر له بإعزاز فى حياته ، وترقرقت الدموع فى عينيه
وتصور الطالب الميت مدرجاً فى قبره وقد صار كتلة متعفنة وذكر هذه الكلمات
له :

« ستكون حياً تستنشق الهواء وتتمتع بضوء القمر وتربى بالقبر الذى يضم
رفائى » .

فرمى يورى بلحظة إلى التراب وقال لنفسه :
— « إن هاهنا تحت قدمى آدميين أيضاً . وإنى أطأ بقدمى عقولا وقلوبا
وعيوناً آدمية ! آه وسأموت مثلهم ويمشى غيرى فوقى وتخطر لهم مايطوف
بذهنى الآن : آه . يجب أن يجيا الإنسان قبل أن يخرج الأمر من كفيه .
ألا أنه يجب أن يعيش المرء ! نعم ولكن على الطريقة الصحيحة حتى لا تضيع
عليه لحظة من حياته . ولكن كيف هذا ؟ » .

وكانت السوق غارية بيضاء فى ضوء القمر وكل مافى البلدة ساكت
فغنى يورى نفسه : « لن يسمعننا المزمار عتهباً » .

ثم قال بضوت عال :

— « ما أثقل كل شيء وأشجاء وأرهبه ! »

كأنما يقول بشجوة لرفيق معه وأفرعه صوته وتلفت ونفض المكان بعينه ليرى هل سمعه أخذ وخطره أنه «سكران»

وكان الليل مشرقاً في سكون وجلال .

لما كانت سينا كارسافينا وزميلتها دوبرفا غائبتين في زيارة كانت حياة يورى مملّة فاترة :

وكان أبوه أبدأ في شاغل من «النادى» أو من شئون البيت .

ولم تكن لياليا وريازانتزيف يرتاحان الى وجود شخص ثالث معهما فكان يورى يجانبهما .

وصار من عادته أن يبكر في الذهاب إلى مضجعة وأن لا يقوم إلا وقت الغداء وكان يقضى نهاره كله بين غرفته والحديقة مفكراً في أموره . منتظراً أن تساعقه موجه نشاط تدفعه إلى عمل جليل .

وكان هذا العمل الجليل يتخذ في كل يوم صورة فيوما يكون صورة ويوما يكون سلسلة مقالات تكشف للعالم عن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه [الديمقراطيون الاشتراكيون بأن لم يعتقدوا ليورى الزعامة في حزبهم . وطوراً تكون مقالا في الحث على معاضدة الشعب والتعاون معه — مقالا شاملا ضافيا في الموضوع . ولكن كل يوم كان يمضى عليه ولا يخلف له سوى السّامة .

وجاء إليه توفيكوف وشافروت مرة أو مرتين يزوران .

وحضر يورى بعض المحاضرات وأدى بعض الزيارات غير أن هذا كله كان في نظره فارغا لاخير فيه وليس هو بالذى يفكر فيه أو يظن أنه يفكر فيه .

وفي يوم من الأيام ذهب لزيارة ريزانتزيف وكانت غرف هذا الطبيب رحيبة مهواة حافلة بكل ما يحتاج إليه الرجل الصحيح

الجسم المعافى البدن من وسائل التسلية فمن عصى هندية إلى كتل حديدية
وسيوف وأدوات الصيد وحقائب للطباق غير ذلك مما هو بسبيل الملاحى التى
يباشرها الرجال الأصحاء .

فرحب به رianza انتريف وأحسن ملاطفته ومحادثته وقدم له السجائر ثم
سأله أن يخرج معه للصيد .

فقال يورى : « لس معى بندقية » .

فقال : « خذ واحدة من هنا فإن لدى خمساً »

وإذ كان يورى أخا ليااليا فقد أراد رianza انتريف أن يلاطفه ما أمكنته
ملاطفته . أصر على أن يأخذ يورى إحدى بنادقه وعرضها كلها عليه ليختار
من بينها وفككها وشرح له تركيبها بل لقد أطلق إحداها على هدف فى الثناء .
فاقتنع يورى وأخذ واحدة بعض الخراطيش وهو يضحك .

فسر رianza انتريف وقال :

« هذا حسن جداً . لقد كان عزمى أن أخرج غداً لصيد البط فلنذهب
معا » .

فقال يورى :

« هذا يسرنى جداً » .

ولما عاد إلى بيته قضى نحو ساعتين يفحص بندقيته ويتحسس زندها
ويسددها إلى المصباح ثم صقل حذائى الصيد القديمين . وفى مساء اليوم التالى جاء إليه
rianza انتريف يهتزمسوراً فى مركبة يجرها جواد مضمهر وصاح به من النافذة
وكانت مفتوحة .

« أنت مستعد ؟ » .

وكان يوزى قد احتمل حزامه الخراطيش وحمية الصيد والبندقية
فخرج إليه مثقلاً بها وقال :

— « إني مستعد : مستعد » :

وكان ريار انتزيف قد أخف من هذه الاحمال فعجب ليورى وماتأهب به :
وقال مبتسما :

— « ستغاني البرح من هذه الأثقال . اخلعها وضعها هنا : فبابك
حاجة إلى لبسها قبل أن نبليغ المكان » .

وساعد يورى على التخلص منها ووضعها تحت المقعد ثم ألها الجواد
فأخبط بالمركة وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ولكن الجو كان لا يزال
دافئاً كثير التراب .

وجعلت المركبة تميل يمنة ويسرة حتى اضطر يورى أن يتشبث بمقعده :
وكان ريار انتزيف يتكلم ويضحك طول الطريق فلم يسع يورى إلا أن
يشاطره جذله .

ولما برزا إلى الحقول كانت الاكلاء الطويلة تلمس أقدامهم وصر الجوا
الطف وانقطع التراب .

وبلغا حقلا واسعا مستويا فأوقف ريار انتزيف الجواد وكان يتصبب
عرقا ويرفع كفه إلى فمه وصاح بصوت رنان صاف :
« كوسما ! كوسما » :

وكان المرء يرى عند نهاية الحقل صفاً من الرجال صغيرى الأجسام
فشخصوا بأبصارهم إلى مصدر الصوت .

ثم اجتاز أحدهم الحقل متحرزا بين الأخاديد ولما دنا منهم رأى يورى فلاحا
ضبخما أبيض الشعر طويل اللحية مفتول الساعدين .
فسار إليهما وقال مبتسما :

— « إنك تحسن الصباح يا أناتول بافلوفتش » .

— « عم مساء كوسما كيف حالك ؟ أسمح لى أن أترك الجواد
معلق ؟ » .

فقال الفلاح بصوت ساكن وى وأمسك الاجام : .
 - «نعم ولاشك . جئت للصيد أليس الأمر كذلك ؟ ومن هذا ؟» وأتى
 إلى يورى نظرة رقيقة . فقال ريباز انتزيف :

- «إنه ابن نقولا ينجور وقتش» .
 أجاب : «آه نعم ! إلى أراه شيها بلياليا ! نعم . نعم !» .
 وسر يورى أن هذا الفلاح الهرم المبتبط يعرف اخته ويذكرها ذكر
 الصديق المخلص .

وقال ريباز انتزيف بصوته الطروب وتقدم زميله بعد أن اجتمل
 بتدقيته وحقيبة الصيد .
 - «والآن فلنمض في سبيلنا» .

فقال كوسنا :
 «أرجو أن يكون حظكما عظيما» .
 وكان يشمغانه بلاطف الجواد وهو يجره إلى كوخه .
 وكان عليهما أن يسيرا نحو ميل قبل أن يصلا إلى المستنقع وكادت
 الشمس تغيب وكانت الأرض مكسوة بالحشائش والأعشاب تحس القدم
 بللها وتجذ الأنف ربح رطوبتها والعين جهامتها . والماء تلمع صفحته في
 بغض المواضع .

- وكف ريباز انتزيف عن التدخين ووقف ورجلاه منفرجتان ونجهم
 وجهه كأنما كان يهم بعمل عظيم التبعة .

ووقف يورى إلى يمينه يبحث عن مكان جاف مريح . وكان أمامهما الماء
 صافيا عميقا تنعكس في صقاله صفحة السماء المجاورة ومن ورائه الشاطئ
 كالخط الأسود .

وهب البط مثنى وثلاث وجعلت أفراخه تطير مريثة فوق الماء خارجة
 من الأعشاب محالقة فوق رأسي الصائدين صفا من الأشباح السوداء باديا
 دون السماء فأرسل ريباز انتزيف أول طلقة فأصاب وهوت بطة مكومة إلى

الماء وجناحها يخبطان الأعشاب فقال ريارانتزيف وضحك عالياً :
— « لقد أصبتها » .

وقال يورى لنفسه وكان قد جاء دوره : « إنه رجل طيب حقيقة ... » .
وأطلق بندقيته فهوت ببطة ولكنها سقطت فى مكان بعيد لم يصل إليه
يورى وإن كان قد جرح كفيه وخاض إلى ركبتيه فى الماء ولم تزد هذه
الحيلة إلا حاسة وظن الأمر طواً طيباً .

وكان لدخان البنادق رائحة لذيدة فى هذا الجو الصافى البليل وكانت
الطلقات تبرق فى الظلام فيجد المرء لبريقها وقعاً حسناً . وجعلت الطيور
الجريئة ترسم وهى تهوى أقواساً رشيقة تحت قبة السماء الخضراء التى بدت
فيها النجوم . وأحس يورى من النشاط والاعتباط مالا عهد له به كأنما لم يمر
به ما هو أمتع من هذا وأعظم إنعاشاً للنفس . وقلت الطيور الطائرة الآن
وتعذر تسديد المرمى فى الظلام المتكاثف .

وصاح ريارانتزيف بزميله :

— « يورى ! يجب أن نعود الآن ! » .

فأسف يورى لذلك وعز عليه أن يرجع ولكنه مضى إلى رفيقه إجابة
لرغبته وكان يتعثر فى سيره بين الأعشاب ويخوض الماء الذى لم يعد يفترق
فى الظلام عن الأرض الصلبة .

فلما اتقيا برقت عيونهما وكان كلاهما يلهث .

فقال ريارانتزيف :

— « هل مالاك الحظ ؟ » .

فقال يورى وكشف عن حقيقته المكتظة :

— « أظن ذلك ! »

فقال ريارانتزيف متبسّطاً :

— «إنك أشد منى ساعداً وأحكم رمايةً» .
فابتهج يورى بهذا الثناء وإن كان لا يفتأ يدعى قلة الاعتداد بالقوة
الجثمانية أو المهارة وقال بغير اهتمام :

— «لا غلم لي بأني خير أو شر . وكل ما في الأمر أن الحظ ظاهرني» .
وكان الظلام قد اشتد لما بلغا الكوخ وغمرت الدبابجي حقل الليمون
فلم تكن العين تأخذ منه سوى صفوفه الأولى تلتصع في ضوء النار وتلقى على
الأرض ظلالاً طويلة .

وكان الجواد واقفاً ينفخ إلى جانب الكوخ حيث أوقدت النار من عيدان
الكأ الجافة فجعلت تقعقع وهي تحترق .

وسمعا أصوات رجال ونساء يتكلمون ويضحكون :

وخيل ليورى أنه يعرف أحد الأصوات وكان ليناً جدلاً .

فقال ريارانتزيف وقد أخذه العجب :

— «إنه سانين . ماذا جاء به إلى هنا؟» .

واقتربا من النار . وكان كوسما ذو اللحية البيضاء جالساً بجانبها فرفع

طرفه إليهما وهز رأسه مرحباً بهما وسألها بصوت غليظ عميق يخرج من
تحت شاربيه المهدلين .

— «كيف كان حظكما؟» .

فقال ريارانتزيف :

— «متوسطاً» .

وكان سانين جالساً على جذع ضخم فرفع رأسه أيضاً وأبتسم لهما .

فسأله ريارانتزيف :

— «كيف جئت إلى هنا؟» .

فقال سانين وزاد ابتساماً :

— «أوه . إني أنا وكوسما صديقان قديمان» .

فضحك كوسما وانفرجت شفتاه عن بقايا أسنانه الصفراء المتداعية وجعل

يربت ركة سانين بيده الخشنة وقال :

« نعم نعم » اجلسا يا أناتول بافلوفتش وذوقا هذا البطيخ وأنت ياسيدي الشاب ما اسمك ؟ »

فقال يوزى مسرورا :

— « يوزى نيقولا ييفتش » :

وأحسن بعض الارتباك ولكنه أحب هذا الفلاح الشيخ الرقيق وارتاح إلى لهجته الودية . وقال كوسما :

— « يوزى نيقولا ييفتش . أها . يجب أن نتصادق . اجلس يا يوزى » .

فجلسا قريبا من النار على جذعين كبيرين وقال كوسما :

— « والآن أريانا ما صعدتما » .

فأفرغا من الحقيبتين كوما من الطيور المقتولة وتلوث الأرض بدمها . وكان لها في ضوء النار المضطرب منظر منقر وبدا الدم أسود اللون وكأنما كانت الخالب تتحرك :

فرفع كوسما بطة وأمر يده تحت جناحيها متحسسا . وقال :

— « هذه بطة سمينة . يجب يا أناتول أن تدع الاثنين . وماذا عسك تصنع

بكل هذه ؟ » .

فقال يوزى في خجل :

— « خذها كلها » .

فضحك الشيخ قائلا :

— « لماذا آخذها كلها ؟ إنك أكرم مما يجب . لا آخذ سوى الاثنين » .

ودنا منهم في هذه اللحظة فلاحون آخرون ومعهم نساؤهم ولم يستطع يوزى أن يميز وجوههم لفرط ما ازاحت النار من نظره وكان الوجه تلو الوجه يخرج من الدجى ثم لا يكاد يظهر حتى يغيب .

وزى سائين الطيور بعينه وهو عابث ثم أدار وجهه ونهض واستكره أن يرى هذه المخلوقات الجميلة مكسورة الأجنحة ملطخة بالدم والتراب .

وراقب يورى كل شىء باهتمام وهو يحص بطيخة كبيرة ناضجة شهية
قطعها له كوسما بسكين يدها من العظم الأصفر وقال كوسما :
— « كل يا يورى . إن هذه البطيخة جيدة . إنى أعرف أختك
الصغيرة لنياليا وأباك أيضاً . كل وتمتع » .

وشاع السرور فى نفس يورى بكل شىء : برائحة الفلاحين والخبز
الجديد وضوء النار والجنح الضخم الذى كان جالساً عليه ووجه كوسما كلما
أطرق . وكان إذا رفع رأسه يلفه الظلام ولا تظهر منه إلا عيناه وكانت
الظلمة الطاغية فوقهم تكسب المكان المضاء بهجة وأنسا .

وكان يورى إذا رفع رأسه لا يرى شيئاً ثم لا تلبث السماء الشاسعة
الساكنة أن تبدو متألقة فيها نجومها البعيدة .

على أنه حيره أنه لا يعرف ماذا يقول لهؤلاء الفلاحين .
وكان كوسما وسائين وريازانتزيف يحدثونهم بلا كلغة وببساطة عن هذا
الأمر أو ذاك ولا يهتمون بأن يتخيروا موضوعاً خاصاً للكلام .

ولما انقطع الحديث سألهم :

— « كيف حال الأرض ؟ » .

وأحسن أن سؤاله متكلف لا محل له فرفع كوسما لحظه وقال مجيباً :
— « سنصبر . سنصبر ونرى » .

ثم طفق يحدثهم عن حقول البطيخ وغيرها من الشئون الخاصة ويورى
يزداد ارتباكاً وحيرة وإن كان قد سره أن يصغى إليه :

وسمعوا وقع أقدام مقبلة وظهر فى الضوء كلب أحمر صغير ذنبه أبيض
ملتبس وجعل يشم يورى وصاحبه ويحك جسمه بركة سائين فمسح له هذا
جلده الخشن . وجاء على أثر الكلب شيخ قصير له لحية خفيفة وعينان
صغيرتان لامعتان . وفى يده بندقية صدقة ذات خرطوم واحد . فقال كوسما :
— « إنه الجدد جارسنا » .

وجلس الشيخ على الأرض ووضع إلى جانبه سلاحه وأقبل يتأمل يورى وصاحبه، ثم قال وكشف عن لثاه المجعد المشوه :

— « كتما تصيدان ؟ نعم . نعم . هاها ! كوسما لقد آن أن تغلى البطاطس .
فالتقط ريباز انتزيف بندقية هذا الشيخ وأرى يورى إياها ضاحكا ،
وكانت قديمة علا الصدا كل أجزائها ، ثقيلة مشدودة بسلك ملقوف عليها ،
وقال لصاحبها :

— « أى بندقية هذه ؟ ألا تخشى أن تصيدها ؟ » .
أجاب الشيخ :

— « هاها . لقد كادت تقتلني مرة . قال لى ستيان شابكا إن المرء
يستطيع أن يطلقها بدون . . اسطوانة . هاها . بدون اسطوانة . وقال إنه
إذا كان في البندقية مقدار من الكبريت باقيا فلأنك تستطيع إطلاقها بغير
اسطوانة . فوضعت البندقية المحشوة على ركبتى هكذا وأطلقت زنادها
بأصبعى هكذا . انظروا . فانطلقت وكدت أقتل نفسى . هاها : حشوت
البندقية وأطلقتها وكدت أقتل نفسى » .

فضحكوا جميعا وانحدرت دموع السرور من عيني يورى وما كان
أمتع هذا الشيخ الضئيل ولحيته الخفيفة وشذقيه الغائرين .

وضحك الشيخ كذلك حتى دمعت عيناه وجمل يردد قوله :
— « كدت أقتل نفسى ! هاها » .

وكان المرء يستطيع أن يسمع في الظلام وراء دائرة النور ضحكا وأصوات
بنات نأى بهن الحياء عن المجلس .

وكان سائين جالسا على بضعة أقدام من النار في مكان غير الذى توهمه
يورى .

فأوقد سائين عود كبريت ورأى يورى في ضوءه الأحمر عينيهِ الساكنتين
الوجدنتين وإلى جانبه وجه غص عينا الرقيقتان مرفوعتان إلى سائين وفيهما
نور الجذل الساذج .

فنظر ريباز انتزيف إلى كوسما وقال :

— « أيها الجدد أليس خيراً لك أن ترقب بعينيك حفيدتك ؟ » .

فأجاب كوسما عنه وأوماً لإيماءة من لا يكثرث :

— « ما الفائدة ؟ إن الشباب هو الشباب » .

وضحك الشيخ والتقط بأصابعه جمرة متقدة من النار .

وسمع القوم ضحكة سائين في الظلام .

وكان الفتيات خجلن فقد انصرفن عنه وعادت أصواتهن وهي لا تكاد

تسمع :

وقال ريباز انتزيف وهو ينهض :

— « لقد آن أن نذهب . أشكرك يا كوسما » .

فقال كوسما : « لا شكر البتة » .

ومسح بكمه بذور البطيخ التي علقت بلبحيته البيضاء . وصافحهما .

وأحس يورى استكراهاً لمس هذه الراحة الخشنة المعروفة .

وخفت الظلمة لما نأيا عن النار ورأيا فوقهما النجوم الزهراء المقرورة

وقبة السماء الهائلة الجليلة الجمال .

وبدا الجالسون حول النار والخييل وكوم البطيخ في شملة من الظلام

وقال لهما سائين :

— « افتحوا عيونكما . عما مساء » .

فقال يورى : « عم مساء » .

وتلفت وراءه ليرى قوامه الطويل وخجل إلى أن امرأة رشيقة القد

معتمدة على كتفه فحفت قلبه وذكر سينها . وأحس الغيرة تذب في صدره لسانين .

وانطلقت عجلات المركبة تحطف الأرض وجعل الجواد ينفخ . وهو

يجرى وخفيت عنهما النار والأصوات والضحكات وساد السكون وتطلع

يورى إلى السماء ورنأ إلى نجومها المنثورة ولما قاربا البلدة بدأت الأضواء

تسطع هنا وهناك والكلاب تنبح .

وقال ريزانتزيف ليورى :

« إن كوسما هذا فيلسوف . ألا ترى ذلك ؟ » .

وكان يورى جالسا خلف صاحبه ينظر إلى عنقه فنبهه السؤال وأيقظه
مما كان غارقا فيه من الخواطر السوداء وحاول أن يفهم ما ألقى إليه وأجاب
بتردد :

« آه — نعم ! » .

فقال ريزانتزيف وهو يضحك :

« لم أكن أظن أن سانين فاجر إلى هذا الحد » .

ولم يكن يورى يحلم الآن . فذكر منظر سانين وحيا الفتاة الجميل في نور
الكبريت وعاودته الغيرة وما عثم أن طاف برأسه أن معاملة سانين للفتاة
وضيعة مستوحجة للاحتقار فقال محيياً صاحبه :

« كلا . ما حسبته كذلك قط » .

وكان في صوته نبرة تهكم لم يلتفت إليها ريزانتزيف فألهب الجواد
بالسوط وقال بعد فترة :

« إنها فتاة جميلة . أليست كذلك ؟ وأنا أعرفها . حفيدة الشيخ الهرم » .
فصمت يورى . وانقشعت عنه سحابة التفكير واقتنع بأن سانين رجل
سوء .

وهز ريزانتزيف كتفيه ثم قال :

« إلى الشيطان بها ! وفي ليلة كهذه أيضاً ؟ وأراني أخذت كذلك .
أسمع . ما قولك في أن نعود وأن ... » .

ولم يفهم يورى في أول الأمر ما أراد صاحبه الذى عاد فقال :

« إن هناك بضع فتيات حسان كما تعلم . ما قولك ؟ أعود ؟ » .

فصبغ الحياء وجه يورى وشاعت في كيانه همزة شهوة حيوانية ومثلت
لعينه ولخياله الملهب صور مغرية ولكنّه ضبط نفسه وقال بصوت جاف :

« كلا ! لقد آن أن نكون في البيت الآن » :

ثم زاد على ذلك بجث : .

« لياليا تنتظرنا » .

فتداعى ريارانتزيف وقال :

« نعم . نعم بالطبع . نعم يجب أن نكون في البيت الآن » .

وقرض يورى أسنانه وحلق في ظهر صاحبه العريض تنسجم عليه الجاكته البيضاء وقال متحدياً مناصبا : .

« لست أحب المغامرات التي من هذا القبيل » .

فأجابه ريارانتزيف ضاحكاً في فتور :

« كلا ! كلا ! اعلم ذلك ! ها ها ! » .

ثم صمت . وقال لنفسه :

« قاتلى الله ما أغباني ! » :

وسارا بالركبة إلى البيت دون أن ينسأ بحرف آخر وكان يخيل إليهما أن الطريق لا آخر له ولما وصلا قال يورى دون أن يرفع رأسه :

« ألا تدخل معي ؟ » .

فقال ريارانتزيف مردداً :

« أ . . . لا ! إن على أن أعود مريضاً . والوقت متأخر كذلك » .

فترل يورى ولم يعن بأن يأخذ البندقية أو الطيور وكأنما صار يمقت كل شيء مما يتعلق بريازانتزيف فصاح به هذا :

« لقد نسيت بندقيتك » .

فالفتت يورى وعاد فأحتمل البندقية والحقيبة مهيئة المتقزز وصافح صاحبه ملفاً ودخل .

ومضى الآخر بمركبته في بطاء مسافة قصيرة ثم انثنى فجأة وعطف على زقاق وكان يورى يسمع صوت العجلات آتيا من ناحية أخرى غير التي درجت فيها المركبة أولا فأصغى يورى وهو ناثر النفس إلا أنه غائر وقال لنفسه :

« حظ سيء » وأدركه العطف على أخته .

(١٤)

أدخل يورى ما معه ولم يجد بعد ذلك ما يصنع فانحدر إلى الحديقة وكان الليل كظلمة القبر وزاد في وقعه منظر السماء وما فيها من النجوم المتألقة وكانت لياليا جالسة على إحدى درجات السلم وهي لا تكاد ترى في الظلام فسألته :

« أهذا أنت يا يورى ؟ » .

« نعم هو أنا » .

وجلس إلى جانبها فأسندت رأسها إلى كتفه وهي كالخلة وفاح منها غير الصبا الغض فتحركت حواسه وقالت :

« هل آتاك الحظ في الصيد ؟ » .

ثم سأله بعد قليل بصوت رقيق :

« وأين أنا تول بافلوفتش ؟ لقد سمعت صوت المركبة » .

وود يورى — وقد هاج فجأة — لو يقول لها « إن أنا تولك هذا ميم قلر » غير أنه أجابها غير محتفل :

« لا أدري أين هو . لقد كان عليه أن يعود مريضاً » .

فرددت لياليا لفظة « مريض » ولم تزد وشخصت بعينها إلى النجوم ولم يسؤها أن ريار انتزيف لم يحضر فقد كانت على نقيض ذلك تبغى الوحدة لتطلق لأحلامها . وخيالها اللذيذة العنسان ولا يكسحها وجوده وكانت العاطفة التي استولت على كيانها الغض غريبة حلوة رقيقة أشعرتها أنها تستقبل غاية منشودة

محتومة إلا أنها بقلقة تطوى بها صفحة ماضيها ويبدأ بها عهد جديد بالغام من الجدة مبلغا جعل لياليا تحسب أنها شتصير - كأننا آخر غير الأول في كل شيء .

وعجب يورى لأخته اللعوب الضحك كيف تغرى بالسكون والتفكير وكان هو مكروبا مكتئبا فبدا له أن كل شيء به مثل سهومه وفنوزه - كل شيء حتى لياليا والحديقة المظلمة . والسماء البعيدة الملتزمة النجوم ولم يفتن إلى هذه الحالة الحاملة لا تنطوى على الحزن بل على قوة الحياة نفسها . في السماء قوى مجهولة لا حد لها تموج وتنصارع . والحديقة الغامضة تمتص من الأرض ما تحتاج إليه من العصير الحيوى . وفى قلب لياليا غبطة تامة كاملة تضمن بها أن تنبى سحرها أية حركة أو شعور . وفى صدرها الحب والخنين يتجاوبان وهى بما يختلج فى نفسها منهما وضيفة كالسماء المزدانة بالنجوم وعليها كالحديقة المستسرة نقاب يخفى ما تحته .

وسألها يورى مترفقا كأنما خشى أن يوقظها :

«خبرينى يا لياليا . أتخمين أنا تول كثير ؟»

فبدا لها أن تقول «كيف تسألنى عن هذا ؟» ولكنها كبحت نفسها ودنت منه حتى التصقت به وفى نفسها له الشكر على أن لم يحدثها إلا عما يعينها فى حياتها - أى الرجل الذى تحبه .

فقلت لياليا : «نعم أحبه حباً جما» .

وكان صوتها من الرقة بحيث حزر يورى ما قالت إذ لم يكذب يسمعه وهى تتكلم وتحاول أن تمنع دموع الفرح . ولقد خيل إلى يورى أن فى صوتها نغمة أسمى فزاد عطفه عليها ومقته لريازانتريف :

فسألها وأذهلة أن يسألها ذلك :

«ولماذا ؟» .

فرفعت طرفها إليه مستغربة وضحكت فى رفق وقالت :

«أما الولد الجرف لماذا حقاً ؟ لأن . . . اسمع ! ألم تحب مرة

فى حياتك ؟ إنه طيب شريف مستقيم . . .»

وكان بودها أن تزيد على ذلك « وهو جميل قوى ولكنها خجلت ولم
تزد شيئاً » .

فقال يورى :
« أتعرفينه حق معرفته ؟ » .
وخطر له أنه لم يكن ينبغي أن يسألها هذا لأنها بالبداهة تحسبه خير
من في العالم .
فأجابته بخجل وفي صوتها لهجة الظافر المنتصر :
« إن أنا تول لا يكتمنى شيئاً » .

فابتسم يورى وإذا كان يدرك أن لا سبيل إلى التراجع فقد ألح عليها
بالسؤال :

« أنت على يقين جازم ؟ » .
أجابت : « نعم واثقة بالبداهة . ولماذا لا أكون على يقين ؟ » :
وارتجف صوتها .

فقال يورى وبه شيء من الارتباك :
— « لا شيء . لا شيء . إنه سؤال لم أرد به شيئاً خاصاً » .
وصمتت لياليا ولم يستطع هو أن يحزر ما يجري في ذهنها من الخواطر ،
ثم سأله فجأة :

— « لعلك تعلم عنه شيئاً ! » .
وكان في صوتها ما ينم على الألم .
فحار يورى وقال :
— « لا ! لا ! كلا ماذا يمكن أن أعرف عن أنا تول بافلوفتش » .
فقالت لياليا ملحة :

« لولا أنك تعلم شيئاً لما قلت ما قلت » .
قال : « إن كل ما أعنيه هو . . » :

ثم قطع الكلام فجأة واستحي وعاد فقال :

— «إننا معشر الرجال كلنا فساق» .

فلزمت لياليا الصمت هنية ثم انفجرت ضاحكة وقالت :

«نعم . أعرف ذلك ؟» .

فلم ير أن لضحكها هذا محلا وقال بشيء من الغيظ :

«لا يحسن بك الاستخفاف بالأمر إلى هذا الحد . كذلك لا يسغك أن تحيطني بكل ما يجري . وأنت خالية الذهن مما في الحياة من حجارة . أنت أصغر سنا من أن تلمي بهذا وأنتى وأطهر» .

فقالت لياليا ضاحكة وقد سرها كلامه :

«أهذا كذلك حقا ؟» .

ثم اتخذت لهجة الجدة فقالت :

«أتحسب أنى لم أفكر في مثل هذه الأمور ؟ لقد فكرت وآلمنى وأحزنى أنا نحن النساء نكثر لسمعتنا وطهرنا وعفتنا كل هذا الاكتراث ونخاف أن نخطو خطوة لثلا . . . لثلا . . . نهوى ونسقط على حين يعد الرجال إغواء الفتاة من مظاهر البطولة . إن هذا ظلم شنيع أليس كذلك ؟» .

فقال يورى بمرارة وإن كان على ذلك قد وجد شيئا من الارتياح إلى الاعتراف بمعاييه وذنوبه ولكنه اعترف بخالطه الشعور بأنه ليس كالناس فى شيء .

— «نعم هذا أظلم شيء فى الدنيا . سلى من شئت منا أبرى أن يتزوج من : . (وهم أن يقول مومسا ولكنه رد هذا اللفظ وأعتاض منه) غنجة يقل لك «كلا» ومن أى الوجوه يفضل الرجل المرأة الغنجة ؟ إنها تباع نفسها فى مقابلة المال على الأقل لترتزق وتعيش ، فأما الرجل فيطلق لشهوته العنان بلا خجل ولا استحياء» .

فصمت لياليا .

وكان هناك خفاش يطير تحت سقف البهو رائحا بجائيا ولا يراه أحد
واصطدم جناحاه مرات بالجدار ثم رفر ف واختفى .

وأصغى يورى إلى أصوات الليل الغريبة ثم أستأنف الكلام وقد زادت
مرارة لهجته وصار صوته نفسه يدفعه ويستاقه فقال :

« وشر ما فى الأمر أنهم جميعاً يعرفون ذلك وهم مع هذا متفقون على
أن الحال يجب أن يظل كذلك ثم تربنهم يثقلون مآسى مضحكة فيسمحون بأن
يتزوجوا ثم يكذبون على الله والإنسان . ولا يذهب ضحية أحط الفساق وأدنا
المستهكين إلا أنقى الفتيات وأطهرهن (قال هذا وهو يفكر فى سينا
كرسافينا) .

ولقد قال لى سمينوف مرة « كلما كانت المرأة أظهر كان صاحبها أظدر » .
وأراه على صواب .

فسألته لياليا بلهجة مستغربة :

« أهذا كذلك ؟ » .

فقال يورى وعلت وجهه ابتسامة مرة :

« نعم كذلك بلا مرء » .

فتبسمت لياليا وقد خنقتها العبرات :

« لا أعرف . . لا أعرف شيئاً عن هذا »

فصاح بها يورى ولم يكن قد سمع ما قالت :

« ماذا ؟ » .

أجابت : « لاشك أن توليا ليس كالباقين ! إن هذا مستحيل » .

وكانت هذه أول مرة ذكرت فيها اسم حبيبها بلفظ الإعزاز ثم طفقت
تبكى فجأة فوق من نفسه بكاءها وأمسك بيدها وقال :

« لياليا ! لياليا ! ماذا جرى ؟ لم أكن أقصد أن . . لا تبكى يا عزيزتى

لياليا ! ازجرى العين عن بكاءها » .

ونحى يديها عن وجهها وقبل أصابعها التي بللها الدمع فقالت وهي تنشج :

« لا ! لا ! إن الأمر صحيح وأنا أعلم ذلك ! » .

وكان قولها أنها فكرت في هذا من قبل تخيلاً محضاً ولم تكن تدري عن حياة ريارانتزيف وساوكة شيئاً . نعم إنها تعرف أنها ليست أول من أحب ولا تهمل معنى هذا ودلالته ولكن وقع هذا الذي تعلمه كان غامضاً زائلاً .

وكانت تحس أنها تحبه وأنه يحبها . وهذا هو الجوهر وما سواه لا قيمة له ولا وزن . فأما وقد قال أخوها ما قال بلهجة التعنيف والازدراء فقد خيل لها أنها على حرف هاوية واستهولت ما تحدثنا عنه وحسبت أن حلم سعادتها قد انتسخ وأنه لا سبيل إلى إصلاح ما فسد وأنه لم يعد ثم مخل للتفكير في حبها لريازانتزيف .

وحاول يوى وهو يكاد يبكي أن يرفه عنها وجعل يقبائها ويمسح شعرها ولكنها ألحت في البكاء واستسلمت للأسى والمرارة كالطفل .

وأسى يورى لحزنها وما بدا له من ألمها فعدا إلى البيت وهو ممتنع اللون مضطرب فاصطدم رأسه بالباب وعاد إليها بكوبة ماء أراق تصفها على الأرض وعلى يديه وقال لها وهو يقدمها إليها :

« لا تبكى يا لياليا ! لا ينبغي لك أن تبكى هكذا ؟ ماذا جرى ؟ ما خطبك ؟ لعل أنا أتول بأفلاو فتش خير من الباقرين يا لياليا ؟؟ » .

وجعل يكرر ذلك وبه من اليأس خاطر .

ولكن لياليا ظلت تعول وترجف رجفاً عنيفاً حتى لكانت أسنانها تصطك بزجاج الكوبة .

وجاءت الخادمة وقالت :

« ماذا جرى يا سيدنى ؟ » .

فنهضت لياليا واتكأت على سور الباب ومضت وهي باكية تنفض إلى غرفتها .

فقال لها خادمتها :

« سيدنى العزيزة خبرينى ماذا حدث ؟ أأدعو سيدى والدك ؟ » :

وخرج فى هذه اللحظة أبوها نيتولا من المكتبة يمشى بخطى بطيئة مترنة فلما أخذت عينه لياليا وقف فى الباب وقد أذهله منظرها وسأل :

« ماذا حدث ؟ » .

فأجابه يورى :

« لا شيء ! لا شيء ! مسألة تافهة ! لقد كنا نتحدث عن ريازانتريف . كلام فارغ » .

وضحك ضحكة مستكرهة فنظر أبوه إليه شزراً وارتسمت على وجهه دلائل الغضب وصاح به :

— « ماذا بالله كنت تقول لها ؟ » .

وهز كتفيه واستدار وخرج .

فطار طائر يورى وهم بأن يجيبه جواباً عنيفاً وقحاً ولكن ما خالجه من الحياء أسكته وبقى لسانه . وجاش ب صدره الغيظ من أبيه والتوجع للياليا والاحتقار لنفسه فلم يسعه إلا أن ينحدر إلى الحديقة وداس وهو يمشى ضفدعة تنتنق فسحقها وكادت تزل قدمه فوثب صانحاً محتقاً . وجعل يمسح قدمه مدة طويلة على الحشائش الطويلة وقد سرت فى ظهره رعدة باردة .

وعبس وأغمره الاشتزاز الجثانى والعقلى باعتبار كل شيء مثيراً مستفزاً حقيراً . وتلمس الطريق إلى متعد جلس عليه وشخص بعينه إلى الحديقة غير معتمد شيئاً على التعيين بنظره ولم ير إلا رقماً عريضة سوداء فى الظلام الشامل واصطخبت فى صدره ورأسه الخواطر السوداء .

ورمى بعينه إلى حيث كانت تموت تلك الضفدعة الصغيرة المسكينة
أو حيث ماتت بعد كرب وألم هائلين . فكأنما ماتت دنيا بأسرها وزهق
عالم برمته فيالها من حياة مفردة مستقلة لقيت حتفها الشنيع ولم يحسها أحد
ولا سمع بها ديار !

واستطرد يورى من ذلك إلى خاطر مقلق غريب هو أن كل ما يكون
الحياة من غرائز الحب أو البغض الخفية التي تدفع المرء إلى قبول شيء بعينه
ورفض آخر - وإحساسه الفطري بالخير والشر ، كل هذا ليس إلا ضباباً
رقيقاً ينطى شخصيته وحدها ويلفها ويحجبها . فأما أعرق تجاربه وأوجعها
فلا يكثر لها العالم في جملة الهائلة كما لم يكثر لمصرع هذه الضفدعة
الصغيرة . وكان قبل ذلك يتصور أن آلامه وعواطفه تعنى غيره فسمح من
هذه العلاقة شبكة معقدة بينه وبين الوجود كان مصيرع الضفدعة كافياً
لتحطيمها والقضاء عليها فتركه ذلك مستفردا يعوزه العطف والغفران .

ثم كرت خواطره إلى سمينوف وإلى ما بدا له من استخفافه بالمثل العليا
التي استغرقت نفسه هو وملايين غيره من الناس فراح يفكر في لذة الحياة
الخالصة وفي سحر المرأة الجميلة وضوء القمر والبلابل وهو موضوع كان قد
شغل خواطره في اليوم التالي لآخر حديث جرى له مع سمينوف ولم يكن
يومئذ يفهم لماذا يهتم سمينوف بالتافه من الأمور كركوب زورق أو وجه
فتاة حسنة ، وكيف يأتي أن يكثر لأسمى الآراء وأعمقها . فأما الآن فقد أدرك
أن هذا لم يكن منه بد وأنه لا سبيل إلا إليه إذ كانت هذه الأمور التافهة هي
التي تتكون منها الحياة . الحياة الحقيقية الغاصية بالإحساسات والعواطف والمتع
واللذات - أما تلك الآراء السامية العميقة فلنست إلا عبارات جوفاء باطلة
لا يسمعها أن تؤثر أضال تأثير في ذلك السر الضخم المحجوب وراء الحياة والموت .
وهب لهذه الآراء قيمة ووزناً فستعنى عليها وتحل محلها في المستقبل آراء أخرى
ليست دونها خطراً وأهمية .

ولما انتهى إلى هذه النتيجة التي نشأت على غير انتظار من آرائه في الخير والشر حار واضطرب وأحس كأنما يواجه فراغاً هائلاً. وتحرر ذهنه لحظة وصفاً وشعر بالقدرة التي يشعر بها الخالم على السبح في الفضاء إلى حيث أحب دون أن تعتمد به قيود المادة فأفزعته هذا الإحساس وجاهد بكل ما وسعه من قوة أن يجمع آراءه المألوفة في الحياة فزائله هذا الإحساس المرعب وعاد كل شيء جهماً ملتاثاً في نظره كما كان .

وكان يورى يقول بأن الحياة هي تحقيق الحرية وأن من الطبيعي على ذلك أن ينبغي المرء في حياته اللذة وأن يعيش لها . وعلى هذا تكون وجهة نظر ريباز انتزيف — على انحطاطها — منطقية معقولة إذ كان لا ينشد إلا سد حاجاته الجنسية ما أمكنه ذلك لأنها الح الحاجات وأعنفها . ولكن هذا جزه إلى القول بأن الفسوق والطهر ليسا إلا أوراقاً زاوية تكسو الحشائش النضيرة الجديدة وأن لمثل لياليا وسينا كرسافينا من الفتيات الطاهرات الحق كل الحق في الارتقاء في تيار اللذة الجمائية . فأحسن لهذا الخاطر صدمة واستقذره ورآه عبثاً وصيبانية وعالج أن ينفيه عن ذهنه وقلبه بعباراته الحادة القاسية المألوفة فتمال وهو ينظر إلى السءاء :

« نعم . إن الحياة هي الشعور ولكن الناس ليسوا بهائم لا تعقل وعليهم أن يحكموا شعورهم وعواطفهم وأن يضبطوها وأن يوجهوا رغباتهم إلى ما هو خير . ولكن أثم إله قبا وراء هذه النجوم ؟ » .

وما كاد يسأل نفسه هذا حتى شاع في جوانب نفسه إحساس مضطرب مؤلم رهيب كاد ينسحقه وألح بالنظر على نجم وضيء في ذيل الدب الأكبر وذكر أن كوسما الفلاح صاحب حقل البطيخ سمى هذه المجموعة الجليلة من النجوم « عجلة أبقال » . وضايقه أن يذكر هذا الوصف المزدول الوضع وشيخص إلى الحديقة المظلمة السوداء بنظره كأنما يريد أن يقابل بينها وبين السماء الوضيئة وأن يفكر فيهما ويتدبر أمرهما . ثم قال لنفسه :

« إذا حرم . العالم طهر المرأة وحسنها وهما باكورة أزهار الربيع فماذا عسى أن يبقى للإنسان مما هو مقدس جليل ؟ » .

وصور لنفسه وهو يقول ذلك سرياً . من الغادات الفاتنات كأزهار الربيع جالسات في ضوء الشمس على المروج الخضراء في ظل الأغصان المتهدلة بالثمار والنوار وجعلت صدورهن واكتافهن الرقيقة البديعة التكوين وأعضاؤهن اللينة تتحرك أمام عينيه وتشيع في جسمه هزات لذة سارة وكأنما أدارت رأسه هذه الصورة فأمر يده على جبينه بمسحه بها .
وجعل يسائل نفسه « لماذا يثور ثائري لأن لياليا ليست بأول من أحب ريازانتريف ؟ » .

ولم يدر كيف يجيب غن سؤال كهذا ثم مثلت لعينه فجأة صورة سينا كرسافينا فقرر ثائر نفسه . وحاول أن ينم إحساساته التي ايقظتها هذه الصورة ولكنه كان كلما عالج ذلك يزداد شعوراً بما يجعله يشدها كما هي :
نقية لم تمسها يد .

وقال لنفسه لأول مرة « نعم واكنى أحبا » .

ونفى هذا كل ما عداه من الخواطر واستحوذ على نفسه حتى لجالت الدموع في عينيه . وما هي إلا برهة ثم راح يسأل نفسه وعلى وجهه ابتسامة
مرة :

« لماذا إذاً توددت إلى سواها من النساء قبلها ؟ نعم إنى لم أكن أدري أنها موجودة . وكذلك لعمرى لم يكن ريازانتريف يعرف لياليا . وكان كلانا وقتئذ يحسب أن المرأة التي يشتهي أن يفوز بها هي الوحيدة التي لا غنى له عنها وكنا في ذلك على ضلال ولعلنا الآن مخطئون أيضاً . فلا معنى لنا عن إحدى اثنتين : أن نعف أبداً أو أن نتمتع بالحرية الجنسية دون قيد ما ونبيع للنساء مثل ما أبحنا لأنفسنا . وعلى هذا لا يكون ريازانتريف ملوماً من أجل أنه أحب نساء غير لياليا بل من أجل أنه لا يزال على صلة بعدة منهن . وليس هذا مما أصنع أنا في شيء » .

وزهاه. هذا الخاطر وأشعره الطهر ولكن هذا الإحساس لم يدم إلا هنيهة ثم ذكر ما تخيله من منظر الفتيات الحميلات اللينات في ضوء الشمس وغلبه ذلك حتى ملك عليه حواسه وصار ذهنه ميدانا تتدافع فيه الخواطر المتناقضة واتعبه النوم على جانبه الأيمن فانقلب وتمطى على الأيسر وقال مخاطب نفسه :

« الحقيقة أنه ما من امرأة عرفتها تستطيع أن ترضيني طول حياتي فالذى أسميته الحب الحقيقي مستحيل لا سبيل إلى تحقيقه ومن الهذيان أن يحلم المرء بشيء كهذا » .

.. ولم يجد للتمطى على جانبه الأيسر ما قدره من الراحة فعاد إلى الأيمن وهو قلق يتصبب تحت الغطاء الدافئ وتصدع رأسه .

« إن العذرية مثل أعلى وفي تحقيقه فناء الإنسانية فهي إذا جنون — والحياة ماذا هي إن لم تكن بالجنون كذلك ؟ » .

وكاد ينطق هذه الكلمات بصوت عال وعض على نواجذه حتى أومضت لعينه نجوم صفر .

وهكذا ظل إلى الصباح يتقلب وقد أثقلت قلبه وذهنه الخواطر الموثسة ولمسا أراد أن يتخلص منها راح يقنع نفسه أنه هو أيضاً أنانى شهوانى مستهتك وأن شكوكه ليست إلا نتيجة الشهوة المخبوءة . غير أن هذا لم يزد له إلا مضاً ولم يرفه عنه إلا هذا السؤال البسيط :

« لماذا أعذب نفسي هكذا ؟ » .

وأحرقه عبث هذا التشریح لنفسه ونفدت قواه فنام .

بكت لياليا في غرفتها طويلاً ووجهها مخبوء في الوسائد حتى أخذ عينها الكرى وقامت في الصباح برأس متصدع وعين منتفخة وكان أول ما خطر

لها ان البكاء لا يجمل بها لأن ريارانتزيف سينتفدى معها وأخلق به إذا هي لجت في البكاء أن يروعه منظرها وهيئتها ثم ذكرت أن الأمر انقضى بينهما فألهبت هذه الذكرى حبها وأشعرتها ألماً مرا فبكيت من جديد وقالت وحاولت أن تحبس دموعها :

« يالها من نذالة وشناعة ! ولماذا ؟ لماذا ؟ » .

وجعلت تكرر هذا السؤال كأنما غلبها البث والحزن على الخب الذي ضاع وأهاجها أن ريارانتزيف كان يكذبها ابداً على هذا النحو .

« وليس هو بالكاذب وحده بل كل من عداه كانوا يكذبون مثله . كانوا يدعون أنهم أتم ما يكونون سروراً وبوشت زواجنا ويزعمونه رجلاً شريفاً طيباً ! لا لا ! إنهم لم يكذبوا في الواقع ولكنهم لم يروا أن زواجنا خطأ . وما أشنع ذلك منهم ! » .

وهكذا خيل لها أن كل من حولها أشرار بغضون فأسندت جبينها إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الحديقة من خلال دمرعها وكانت الحديقة في ثوب من الجهامة . والمطر يضرب زجاج النافذة فلم تدرك أيهما حجب الحديقة عن عينيها : المطر أم دموعها . وكانت الاشجار كاسفة ولم يزل القطر عن أوراقها الصفراء ولا تكاد تبدو غصونها السوداء من خلال خطوط الديمة السحابة السكوب التي أخالت ممشي الحديقة مستقفاً من الطين .

وأحست لياليا أنها شقية وأرسلت طرفها إلى المستقبل فلم ترف فيه نجم أمل واحد يومض وكرت إلى الماضي فإذا هو مظلم . وجاءت الخادمة تدعوها إلى الإفطار فسمعت لياليا ألفاظها ولكنها عجزت عن فهم معناها .

ولما جلست إلى المائدة ألقت نفسها مرتبكة كلما خاطبها أبوها ولم يخامرها شك في أن كل الناس قد أحاطوا علماً الآن بغدر حبيبها وزيف حبه فبادرت إلى العود إلى غرفتها وجلست مرة أخرى تنظر إلى الحديقة الساهمة الموحشة .

« لماذا يغدر ؟ وما الذى يدفعه إلى إيذائى وإيلامى ؟ أترى يفعل هذا لأنه لا يحبنى ؟ كلا ! إن توليا يحبنى وأحبه . إذاً فماذا ؟ إن الأمر هذا : لقد خدعنى وكان فى خلال ذلك يخطب وداد كل امرأة مقبوحة . فيأعجبها ، أحببته كما أحبه ؟ »

سألت نفسها ذلك فى دلال وحرارة ثم قالت :

« تالله ما أحقنى ، ما خبير أن أقطع قلبى بالأسى والتفكير فى هذا ؟ لقد خائنى عهدى فانقضى الأمر بينى وبينه ، آه ، ما أتم شقاوتى ! نعم يحق لى أن أقطع قلبى أسى ، لقد غدر بى ، وكان يجدر به أن يعترف لى بذلك على الأقل ولكنه لم يفعل ، فيألها من نذالة ، يقبل زمرأ من النساء غيرى ، ولعله أيضاً يا للشناعة ، ويحى لقد صرت شتية ! »

ثم غنت نفسها :

« وثبت ضفدعة فى الطريق ورجلاها ممدودتان » .

تلك كانت اغنيיתה وهى تنظر إلى ضفدعة صغيرة تثب فى الطريق الزل . ثم عادت تحدث نفسها بعد أن اختفت الضفدعة بين الحشائش :

« نعم أنا شقية وقد قضى الأمر . وما كان أحلى مامر بى من عهد حبى هذا وأحفظه بالغرائب الممتعة أما هو .. قلم يكن الأمر فى نظره إلا مسألة عادية مألوفة ! وأحسبه لهذا كان يحاذر أن يحدثنى عن ماضيه ! وهذا أيضاً فيما أظن سر ما كان يبدو لى من غرابة شأنه ومن هيئة التفكير التى كانت تلازمه . كأنما كان يقول لنفسه أبداً « إنى خبير بهذا وأنا أعرف ما تحسبته واستطيع أن أنكهن بالنتيجة بينما كنت أنا طول هذا الزمن ... آه ما أفضح هذا وأشنعه ! ألا لن أحب أجداً بعد ذلك ! » .

ثم بكت مرة أخرى وأسندت خدها إلى الزجاج البارد وشخصت بعينها إلى الغمام السائر ولم تكف عن مناجاة نفسها :

« ولكن توليا سيحضر للغداء اليوم ! » .

وارتجفت لهذا الحاطر :

« فإذا عسى أن أقول له ؟ ماذا ينبغي لمثل أن يقول لمثله في هذه الأحوال ؟ » .

وفتحت فيها وأثارت نظرها إلى الحائط :

« لا بد لي من سؤال يورى في هذا . إيه ما أطيب يورى وأقومه ! » .
وجالت ذموع العطف في عينيها . ولما كانت لم تألف أن ترجىء أمراً ما فقد خفت إلى أخيها في غرفته حيث ألقت معه شافروف يناقشه في مالا تعلم فوقفت مترددة في الباب وقالت بشيء من الدهول :

« عما صباحا » .

فأجابها شافروف :

« عى صباحا ! تفضلى بالله بالياليا ! إنه لاغنى لنا عن عونك في هذا الأمر » .

فلم يفارقها ارتباكها واطاعت وجلست إلى المنضدة وجعلت تبحث بأصابعها ببعض الأوراق الخضراء والصفراء المكومة فوقها .

والثفت إليها شافروف التفاتة من مهم بجلاء معضل وقال :

« المسألة هي أن كثيرين من زملائنا في كورسك في ضيق وكرب شديدين ولا بد لنا من بذل كل ما يسعنا بدله لمساعدتهم ومن أجل هذا فكرت إحياء ليلة فهل توافقين ؟ » .

فأذكرها سؤاله وعباراته المألوفة ما جاءت من أجله إلى أخيها فنظرت إليه بعين ملؤها الأمل وقالت وهي تعجب لماذا يتق يورى لحظها :

« لم لا ؟ إنها فكرة حسنة جداً ! » .

وكان يورى بعد الذى شهد من بكاء أخته وما كابده من الحواطر المقلقة طول الليل - يحس أنه أشد اكتئاباً وحزناً من أن يستطيع أن يكلم أخته . ولقد توقع أن تقصد إليه طلباً لمشورته ولكنه شعر أن الإشارة عليها بشيء مريض

مطلب بعيد . كذلك من المستحيل استرداد مقالته ليرفه عنها ويسرى أحزانها وليدفعها إلى ذراعى ريباز انتزيف . ولم يشمر بالقدرة على القضاء على سعادتها الوليدة .

وعاد شافروف إلى الكلام ودنا من لياليا كأنما زاد الأمر تعقداً أو إشكالا :

« حسن . إن الذى قررنا أن نفعله هو هذا : نريد أن نطلب إلى ليديا سائين وإلى سينا كرسافينا أن يغنيا — كل منهما على حدة أولاً ثم بعد ذلك معاً وليس أصلح من صوتيهما للغناء المشترك فإذا فرغنا عزفت على الكمنجنا ثم بعد ذلك يغنى سارودين ومعه تاناروف » .

فسألته لياليا بلا تعمد وهى تفكر فى شىء آخر :

« إذاً فميشترك الضباط فى الحفلة أليس كذلك ؟ » .

فصاح شافروف ولوح بيده :

« نعم بلاشك ، وما على ليديا إلا أن تقبل فتلتف بها جمهرة منهم كالأزناوير . أما من حيث سارودين فهذا يسره أن يغنى وهو لا يكثرث للمكان مادام يستطيع أن يغنى وسيجذب غناؤه عدداً جماً من زملائه الضباط فيغص المكان » .

فرمت لياليا إلى أخيها بنظرة ذات معنى وقالت :

« يجب أن تدعو سينا كرسافينا » .

وحدثت نفسها قائلة :

« لا أحسبه قد نسى . كيف يكلمنى فى شأن هذه الحفلة وأنا » .

فقال شافروف :

« لقد قلت لك منذ هنيهة أننا دعوناها ! » .

فقال لياليا :

« نعم قلت ذلك » .

وابتسمت : « وهناك أيضاً ليذا ولكنك ذكرت اسمها فيما أظن ؟ » .

قال شافروف : « نعم فعلت . ومن ندعو غيرهما ؟ » .

فتمتمت لياليا :

« لا أدري والله ! إن برأسى صداً » .

فنظر يوري إلى أخته مسرعاً ثم استأنف الإكباب على الأوراق وحرك عطفه عليها اصفرارها وثقل جفونها وقال لنفسه :

« لماذا قلت لها كل هذا ؟ إن المسألة غامضة مستبهمة المعالم في رأي ورأى الكثيرين من الناس . ولا مفر للمسكينة الآن من تعب القلب والخطاير . فلماذا خبرتها ؟ » .

وأحس كأنما سيهم بتمزيق شعره .

وفي هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :

« سيدتي إن المسيو أناطول بافلوفتش قد حضر ! » .

فأسرع يوري وألقى إلى أخته نظرة فزعة فالتفت عينه وعينها فأشاحت لارتباكها بوجهها عنه إلى شافروف وقالت على عجل :

« هل قرأت شارل برادلاف ؟ » .

أجاب : « نعم قرأنا بعض كتبه مع دوبروفا وسيتا كرسافينا . إنها ممتعة ! » .

قالت : « نعم . أو قد عادت ؟ » .

أجاب : « نعم » :

فسأل يوري وكم انفعاله :

« متى ؟ » .

قالت : « منذ أول من أمس » .

فقال يوري : « حقاً ؟ » .

ونظّر إلى أخته وخجل منها وأحس الخوف في حضرتها كأنما كان قد خدعها .

وظلت لياليا لحظة وهي واقفة مترددة تعبت بأصابعها بكل شيء ثم دنت من الباب .

فقال يورى مخاطباً نفسه « ويحي ماذا صنعت ؟ » وأصغى وهو مكروب إلى وقع قدميها المتعثرتين .

ومضت لياليا إلى الغرفة الثانية مترددة حزينة وأحست كأنما يجمد الدم في عروقها وكأنما هي تائهة في غابة مظلمة فتعذّرت إلى مرآة ورأت في صقالها وجهها المقطب وقالت تحدث نفسها :

« سيراني بهذا الوجه ! » .

وكان رياز انتزيف واقفاً في غرفة المائدة يقول لنيقولا بصوته الخائر :

« بديهي أن هذا غريب ولكنه لا بأس منه » .

فلما سمعت لياليا صوته خفق قلبها خفقاً عنيفاً كأنما بهم أن يتمزق وأبصرها رياز انتزيف فكف فجأة عن الكلام وتقدم إليها وذراعاها مفتوحتان ولم يكن أحد سواها يعلم أن هذه الإشارة دليل على أنه يريد أن يحتضنها .

فرفعت إليه طرفها في حياء وارتجفت شفتاها ونزعت كفها من كفه دون أن تنبث واجتازت الغرفة وفتحت الباب الذي يقضى إلى الشرفة وجعل رياز انتزيف يرقبها وهي تفعل ذلك - وهو هادئ غير أن به بعض الدهشة . والتفت إلى أبيها وقال بوقار المازح :

« إن لود ميللانافرة ! » .

فانفجر الأب نيقولا يضحك وقال :

« الأرى أن تذهب إليها وتتألفها » .

فتهد رياز انتزيف وقال بهيئة مضحكة وهو يتبعها إلى الشرفة :

« ليس ثم غير ذلك » .

وكان المطر لا يزال يهطل وفي الجو صوت قطراته المتساقطة المملة
وابكن السماء كانت أصفى والسحب متقطعة .
وكانت لياليا واقفة وخدها الى أحد عمدان الشرقة والمطر يضرب
يدها العارية وشعرها مبتل

فقال ريارانتريف وهو بدنو منها

« أن سيدنى غاضبة ليا ليتشكا ! . . . »

ومنح شعرها العطر البليل قبلة خفيفة فأحست كان شيئاً يذوب في
صدرها ويتحلى وأقبلت عليه وهى لا تدرى ماتصنع وطوقت عنق
حبيبها القوى بذراعها وامطرته وابلا من اللثام وهى تقول بينها : .

« لافى مستاءة جداً جداً منك . . . أنت رجل شرير »

وكانت فى خلال ذلك تقول لنفسها أن ليس فى الأمر بعد كل
ما يقال سوء لاسبيل الى إصلاحه كما حسبت من قبل . وماذا بهم ؟ أن
كل ماتريده هو أن تحب هذا الرجل الكبير الجميل وأن يحبها .

ولما جلسا بعد ذلك الى المائدة آلمها من أخيها نظرة إليها مستغربة
وما سنحت لها الفرصة حتى أسرت اليه « أن هذا منى فطيع وأنا
أعرف ذلك »

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة مجتواة :

وكان يورى فى الواقع قد سره أن الأمر انتهى على هذا الحال الحسن
وإن كان على هذا قد ذهب يدعى استنكار هذا التسامح العامى
واحتقاره فانسحب الى غرفته ومكث بها وحده الى المساء

ولما آذنت الشمس بالمغيب ورأى السماء صافية احتمل بندقيته على
نية الذهاب للصيد فى حيث صاد هو وريازانتريف أمس .

وكان المطر قد أكسب هذه البركة حياة جديدة فكان المرء يسمع

أصواتا غريبة كثيرة والحشائش تترنح كأنما تحركها قوة حيوية خفية والضفادع تنفق جماعات والطيور من حين إلى حين ترسل أصواتا حادة متنافرة والبط يصبح بين الأعشاب والأكلاء البليلة على مقربة من يوري وأن كان أبعد من مدى بندقيته . ولم يحس الرغبة في الصيد فاحتمل بندقيته وانثنى آيبا يصغى الى أصوات الصفاء البلورى فى الغسق الساكن ثم قال :

« ما أجمل هذا كل شيء جميل الا الإنسان فهو وضع . »

وأخذت عينه النار موقدة على بعد فى حقل البطيخ ولما اقترب عرف فى ضوءها وجهى كوسيمسا وسائين فاستغرب ونزعت نفسه الى استطلاع السر « ولماذا يدأب على المجيء الى هنا ؟ »

وكان كوسيمسا جالسا الى جانب النار يقص حكاية وهو يضحك ويومئ وسائين يضحك كذلك وكان لبيب النار خفيفا كلسان الشمعة ورديا لأحمر قابيا كما يكون فى ظلمة الليل . وفى قبة السماء الزرقاء طلائع النجوم تتوأمض وفى الجورائحة الجلدة غب المطر وشذى النبات المطلول .

وخاف يورى لسبب ما أن يرياه وأحزنه فى الوقت نفسه أن لا يستطيع أن يلحق بها ويكون معهما فكأنما قام بينهما وبينه حجاز كاذب غير مفهوم أو فضاء لاجو فيه أو بون لاسييل الى تخطية . .

وثقلت على نفسه وطأة هذا الإحساس بالعزلة . وتجسم له أنه مستفرد وحيد وأنه واقف بمعزل عن هذه الدنيا بأضوائها وألوانها ونيرانها ونجومها وأصواتها الآدمية كأنما هو ملقى به فى غرفة حالكة . وبلغ من جثوم هذا الشعور بالوحدة أن خيل له وهو يجتاز حقل البطيخ حيث كانت مثاب منه أن هذه ليست سوى جماجم آدمية مبعثرة فوق ظهر الأرض .

جاء الصيف بالحرارة والدفع فكان الجو بين الارض الساخنة والسماء

الزقاء المشرقة الصفحة كأنما يغشاها ويسبح فيه نقاب خفيف من البخار الذهبي وكأنما أرقق الحر الأشجار فنامت . وألقت أوراقها المتدللية الساكنة ظلالاً شفافة قصيرة على الثرى الظامىء الحاف . وفي البيوت الرطوبة . والحدائق ترسل ألواناً خضراء باهتة ترسمها الأضواء على السقوف وكل شيء ساكن ما خلا البتائر المجموعة إلى جوارب النوافذ . هذه وحدها كان النسيم الوافى يعابها .

وكان سارودين في جاكنة من النيل مفكوكاة الازرار يقطع أرجاء الغرفة في بطاء وهو يدخن سيجارة في كسل وفطور ويكشف عن أسنانه الكبيرة البيضاء . وعلى الكنية تاناروف في ثياب الركوب متمطياً يلحظ سارودين بعينيه الصغيرتين السوداوين . وكان في أشد الحاجة إلى خمسين روبلاً وقد طلب إلى سارودين مرتين أن يسلفه أياها ولم يجرؤ على معاودة الكرة مرة ثالثة . فجعل ينتظر في قلق أن يعود سارودين من تلقاء نفسه إلى الموضوع ولم يكن سارودين قد نسي ولكنه كان قد قامر وأضاع سبعمائة روبل في الشهر الماضي فضعف على صاحبه بأى قرض آخر . وكان يقول لنفسه وهو ينظر إلى تاناروف إذ يمر به « أن عليه لى مائتى روبل وخمسين روبلاً . وهذا مدهش حقاً ! نعم نحن صديقان خميان الح ولكنى أعجب له كيف لا ينجح . أنه على الأقل يستطيع أن يعتذر إلى من أنه مدين لى بكل هذا المبلغ . كلا . لن أقرضه درهما واحداً آخر » .

ودخل في هذه اللحظة خادمه وهو جندي صغير الجسم منقط الخلد ووقف بشكل محتوى وحيا وقال وهو لا ينظر إلى سارودين :

« سيدى لقد طلبت جمعة ولكنه لم يبق منها شيء » .

فنظر سارودين على غير إرادته إلى تاناروف وأحمر وجهه وقال لنفسه :

« حقاً أن هذا أكثر مما يطاق ! أنه يعلم ما أنا فيه من الضيق ومع

ذلك لا يبدى لي الجمعة ! » .

وزاد الخادم على خبره السابق :

« والباقي من الفودكا قليل أيضاً »

قال « حسن .. لعنة الله عليك ! أنه لا يزال معك روبيلان فاذهب واشتر ما تريد » .

أجاب « عفواً سيدى، فليس معنى شيء على الإطلاق » .

فوقف سارودين وصاح به :

« كيف هذا ؟ ماذا تعنى بالكذب على ؟ » .

قال « عفواً ياسيدى . لقد أمرت أن أنقد الغسالة روبيلاً و ٧٠ كوبيك ففعلت ووضعت الثلاثين الباقية على المنضدة » .

فقال تاناروف متكلفاً عدم الاهتمام وإن كان على هذا قد احمر خجلاً :

« نعم هذا صحيح . لقد أمرته بهذا أمس وكانت المرأة لم تنزل لتعطينى منذ أسبوع وأنت تعلم ذلك » .

قادت على خدى سارودين الخليقين المصقولين نقطتان حمروان وتقبضت عضلات وجهه واستأنف راحه ونحيته في صمت ثم ما عثم أن وقف بغتة أمام تاناروف وقال والغضب يرعش صوته :

« اسمع . إنى أكون شاكرًا جداً إذا تركتني أدير شئونى المالية فى المستقبل » .

فاختقن وجه تاناروف وتمتم وهو يهز كتفيه :

« هـ . م ! ومسألة تافهة كهذه ! » .

فقال سارودين :

« أنها ليست مسألة توافه . بل مسألة مبدأ . فهل تسمح لى أقول لك

بأى حق . . . » .

أجاب « أنا . . . » .

وقاطعه سارودين بنفس هذه اللهجة الجارحة وقال :

— « أرجوك أن لا تشرح لى شيئاً . وليس يسعنى إلا أن أرجوك أن لا تستعمل هذه الحرية مرة أخرى . »

فارتجفت شفتا تاناروف وتدلّى رأسه وجعلت أصابعه تعبت « بغم » سيجارة .

وبعد لحظة استدار سارودين بحدة وأخرج مفاتيحه وفتح درج مكتبه وقال :

« خذ واذهب واشتر ما نريد ! » .

قال ذلك بصوت أهدأ وأعطى الجندى ورقة بمائة روبل .

فقال الخادم : « حسن يا سيدى . »

وحبا وخرج .

ثم أغلق سارودين صندوق نقوده ورد الدرج وأدار فيه المفتاح واستطاع تاناروف أن يرى الصندوق الذى يحتوى الخمسين روبلا التى به الحاجة إليها ثم تنهد وأشعل سيجارة وهو على أشد ما يكون ألماً ولكنه خشى أن يظهر ألمه لئلا يزداد سارودين غضبا واكتفى بأن يقول لنفسه :

« ما قيمة روبيلين عنده ؟ أنه يعلم علم اليقين أنى فى ضيق شديد » .

وظل سارودين يروح ويحىء فى الغرفة والغضب باد عليه إلا أنه كان يهدأ شيئاً فشيئاً ولما عاد الخادم بالجمعة كرع كوباً من هذا الشراب المرغى المثلج بالتذاذ واضح وبعد أن مص حافة شاربيه قال كأنما لم يكن قد حدث شيء :

« لقد عادت ليذا إلى أمس ! تالله ما أحلاها ! حارة حامية ! » .

وكان تاناروف لا يزال متوجعاً فلم يحبه ولم يلتفت سارودين إلى صمته . واجتاز الغرفة فى بطاء وفى عينه ضحكة ذكرى مكتومة . وجعل الحر كيانه القوى الصحيح أحسن بتأثير الخواطر المثيرة . ثم ضحك ضحكة قصيرة فكأنما كان يصهل ثم وقف وقال :

« تعلم أنى البارحة حاولت ... »

وهنا استعمل لفظة خشنة وضبعة لا يليق أن يشار بها إلى امرأة واستأنف الكلام .

« فتأبث قليلاً في أول الأمر : بالنظرة عينيها ! أنت بالضرورة تعرف » .

فابتسم تاناروف ابتسامة الشهوان وقد ثارت غرائزه الحيوانية .
وقال سارودين والذكرى ترعش منه .

« ولكن بعد ذلك لانت أعطاف الأمور . لم يمر بي مثل هذا الوقت في حياتي كلها » .

فقال تاناروف حاسداً أياه :

« ما أسعد حظك ! » .

وصاح بهما صوب من الشارع :

« هل سارودين هنا ؟ أندخل ؟ » .

وكان السائل هو إيفانوف ففرغ سارودين وأشفق من أن يكون ما قاله عن ليدا قد سمعه أحد ولكن إيفانوف كان يناديه من السكة ولم يكن بحيث يرى فصاح به سارودين من النافذة .

« نعم . نعم هنا » .

وعلت في الغرفة الأخرى جاية ضحك ووقع أقدام كأنما غزا البيت جيش من أهل القصف ثم دخل إيفانوف ونوفيكوف والكبتن مالمينوسكى وضابطان آخران وسائين وصاح مالمينوسكى وهو يدفع نفسه داخلا الغرفة :
« هوراه ! كيف أنتم أيها الصبيان ؟ »

وهو رجل وجهه أحمر وخدها سمينان طريان وله شاربان تخالما عودين من القش .

وقال سارودين يخذل نفسه مغضبا :

« وستذهب أيضاً ورقة بخمسة وعشرين روييلاً ! »

ولكنه لم يكن يحب أن تسوء سمعته وأن يظن به إلا أنه غنى كريم فصاح بهم وهو يبسم لهم :

« هالولوا ! أين أنتم ذاهبون جميعاً ! آتون إلى ؟ هيا يا شيريبانوف هات لنا فودكا وسائر ما نحتاج إليه . أجر إلى النادى واث بشيء من الجعة . أنكم تريدون جعة أليس كذلك يا سادة ؟ فى مثل هذا الحر ؟ »

ولما جاء الخادم بالجعة والفودكا زادت الضجة وعلت الجلبة وصاروا جميعاً يضحكون ويضحون ويشربون كأنما آلوا أن يحدثوا أكبر صخب ممكن . ولكن نوفيكوف كان مطرقاً مكتئباً وعلى وجهه الطيب أمارات منذرة . ولم يكن قد عرف إلا أمس ما تلغظ به البلدة فطغت به فى أول الأمر الغيرة والشعور بالمهانة ثم قال لنفسه .

« إن هذا مستحيل ! سخافة مطبقة وحديث خرافة » .

وأبى أن يصدق أن ليذا الجميلة المزهوة البعيدة المنازل - ليذا التى يجلبها من أعماق قلبه - يمكن أن تكون قد تورطت على نحو مخز مع مخلوق مثل سارودين الذى يعدل نوفيكوف دونه ذكاء ومواهب . ثم استحوذت على نفسه الغيرة الجاحدة الحيوانية ومرت به لحظات يأس مرة فكانت تمزق قلبه الكراهية لليدا . ولسارودين على وجه أخص . وهو إحساس لا يلائم مزاجه المادىء اللين فكان لذلك يتطلب منفذاً ومتنفساً وظل الليل كله يرثى لنفسه بل لقد خطر له الانتحار غير أنه ما كاد الصبح يتنفس حتى نازعته رغبة جامحة طاغية غامضة أن يرى سارودين .

ولما جاء انتحى ناحية وجعل يكرع الكأس أثر الكأس وحينه ترصد كل حركة لـ سارودين كما يرصد الوحش فى الغابة قرينه الوحش - متظاهراً بأنه لا يرى شيئاً ولكنه على هذا أتم ما يكون استعداداً للوثوب - وكان كل ماله علاقة بسارودين - ابتسامته وأسنانه

البيضاء وقسمات وجهه المليحة وصوته — كل هذه كانت سهاما أو خناجر في جرح رغب فاجر .

وقال ضابط طويل نحيف له ذراعان طويلتان :

« سارودين ! لقد جئت إليك بكتاب » .

وسمع نوفيكونف وسط الصخب العالي اسم سارودين يذكر وصك أذنه صوته كذلك كأنما كانت السنة الحضور خرساء وقال .
— « أى كتاب ؟ »

فقال الضابط المزيل ورفع صوته كأنما يلقي بيانا :

« إنه كتاب عن النساء بقلم تولستوى » .

وكانت على وجهه الطويل المضمج آيات الزهر والمباهاة بأنه يقرأ تولستوى ويبحثه .

فسأله إيفانوف وقد لاحظ دلائل هذا الزهو :

« أو تقرأ تولستوى ؟ »

وقال ماليتوسكى مجيباً عنه :

« إن فون دايتز مجنون بتولستوى » .

وتناول سارودين الكتاب الصغير وقلب بعض صفحاته وقال .

« أهو الذيد ؟ »

فقال فون دايتز بجماسة :

« سترى . لعمري أنه لعقل ! ويخيل لك بعد قراءته كأنما كنت تعرف

هذا من قبل ! »

فسأل نوفيكونف بصوت منخفض وعيناه إلى الكأس في يده .

« ولكن لماذا تطالب إلى فيكتور سر جيفيتش (سارودين) أن يقرأ تولستوى

مع أن له آراء خاصة عن النساء ؟ »

فقال سارودين بجذر وقد استروح نية الهجوم :

« ما الذى يجعلك تظن هذا ؟ »

فصمت نوفيكيوف وكان يود أن يلطم سارودين على وجهه الحسن الذى ينم على الرضى عن النفس . وأن يطرحه على الأرض وبلكزه . لكن من طغى بصدوره ورأسه جنون العاطفة . ولكن الألفاظ التى يطلبها خاتنه . وأدرك - وآلمه أن يدرك - أنه ينطق بما لا يريد حين قال :

« حسب المرء أن ينظر إليك ليعرف ذلك » .

فأحدثت لهجته الغريبة المنكرة سكونا مبالغتاً كأنما ارتكبت جريمة قتل وفطن إيفانوف إلى سر المسألة وقال سارودين ببرود :

« تخيل إلى أن »

وتغيرت هيئته قليلاً وإن كان قد ملك عواطفه وضبطها .

فصاح بهما إيفانوف :

« مهلا مهلا يا سادى ، ماذا حدث ؟ »

فقال سائين مقاطعاً :

« لا تدخل بينهما ، دعهما يقتتلان ويفرغان من الأمر » :

وعاد نوفيكيوف فقال مجيئاً سارودين بنفس اللهجة «وعيناه إلى كأسه :

« ليس فى الأمر تخيل وإنما هو كذلك » .

ولم يكذب قولها حتى حال بين المتنافسين حائط من اللحم والدم وكثر الصياح والتلويح بالأذرع وانطلقت الألسنة بعبارات المزاح والدمشة وأمسك مالىنوشكى وفون دايتز بسارودين ورد إيفانوف والضباط الآخرون نوفيكيوف وأنزع إيفانوف الكؤوس وقال شيئاً غير معتمد أحداً بخطابه . وصار السرور متكلفاً لا إخلاص فيه وأحسن نوفيكيوف أن يخرج وجهه واجب ولم يطق البقاء فابتسم خرقاء والتفت إلى إيفانوف والضباط الذين كانوا يعالجون أن يافتوا نظره إليهم وقال يحدث نفسه .

« ماذا دهاني ؟ أحسب أن واجبي أن أضربه ... أن أهجم عليه
والكمة في عينه » وإلا عدوني طفلاً إذ لابد أن يكونوا قد خزرروا
أني أتحمكك به .. »
ولكنه بدلاً من أن يفعل هذا ادعى الاهتمام بما يقوله إيفانوف
وفون دايتز .

فقال فون دايتز :

« أما من حيث النساء فلست أوافق تولستوى كل الموافقة » .

فقال إيفانوف :

« إن المرأة ليست إلا أنثى . وقد تجدد في كل ألف رجل واحداً
جديراً بأن يسمى رجلاً فأما النساء ... ويجهن أنهن جميعاً سواء ولسن
إلا قردة عارية حمراء ولكنها بغير أذنان »

فقال فون دايتز موافقاً :

« ما أذكي هذا ؟ »

فقال نوفيكوف بمرارة :

« بل ما أصدقه ، »

واستمر إيفانوف ملوحاً بيديه قريباً من أذن صاحبه فقال :

« يا سيدى العزيز . اسمع . إذا ذهبت إلى الناس وقلت لهم (إن
المرأة إذا نظرت إلى الرجل نظرة اشتها فقد زنت معه في قلبها) - كان
الأرجح أن يعد أكثرهم هذا القول صحيحاً مبتكراً ...
فأخرج فون دايتز ضحكة جشاء كأنها نباح الكلب ولم يكن قد فهم
نكتة إيفانوف غير أنه على هذا أسف لأنه لم يقلها دونه .

ولأنهم لذلك وإذا بنوفيكوف بمد يده إلى فون دايتز فقال فون
دايتز مستغرباً :

« ماذا ؟ أذهب أنت ؟ »

فلم يجر نوفيكوف جواباً . وسأله سائين :

« إلى أين ؟ »

فظل نوفيكوف صامتا وهو يحس كأن الألم المكتوم يوشك أن يهمر دموعا .

فقال سائين .

« إنى أعرف ما بك . ابصق على كل ذلك . »

فرمى إليه بنظرة من يرثى له وارتجفت شفتاه وأوما إيماء الأسف وخرج في صمت والإحساس بعجزه يخامره فقال ليتسلى ،

« ما خير أن ألطم هذا النذل على وجهه ؟ أن هذا ما كان ليفضى إلا إلى قتال سخيف والحير لى أن لا ألوث يدي . »

ولكن الغيرة النائرة والإحساس بالعجز ظلا ضاغطين فعاد إلى بيته وهو فى أشد حالات الغم والأسى والى بنفسه على الفراش وأخفى وجهه فى الوسادة وظل كذلك بقية النهار وبه ما به من مرارة الشعور بأن لا حياة له



وسأل مالميتوسكى زملاءه :

« الا نلعب الورق ؟ »

فقال إيفانوف :

« حسن جداً » .

وجاء الخادم بمنضدة اللعب وعليها غطاؤها الأخضر يستهويهم جميعاً . وكان اقترح مالميتوسكى قد أيقظهم فجعل يثقل الأوراق بكفيه الصغيرتين الكثيرتي الشعر وانتشرت على المائدة الخضراء الأوراق الزاهية وسمع رنين الروبيلات الفضية بعد كل دور أو صارت الأصابع تطبق عليها كالعناكب ولم تند عن الأفواه إلا عبارات وجيزة مصرحة عن السرور أو الكمد :

وخذل الحظ سارودين فذهب إلى العناد وأصر على المخاطرة فى كل شوط بخمسة عشر روبيلا وكان يخسرهما فى كل مرة وصار وجهه ناطقاً

بالأمم الشديد وكان في الشهر الماضي قد قامر وخسر سبعمائة روبل يضاف إليها كل مذهب اليوم وأعدى غيره بسوء خلقه فلم يلب فون دايتز وماليتوسكى أن تراشقا بالعبارات الجارحة فصاح بهما سارودين وألقى ورقة :

« وبحكم مامنى هذا كله ؟ »

وفي هذه اللحظة ظهر قادم جديد في مدخل الغرفة . فحجل سارودين لانفجار مرجلى غضبه وانطلاق لسانه بعبارات العامة ولوجود هؤلاء الضيوف المخمورين الصاخبين ولأوراق اللعب وزجاجات الخمر وخيل اليه أن غرفته قد صار لها منظر الحمامة .

وكان القادم رجلا نحيفا طويلا في بذله بيضاء فضفاضة وأنيقة عالية فوقفت على العتبة مذهولا وجعل يتأمل الحضور باحثا عن سارودين بينهم فصاح سارودين وتقدم لتحية ووجهه كالجمر من الغيظ « أهلا بك يا بافل لفوقتش ! ماذا جاء بك »

ودخل القادم هيئة المتردد وصارت كل العيون قيد حذائيه الأبيضين الناصعين وهو يخطو بهما على حذر بين زجاجات الجمعة وسداداتها وأعقاب السجائر وكان من البياض والنظافة والمطر وحسن الهندام بحيث صار بين سحب الدخان المعقود في جو الغرفة ومرسليها السكرى أشبه شيء بالزنبقة في المستنقع لولا خورة وذبوله ولولا أن قسما وجهه ضميعة وأسنانه البادية تحت شاريه الخفيفين الآخرين — متداعية .

فقال سارودين :

ومن أين جئت أغبت طويلا عن بتجر (١)

ثم أهركه الخوف من أن نكون بتجر لفظه لا يحمل مثله استعمالها

فقال الرجل ذوالثوب الأبيض بلهجه بآنة وإن كان صوته كصباح
الدبلك المكتوم :

« جئت أمس فقط » :

فقال سارودين وقدمه إلى الحاضرين :

« هذا هو المسير بافل لقوفتش فلوتشين » .

فاتحني فلوتشين قليلا وقال إيفانوف وكان ثملا فازعج سارودين :
يجب أن تدون هذا !

— « تتفضل واجلس يا فلوتشين . أشرب نبيذاً أم جمعة ؟ »

فجلس فلوتشين ببطء وحذر على كرسي ذي ذراعين فظهر نصوع
ثوبه إلى جانب الغطاء القذر وقال برود ودارت عينه في الحضور :

— « أرجوك أن لا تتعب نفسك . إنما جئت لأراك هنيهة »

فسأله سارودين :

« كيف تقول هذا ؟ سأطلب لك نبيذاً أبيض . فإتلك تحية أليس كذلك ؟ »

وأسرع فخرج وهو يقول لنفسه :

لماذا شاء هذا الأحمق أن يأتي إلى اليوم ؟ إنه سيروى عني في بطرسبرج ما يجعل

من المستحيل علي أن تطأ زجلي عتبة بيت محترم فيها »

وبعث خادمه ليشتري النبيذ

وفي خلال ذلك كان فلوتشين ينقد الحاضرين نقداً صريحاً وبنظر اليهم نظر

الموقن أنهم دونه بمراحل . ويقاب فيهم هيئة الزجاجة تقلب من يعرض مجموعة

من الوحوش ووقع من نفسه على وجه الخصوص قامة سائين ووثاقه تركيبه

وثيابه فقال لنفسه

(هذا نوع متع ! ولا بد أن يكون قويا !)

وبه إعجاب الضعيف الحوار للقوى الباطش . والواقع أنه ماعثم أن انطلق

يكلم سائين غير أن سائين كان متكئا على حافة النافذة ينظر إلى الحديقة

فكف فيوتشين عن الكلام وغازطة حتى صوته وحدث نفسه أن هؤلاء ليسوا

الاحثالة الخلق

وعاد سارودين في هذه اللحظة وجلس بجانبه وجعل يسأله عن بطرسبرج وعن مصنعه ليفهم الحاضرين أن زائره رجل ثرى خطير الشأن وبدأت على وجهه الوسيم دلائل الزهو والغرور الحقيق فأجابه فلوتشين بلهجة السأمان :

« كل شيء هناك كما كان ! وكيف حالك أنت ؟ »

فقال سارودين وأخرج زفرة :

« إني أعيش عيشة النبات »

فصمت فلوتشين ورفع طرفه بازدياء إلى السقف حيث كانت تلتصع الأضواء المنعكسة عن الحديقة .

وعاد سارودين إلى الكلام :

« إن سلوتنا الوحيدة هي هذا »

وأشار إلى الورق والزجاجات والضيوف .

فقال فلوتشين .

« نعم نعم ، »

وخيل لسارودين أن صاحبه يقول له « أنك لست بغير منهم .. »

ثم وقف فلوتشين يودع صاحبه وقال

« يجب أن أذهب الآن . إني مقيم بالفندق القائم في الميدان وأرجو أن أراك مرة أخرى ، »

وفي هذه اللحظة دخل الخادم وحيا بهيته رثة وقال :

« سيدى أن السيدة الصغيرة هناك »

ففزع سارودين وصاح به :

« ماذا ؟ »

اجاب : « لقد حضرت ياسيدى »

فقال سارودين :

« آه ! نعم سمعت »

وأدار لحظة في الغرفة مضطربا وأوجس خيفة وقال لنفسه .
« أتراها ليذا مستحيل ! »

فالتفتت عين فلوتشين وكأنما استجد جسمه الصغير الضعيف في ثيابة
الواسعة البيضاء حيوته المفقودة فقال وهو يضحك :

« حسن أسعد الله نهارك . أراك لا تزال على عهدك القديم ها ها ! »

فابتسم سارودين وهو قلق وماشى زائرته إلى الباب :

ولما عاد سارودين قال لرفقائه :

« والآن يا سادة . كيف يجرى اللعب ؟ خذ (البنك) غنى يا تاناروف

إذا سمحت . وسأعود اليكم عاجلا »

وكان يتكلم بسرعة وعيناه قلقتان .

فنبحه مالىنوسكى وكان قد سكر .

« وهذا كذب ! لا بد أن نشع من النظر سيدتك الصغيرة هذه .. »

فأمسك تاناروف بكتفه ورده إلى كرسيه وعاد الباقون إلى أماكنهم حول

المنضدة وهم لا ينظرون إلى سارودين وجلس سائين كذلك ولكن ابتسامته

كان فيها شيء من الجدة وكان قد أدرك أن ليذا هى التى جاءت وخالجه إحساس

غامض بالغيرة والمرثية لأخته الحميلة التى صارت الآن فى كرب شديد .

(١٧)

جلست ليذا على سرير سارودين يائسة تلوى المندبل لى الاضطراب فلما

دخل عليها لحظ تغير منظرها وحؤول هيئتها - فباقى شيء من تلك الفتاة المزهوة

الشامخة الرأس العالية الروح - ورأى أمامه امرأة محزونة حطمتها الأسى

وأغار من خديها وأخمد لمعة عينها . فحدقته هاتان العينان السوداوان ثم

ما عتمتا أن جانبته فأدرك بغريزته أن ليذا نخشاه وفاجأة بذلك غيظ شديد

فرد الباب بعنف ومضى إليها . وقال وهولا يكاد يغالب جملاح رغبة أن يضربها :

« إنك حتمية عجيبة جدا ! هاذا أنا هنا في غرفة غاصة بالناس وفي جملتهم أخوك . أما كان يسمعك أن تتخبري وقتنا آخر للمجيء ؟ أن هذا مشير حقا . »

فانطلقت اليه من العيين السوداوين نظرة تداعي لها سارودين فتغيرت لهجته وابتسم وكشف عن أسنانه البيضاء وتناول يد ليدا وجلس إلى جانبها على السرير وقال :

« حسن حسن . أن الأمر غير مهم . وإنما كان قلقي وإشفاقي عليك ولقد سرني أنك جئت فقد كنت مشتاقا لرؤيتك »

ورفع سارودين يدها الحارة المعطرة الى شفتيه وقبلها مما يلي القفاز فسألته :

« أتقول حقا ؟ »

فأدهشته غرابة لهجتها . ثم نظرت اليه مرة أخرى وقالت له عيناها بأصرح ما تنطقان :

« أصبح أنك تخبي ؟ أنك ترى مبلغ شقوتي الآن . وكيف إن لم أعد في شيء مما كنت . وإني لأخافك وأشعر بكل ما في حالي من الذلة والمهانة ولكنه ليس لي معين سواك »

فأجابها سارودين :

« كيف يخامرك الشك في صدق ما أقول ؟ »

ولكن صوته خلا من رنة الإخلاص بل لقد كان باردا جافا . وتناول يدها مرة أخرى ولثمها وأحس أنه عالق بشبكة عجيبة من الأحساسات والخواطر — منذ يومين فقط على هذه الوسادة بعينها كانت نحصل شعرها متهدلة وهو يطوقها بذراعيه وشقاها ملتقية في قبلة عن أحر عاطفة وأجمعها ، وفي تلك اللحظة خيل اليه أن كل

ما استمتع به من النساء الآخر قد تحقق وأنه بلغ مؤله . من الإساءة الى هذه المرأة التي جعلتها العاطفة درج يديه إساءة وحشية متممة والآن شعر لها فجأة بالوقت . وود لو استطاع أن يدفعها عنه وأن لا يراها أو يسمع صوتها بعد ذلك . وبلغ من قوة هذه الرغبة وطغيانها أن الجلوس الى جانبها صار مؤيلاً له . على أنه نازعه خوف مبهم منها فسلبه ذلك إرادته واضطره الى البقاء بجانبها . وكان يدرك أتم إدراك أنه ليس ثم ما يربطه بها وأنه ما نال منها شيئاً إلا برضاها دون أن بعدها شيئاً فكان كلا منهما قد أخذ كما أعطى بيد أنه مع ذلك أحس كأنما لصق بمادة لزجة لم يقو على التخلص منها وتوقع أن تطالبه ليذا بشيء وأنه سيكون بين أمرين : أن يوافق ويقرها على ماتدعى أو أن يأتي عملاً حقيراً ذليلاً . وأحس أن كل قوة له مسترقة كأنما نزعت عظام رجله وذراعيه وكأنما صار لسانه الذي في فيه خرقه بميلولة . وأراد أن يصيح في وجهها وأن يفهمها صراحة أن ليس لها حق ما في مطالبتها بشيء ولكن قعده به عن ذلك الخوف والجبن وندت الى لسانه عبارة فارغة كان يعلم أنها لا محل لها على الإطلاق

« آه . المرأة . المرأة . »

فنظرت اليه ليذا مستفظة وكأنما أضاء لذهنها بارق فأدركت في لحظة أنها فقدت كل شيء وأن كل مامنحت من طهرها وشرفها إنما منحت رجلاً ليس له وجود وأن حياتها وصباها وطهرها وكبرها قد ألقت بها جميعاً عند قدمي يميم جبان نذل لم يشعر لها بالشكران على ما بذلت له بعد أن لو أنها فهمت أن تلطم كفا بكف وأن تسقط على الأرض بأساً وألماً غير أن الرغبة في الانتقام المنبعثة عن مرارة البغض حلت محل ذلك الشعور بسرعة البرق فقالت وأسنانها مطبقة وعينيها محدة به :

« ألا تعلم أنك غاية في الغباء والسخف . ؟ »

فجاءت فحة هذه الألفاظ ونظرة الحقد التي لا تلتئم ليذا اللينة السمحة —
صدمة لسارودين تراجع لها ولم يكذب يفهم مدلولها. وحاول أن يمزح
ويضيع أثرها بالفكاهة وقال وهو مستنرب مغيط :
« أى ألفاظ هذه ؟ »

فردت ليذا عمرارة وخبطت كفا بكف
« لست في حالة تسمح لي بانتقاء الألفاظ »
فقطب سارودين وسألها :

« لماذا كل هذه السبات الحزينة ؟ »

وأستهواه وهو لا يشعر جمال شكلها فجعل ينظر الى كتفها الرقيقتين
وذراعيها البديعتي التكوين وأشعرته إيماءات اليأس والضعف النمة بقوة
فكأنما هما في كنفتي ميران اذا شالت إحداها رجحت الأخرى ووجد سارودين
لذة قاسية لعلمه أن هذه الفتاة التي كان يعدها أسى منه قد صارت متعذبة
من أجله وكان في العهد الأول من علاقتهما يخافها فسرره الآن أنها هوت الى
حضيض العار :

فلان لها وتناول في رفق يديها الضعيفتين وجذبها اليه وتنهت مشاعره
وصار نفسه سريعا وقال :

لا تراعى . سينصلح الأمر فبه شيء فطيع بعد كل ما يقال .
فأجابته باحتقار :

« أو تظن ذلك ؟ »

وساعدها الاحتقار على أن تثوب اليها نفسها وقوتها فحدجته بنظرة غريبة
العنف

فقال سارودين وهو يحاول أن يضمها اليه ضمة يعلم أن لها سمحرا
نعم بلا شك اظن ذلك .

غير أنها ظلت باردة جامدة فقال بلهجة العائب المترفق :

« تعالى تعالى . ما بالك نافرة . يا حبيبي . »

فصاحت به ليذا وهي تدفعه عنها .

« دعنى ! أقول لك دعنى ! »

فتألم سارودين وحز في نفسه أن عوطفه هاجت عبثاً وحدثت نفسه « إن المرأة هى الشيطان بعينه » وسألها وقد حرج صدره واحمر وجهه « ماخطبك ؟ »

وكأنما أطاف سؤاله بذهنها ذكرى فسترت وجهها بكلتا يديها وبكت بكاء الفلاحات الساذجات وأءولت ووجهها مدفون فى راحتها وجسمها منحني وشعرها متهدل على محياها الليل المتهمم فأسقط فى يد سارودين ولم يسعه الابتسام. وإن كان على هذا خشى أن يسوءها ابتسامه وحاول أن ينحى كفيها عن وجهها فقاومته مقاومة عنيدة وظلت تبكى

فقال « ياألهى ، » ونازعتة نفسه أن يصيح بها وأن ينزع كفيها وأن يسبها ويشتمها وقال لها بخشونة :

« لماذا تبكين ؟ لقد خطئت معنى وهذا من سوء الحظ ولاحيلة الآن ، فلماذا كل هذه الدموع اليوم ؟ أمسكى بالله ، »

وأمسك بإحدى يديها فاهتز رأسها يميناً ويسرة فكفت عن البكاء بغتة ونحت كفيها عن وجهها المبال بالدمع ورفعت عينها إليه كما يرفعها الطفل الخائف وطاف بذهنها بمثل سرعة البرق أن فى وسع من شاء أن ياطمها الآن ولكن سارودين الآن من شدته وقال بصوت المواسي :

« اسمعى يااليدوتشكا ، كفى عن البكاء ، إنك ملومة مثلى ، فلماذا تحدثين ضجة ؟ لقد خسرت الكثير ولاشك وإنى لأعلم ذلك ولكننا نلنا حظاً كبيراً أليس كذلك ؟ ويجب علينا أن ننسى ... »

فانطلقت ليبدأ تبكى سن جديد فصاح :

(آوه ، أمسكى عن هذا ،)

ثم مشى الى آخر الغرفة وجعل يشد شعر شاربيه بعنف وشفتاه ترجفان وصارت الغرفة ساكنة . وحط طائر على أغصان شجرة مما يلي النافذة

فاهتزت في رفق وحاول سارودين أن يكبح جماح غضبه فدنا من ليدا وطوق نحصرها بذراعه ولكنها أفلتت منه بسرعة وضربته بجمع يدها على ذقنه ضربة اصطكت لها أسنانه فصاح مغضباً :

« إلى الشيطان بها ! » .

وآلمته الضربة وغازله صوت أسنانه المصطكة أكثر مما ألم للطمه .

ولم تسمع ليدا قوله هذا ولكنها أدركت بفطرتها أن موقف سارودين مضحك فانهزت هذه الفرصة بكل ما أوتيت المرأة من قسوة وقالت تحاكبه .

« أى ألفاظ هذه ؟ » .

فأجابها مغيظاً :

« أن هذا يكفي لاستفزاز أى أنسان ! » .

ثم عاد فقال :

« لو أنى عرفت ما خطبك ! » .

فقالت ليدا بلهجة جارحة مرة :

« أتريد أن تقول إنك مازلت تجهل ؟ » .

وصمتا برهة . وجعلت ليدا تنظر إليه شزراً ووجهها أحمر كالنار فامتقع سارودين كأنما انسدل على وجهه نقاب أصفر ثم صرخت به صرخة المتشنج حتى لأفزعها صوتها :

« مالك صامتاً ؟ لماذا لا تنطق ؟ تكلم قل شيئاً تعزيني به ! » .

أجاب « أنا ... » .

وارتحفت شفته السفلى .

فصرخت مرة أخرى ودموع الحنق واليأس تكاد تخفقها :

« نعم أنت — ولا أحد سواك ! » .

وسقط عنه كما سقط عنها نقاب الأدب والحاملة وظهر الوحش الشارد الجامح في عيونهما كليهما .

وطافت برأس سارودين خواطر كالجردان والقيعان ... وخطر له أولاً
أن ينقدها مالا وأن يقنعها بالتخلص من الحنين ررأى أن لا بد له من بت
كل صلة بها وبذلك ينتهى الأمر غير أنه لم يقل شيئاً وإن كان يرى أن هذه
خير وسيلة وتتم :

« لم يخطر لي قط ... » .

فصرخت ليذا كالحجونة :

« لم يخطر لك قط ! لماذا لم يخطر لك ؟ بأى حق لم تفكر ؟ » .

فقال والألفاظ تتعثر :

« ولكنى باليذا لم أقل لك أبداً إلى ... » .

وخاف أن يتم ما يريد فأمسك وفهمت ليذا مراده دون أن يصارحها
به فاسود وجهها ومسحه الاستفطاع واليأس وسقط ذراعاه إلى جانبيها
وهوت إلى السرير وقالت وكأنها تفكر بصوت عال :

« ماذا أصنع ؟ أغرق نفسى ؟ » .

أجاب « لا ! لا ! لا تقولى هذا ! » :

فرمته ليذا بنظرة قاسية وقالت :

« هل تدرى يا فيكتور سرجيفتش ؟ أى وثيقة أن هذا لا يحزنك أبداً » .

وكان فى عينها وعلى فيها الحميل المرتجف من الحزن والأسى مما جعل
سارودين يدير وجهه عنها .

ثم وقفت . وكانت تحسب فى أول الأمر - ويعزىها حسبانها هذا -
أنها ستجد فيه منقذاً لها وعوناً وأنها ستعيش معه أبداً . فالان كظها ما أهداه
إليها من خيبة الأمل بالوقت والتفرز منه وودت لو هزت له قبضة يدها
وبصمت احتقارها فى وجهه جزاء له على إذلالها وامتنانها ولكنها شعرت
أنها ستبكي قبل أن ينطلق لسانها بحرف وصدتها بقية من الكبر هى كل مابقى
من أيدا الجريئة الحميلة وقالت له وأسنانها مطبقة وفى لهجتها من الاحتقار
العميق ما أدهشها كما أدهشه :

« أيها الوحش ؟ » :

وانطلقت كالسهم خارجة من الغرفة وعلق كمها برتاج الباب فتمزق .
فاصطبع وجه سارودين بالحمرة إلى جذور شعره . ولو أنها قالت
« أيها الشقي » أو « أيها النذل » لاحتمل منها هذا في سكون ولكن لفظة
« الوحش » خشنة لا تتفق في رأيه مع شخصيته الساحرة . فأذهله ذلك واحمر
حتى يبايض عينيه فتاوى وهز كتفيه مضطرباً وزر جاكته ثم فك أزرارها
وهو على أتم ما يكون اضطرباً .

ولكنه ما عزم أن استشعر الارتياح الناجم عن الإحساس بالتخلص . فقد
قضى الأمر . على أنه غاظه أنه لن يظفر مرة أخرى بليدا وأنه خسر مثل
هذه الرفيقة الجميلة المشتهة . غير أنه نفي هذا الأسف بإعلاء احتقار .
« إلى الشيطان بهن جميعاً . إن في طوقى أن أنال ما أشاء من أشياء
منهن » .

وسوى جاكته وأشعل سيجارة وشفناه لا تزالان ترتجفان ثم استعاد
مألوف هيئته وكر إلى ضيوفه .

(١٨)

لم يعد أحد من المقامرين — ما خلا مالىنوسكى السكران — يلذ اللعب .
ولج بهم جميعاً حب الاستطلاع والرغبة في معرفة السيدة التى جاءت إلى
سارودين من عسى أن تكون . وأدرك بعضهم أنها ليذا وخالجهم لذلك
الغيرة وتصوروا جسمها الأبيض بين ذراعى سارودين .

وبعد برهة وقف سائين وقال :

« لن لعب أكثر مما لعبت . فإلى الملتقى » .

فسأله إيفانوف :

« تمهل يا صديقى . إلى أين ؟ » .

فأشار سائين إلى الباب الموصل وقال :

« سأذهب لأرى ما يجري هنا ! » .

فقال إيفانوف :

« لا تكن أحمق ! اجلس واشرب كأساً ! » .

فأجابه سانين وهو يخرج :

« إنك أنت الأحمق ! » .

ولما وصل سانين إلى منعطف تكثر فيه الأشواك النابتة نفخ المكان ليرى الموضع الذى تشرف عليه نافذة سارودين ثم مشى بحذر بين الأشواك وتسلق الحائط ولما بلغ قمته كاد ينسى لما إذا صعد لقرط ما بهره جمال المنظر وهو يطل من مرقبه على النجائل والحديقة الفيحاء — والنسيم الرقيق يسمح اعضاءه الحارة القوية ثم وثب عن الحائط إلى الناحية الأخرى بين الأشواك وجعل يدلك جسمه فى حيث شكته واجتاز الحديقة وبلغ النافذة حين كانت لبدا تقول :

« أتريد أن تقول أنك لا تزال تجهل ؟ » .

فأدرك من غرابة لهجتها حقيقة الأمر فاستند إلى الحائط وعينه إلى الحديقة وأرهف سمعه وأدركه العطف على أخته الحسنة التى لا تلاثم جمالها لفظة « الحبلى » الخشنة . ووقع من نفسه الاختلاف بين هذه الأصوات الآدمية الصاخبة والسكينة الرائعة التى كانت تجل الحديقة الزاهية .

وطارت فراشة بيضاء فوق الحشائش وقد انعشتها الشمس فضحت لها فجعل سانين يرقبها بمثل اهتمامه بالإصغاء .

ولما صاحبت لبدا « أيها الوحش ! » ضحك سانين جذلا وعاد ادراجه فى تناقل وإبطاء غير مكترث لمن يراه أو لا يراه .

وعدت أمامه سحلية فلبث برهة يرصد حركاتها السريعة وهى تزحف بجسمها الصغير الأخضر بين الحشائش الطويلة .

لم تعد ليدا إلى البيت بل حثت خطاها في طريق ينأى بها عنه وكانت الشوارع خالية والحر يأخذ بالخنق والظلال متقلصة إلى الحائط والسياح بعد أن هزمتها الشمس الظافرة وردتها ففتحت ليدا مظلتها بحكم العادة وقوتها ولم تلتفت إلى الحر أو البرد ولا إلى النور ولا الظلمة ولم تدر في أيها تسير فمضت مسرعة وتجاوزت الأسبجة المعفرة المكسوة بالاكلاء ورأسها مثنى وعينها إلى الأرض ولم تصادف في طريقها إلا نفرأ من الراجلين كاد يخنقهم الحر وفيما عدا ذلك كانت البلدة ساكنة كما تكون في القيلولة .

وكان قد تبعها جرو أبيض شم رداءها ثم انطلق يعدو أمامها يلتفت إليها ويصبص لها بذنبه كأنما يريد أن يقول لها أنهما زميلان مترافقان . ورأت ليدا عند منعطف الشارع صبيأ صغيرأ بدينأ مضحك الهيئة أطل قيصه من جاكيتته عند كتفه وخداه طويلان ملوثان بعصير بعض الفاكهة ويداه تعملان بقوة في منفاخ خشبي .

فأومات ليدا إلى الجرو وابتمت للصبي غير معتمدة شيئأ مما فعلت فقد كان روحها سجينأ وكانت تدفعها إلى الأمام قوة غامضة تفصل ما بينها وبين الدنيا وتجاوز بها ضوء الشمس والخضرة وكل ما في الحياة من مفارح ومتع وتسوقها إلى هاوية سحيقة مظلمة أشعرها الألم أنها منها قريبة .

ومر بها ضابط تعرفه على بجواده فلما أبصرها وقف وسألها بصوت طروب : « ليدا بتروفنا ! إلى أين في هذا القيظ » .

فارتفعت عينها بلا عمد إلى قبعته المشدودة إلى جيبنه الملوح الرطب ولم تتكلم ولكنها منحته ابتسامة الدلال المألوفة وجعلت تردد سؤاله « إلى أين ؟ » وهي تجهل ما عسى أن يقع لها .

وزايلها غضبها على سارودين ولم تكده تفهم لماذا قصدت إليه فقد كان يخيّل أن من المستحيل أن تحيا بدونه أو أن تحتل حزنها وحدها . أما الآن

فكأنما اختفى وغاب ولم يعد له وجود في حياتها ومات الماضي ولم يبق إلا ما يعينها وحدها وهذا ما يسمعها أن تبت فيه دون أن ترجع في ذلك إلى أحد. وكان ذهنها يفكر بسرعة المحموم غير أن خواطرها كانت على هذا واضحة جلية . ولكن أهول ما كان يهولها هو أن ليسدا الجميلة المزهرة ستذهب وتخلف وراءها مخلوقاً شقياً مضطهداً ماطخاً ضعيف الحول .. كلا ! لا بد أن تبقى النفس المزهرة والوجه الجميل .. وإذن لا بد لها أن تمضي .. إلى حيث لا تعلق بها الأرواح .

ولما تقرر هذا في ذهنها أحست كأنما أحاط بها فراغ وغابت الحياة والشمس والناس وصارت مستفردة بينهم كل الاستفراد .. ألا لا مفر ! لا معدي لها عن الموت ! يجب أن تغرق نفسها . وما عتمت أن استولت عليها هذه النية واستغرقتها هاته الفكرة فبدأ لها كأن سوراً من الحجر التفت بها وحجبها عن كل ما كان وكل ما عسى أن يكون .

وقالت : « ما أبسط هذا في الحقيقة ! » .

ودارت بعينها ولم تر شيئاً ..

وصارت خطاها أسرع . وأولاً سعة ثوبها لجرت فقد كانت تحس أن بطشها لا يطاق .

« هنا بيت وهنا آخر له نوافذ خضراء ثم هنالك الفضاء ! » .

والنهر والجسر ثم ما سيحدث . فلم تتمثل لها صورة واضحة لهذا ، فكأن ثم سحابة أو ضباباً يحجب كل شيء . غير أن هذه الحالة النفسية لم تدم إلا ريثما بلغت الجسر . ولما حنت على سور الجسر ترمق الماء المبرد زابتها ثقها بنفسها وتمسكها الخوف وإرادة الحياة وعاودتها إحساسها بكل شيء حتى وسكت سمعها الأصوات وتناغى الأطيوار ورأت نور الشمس والأزاهير في الرياض والجرو الأبيض يتطلع إليها تطلع من بعدها سيدته بلا مرء وكان مقعياً قبلتها يرفع لها كفوفه يضرب الأرض بذيله .

فُرنّت إليه ليدا واشتات أن تضمه على ساعديها إلى ثدييها واغرورت عينها وغلبها الأسى والأسف على حياتها الجميلة التي درست فمالت إلى السور وهي تكاد تفقد رشدها واتكأت على حافته الملتهبة فسقط لسرعة انحنائها أحد قفازيها في الماء فجعلت ترقب في فزع صامت هويه الساكن إلى صفحة الماء واندياح الدوائر فيها فرأت قفازها الأصفر يحاولك شيئا فشيئا ويملاه الماء وينقلب كأنما لواه ألم التزع ثم يهوى إلى اغوار النهر الخضراء فحددت أبدا نظرها لترى غوصه ولكن النقطة الصفراء لم تنزل تتضاءل حتى غابت ولم تعد تأخذ عينها إلا صفحة الماء المصقولة .

وأنها كذلك وإذا بصوت انثى على كتب منها يسألها : « كيف حدث هذا أيتها السيدة ؟ » .

ففزعّت مترجمة ورأت فلاحه ، فمرطحة الأنف ترمقها مستطلعة بعين عطوف ومع أن هذا العطف لم يكن المقصود به إلا القفاز المفقود إلا أن ليدا شعرت كأنما هذه الفلاحه السمينه الطيبة القلب تعرف كل شيء وترثي لها فهمت أن تقص عليها خبرها وأن ترفه بذلك عن قلبها غير أنها نحت هذه الفكرة وطاردتها مستسخرقة إياها ، واحمر وجهها وتمتمت « لاشيء ! » وهي تتطرح مترابجة عن الجسر .

« هنا ! مستحيل ، لو أغرقت نفسى هنا لأنقذونى » .

وسارت مسافة أخرى على شاطئ النهر متوخية طريقا ممهدا إلى اليسار بين النهر والحقول وعلى جانبيه الأشواك والأزهار وأشجار الصفصاف منحية إلى النهر وكان الشاطئ المنحدر مكسوا بالخضرة ومغمورا بنور الشمس والنباتات ترنح نواراتها الزجة فوق الأكلاء والأشواك التي علقت بأهداب ليدا ، ولست وهي سائرة نبانا هائجا فانثرت فوقها حياته البيضاء .

وكانت ليدا تدفع نفسها دفعا وتغالب القوة التي تحاول أن تثنيها وتقول وتكرر « لا بد من ذلك ! لا بد منه ! » وهي تجر نفسها وكان

رجلها أنبت ما بينهما لما نأت عن الحسر ودنت من الموضع التي اعتزمت أن تنهى إليه .

ولما بلغت الماء الأسود البارد في ظل الاغصان المهداة والتيار يندفع ويزخر عند زاوية نائثة من الشاطئ أدركت لأول مرة كيف شوقها إلى الحياة وفزعها من الموت ولكنه لم يكن لها مفر من الموت إذ كان البقاء مستحيلا . فرمت بقفازاها الثاني ومظلتها دون أن تنظر حولها وعاجت عن الطريق ومالت إلى النهر بين الحشائش ومر بذهنها في تلك الهنيئة ألف خاطر وتنبه لإيمانها من أعمق أعماق روحها حيث ظل راقداً فجعلت تردد هذه الصلاة : « رب انقذني ! رب ساعدني » . وما أتمها حتى ذكرت من حيث لا تحتسب قطعة من انشودة كانت تدرسها في الأيام الأخيرة فارتد ذهنها إلى سارودين ثم بدا لها وجه أمها وزاد حبها لها في تلك الآونة . فلم يشها ذلك بل زاد عزمها مضاء فاندفعت تعدو إلى النهر ولم تكن ليذا تدرك حتى الساعة أن أمها وسائر من يحبونها إنما يحبون منها ذلك الذي يودون أن تكونه لا ليذا على حقيقتها وبكل عيوبها ونقائصها وشهواتها . فالآن وقد حادت عن الطريق الذي لا يعدون غيره مستقيماً فإن هؤلاء الزامقين وأمها على وجه أخص سيقسون عليها بقدر حبهما لها .

ثم اختلط كل شيء في نظرها اختلاط الحلم في خيلة المحموم وتنازعها الخوف والشوق إلى الحياة والإحساس بالقدر المحتوم والإنكار والافتناع بأن الأمر قد قضى والأمل واليأس والشعور المفزع بأنها هاهنا ستموت ثم مثلت لعبينها صورة رجل شبيه بأخيها يشب بين الأكلاء إليها .

« لم يكن يسعلك أن تفعل أسخف من هذا ! » .

هكذا قال سانين وهو يلهث .

ومن عجيب الاتفاق أن ليذا كانت قد انقلبت إلى نفس الموضع الذي أمكنت فيه سارودين منها لأول مرة وهو موضع تحجبه الأشجار الضخمة عن ضوء القمر فرآها سانين وفطن إلى ما عقدت عليه نيتها فخطر

له بادية الرأى أن يدعها وشأنها ولكن حركاتها العصبية المضطربة حركت عطفه فتخطى مقاعد الحديقة وحواجزها وأسرع إلى إنقاذها .

فكان لصوت أخيها تأثير مفزع في نفسها فتداعت أعصابها بعد أن شدد الصراع الباطن ودارت بها الأرض وصار كل شيء يسبح أمام عينيها ولم تعد تدرى أنى الماء هي أم على الشاطئ . وكان سائين قد أمسك بها ولما يكده وتراجع عن الماء وقد سرته قوته ومهارته وقال : « هذا أنت ! » وأجلسها إلى سياج الحديقة وأدار عينه فيما حوله وهو يقول لنفسه « ماذا أصنع لها ؟ » .

وثابت إلى ليدا روحها في هذه اللحظة وشرعت تبكى بكاء ألياً وهي مصفرة مضطربة وتقول وهي تعول كالطفل : « يا إلهى ! يا إلهى ! » : فقال سائين ناهراً في رفق : « سخافة مطبقة ! » .

ولم تسمعه ليدا ولكنها لما أخذ يتحرك تعلقته بذراعه وزاد عويلها ثم قالت لنفسها خائفة :

« آه ! ماذا أنا صانعة ؟ لا ينبغي لى أن أبكى . يجب أن أضحك وإلا فطن إلى الأمر » . فسألها سائين وربت كتفها بخنان :

« مالك مضطربة ؟ » . فرفعت إليه طرفها تحت القبة وبها مثل حياء الطفل وكفت عن البكاء . فقال سائين : « إني أعرف كل شيء . القصة كلها . أعرفها من زمن مديد » .

وكانت ليدا تعلم أن أناساً كثيرين قد فطنوا إلى نوع علاقاتها مع سارودين ولكنها أحست لما قال سائين هذا كأنما لطمها على وجهها فتقبض جسمها الابن ونظرت إليه بعين غاض منها الدمع . فقال سائين وهو يضحك : « ماذا دهاك الآن ؟ إنك تنظرين إلى كأتى دست على قدمك » : ثم أمسك بكتفها المستديرتين المصقولتين فارتجفتا للمستته وردها في رفق إلى مجلسها الأول وهي مذعنة طائفة وقال : « تعالى ! ماذا يحزنك ؟ أهو

أنى أعلم كل شيء ؟ أم تحسبن خطيئتك مع سارودين من الفظاعة بحيث تخافين أن تقرى بها ؟ الحق أنى لا أفهمك ياليدا — إذا كان سارودين لا يريد أن يتزوجك — حسن . . هذا شيء يجب أن تحمدى الله عليه . لقد عرفت الآن — ولا بد أنك كنت تعرفين من قبل — أى حقير دنىء هو على الرغم من قسامته ومن صلاحه لمواقف العشق . إن كل ماله هو الوسامة وأحسبك الآن أصبت منها كفايتك .

فقلت ولسانها يتعثر : « لقد أصاب هو كفايته منى . . لا أنا منه ! آه ! ربما كنت قد أصبت كفايتى ! آه ! يا إلهى ماذا أصنع ؟ » فقال سانين : « والآن أنت حبلى . . . »

فأنغمضت ليدا عينها وأطرقت . فمضى سانين فى كلامه مترققاً :

« لا شك أن هذا أمر سيء . فالوضع — أولاً — عمل ثقيل مؤلم والناس ثانياً وهو المهم — قد يضطهدونك . على أنك ياليدو تشكا لم تسيء إلى أحد واو أنك جئت إلى هذه الدنيا بعشرة أطفال لما أضرب هذا بأحد سواك . »

وأمسك سانين ليفكر وطوى ذراعيه على صدره وجعل بعض أطراف شاربه وقال : « وفى وسعى أن أشير عليك بما ينبغى لك أن تصنعى وإمكانك أضعف وأسخف من أن تعملى برأى . إنك أجبن من ذلك ! ومهما يكن من الأمر فالمسألة لا تستحق أن تنتحرى من جرائها . انظرى إلى الشمس المشرقة وإلى النهر المتحدر الساكن واذكرى أنك إذا مت عرف كل إنسان ماذا أماتك فأنى خير لك فى هذا ؟ إنك لا تريد الموت من أجل أنك حبلى بل من أجل أنك تخافين ما سيقوله الناس . فشر ما فى مصيبتك ليس فى المصيبة نفسها بل فى أنك تضعينها بينك وبين حياتك التى ترين أنها يجب أن تنتهى . ولكن هذا فى الحقيقة لن يغير من الحياة شيئاً . إنك لا تخافين البعداء بل القريين منك ولا سيما من يحبونك ويعدون بذلك نفسك إحدى الكبر لأن البذل كان فى غابة أو مرج لا فى سرير شرعى . وهؤلاء لن

يتكثروا في عقابك على زلتك فأى خير فى هؤلاء لك ؟ إنهم قوم أغبياء غلاظ
القلوب فارغو الرءوس . ولماذا تموتين من أجل قوم أغبياء غلاظ القلوب
فارغى الرءوس ؟ » .

فسألته بصوت أجش : « ولسكن ماذا ينبغي أن أصنع ؟ خبرنى
ماذا . . . ماذا . . . ؟ » .

فقال سائين : « أمامك طريقان . أن تتخلصى من هذا الطفل الذى
لا يريد أحد والذى لا يفيدك ميلاده إلا المتاعب كما لا بد أن تعرفى » .
« أعربت عينا ليذا عن الاستفطاع وعاد سائين إلى الكلام فقال :
« من الظلم الشديد أن يقتل المرء مخلوقاً يقدر لذة الحياة ويعرف هول
الموت . ولكن جرثومة . . . كتلة جامدة من اللحم والدم . . . » .

فوجدت ليذا إحساساً عجيباً . وشعرت فى أول الأمر بالعار حتى لكانها
نضت عنها ثيابها جميعاً وراحت أصابع وحشية تجسها وتلمسها . ولم تجرؤ
أن تنظر إلى أخيها وخشيت أن يمينهما العار كليهما . ولكن عيني سائين
السوداوين كانتا ساكنتين وكان صوته متزناً هادئاً كأنما يحدثها عن أمور
مألوفة . وهذه القوة المادئة وعنى الصواب هما اللذان أزالا خجل ليذا
وخوفها غير أنها ما لبثت أن غلبها اليأس فأمسكت يمينها وجمعت أطراف
ثوبها الرقيق تخفق كجناحي الطائر الفزع وقالت :

« لا أستطيع . كلا . لا أستطيع ! أحسبك مصيباً ولكن لا أستطيع !
إن هذا فظيع ! » .

فقال سائين وهو يركع وينحى كفيها فى رفق عن وجهها :

« حسن حسن . إذا لم تستطعى هذا فلا بد لنا أن نحتال على إخفائه على
نحو ما . وسأرى لى رأياً فى جمل سارودين على الخروج من البلدة :
وأنت - حسن - ستزوجين نوفيكونوف وتسعدين . إنى أعرف أنك كنت
حقيقة أن تقبلى نوفيكونوف لولا أن لاقيت هذا الضابط الأحمق ! إنى على
يقين من هذا » .

فلما ذكر اسم نوفيكونف بدا لليدا النور في الظلمة وخيل إليها لحظة أن من السهل إصلاح ما فسد لأن سارودين أشقاها وهي مقتنعة أن نوفيكونف لم يكن ليصنع بها ما صنع ذاك . ولم يبق عليها إلا أن تنهض لتوتها وأن تعود وأن تقول كلمة أو اثنتين لتعود الحياة وضيئة الجمال . وستجيا مرة أخرى وتجب ثانية .

ولكن حياتها في هذه المرة ستكون خيراً وحبها أعمق وأظهر بيد أن هذا الحلم لم يطل فذكرت أن هذا مستحيل وأن الحب السخيف الحقيق قد لوثها وهوى بها .

وخطرت ببالها كلمة خشنة لم تكن تدرى أنها تعرفها ولم تنطق بها قط ففجعت بها نفسها فكأنما لكمها لاكم على أذنيها وصاحت :
« ويحيى . هل صرت حقاً . . ؟ نعم نعم لا شك » .
ثم تمتمت وقد أخرجها رنين صوتها : « ماذا قلت ؟ »
فسألها سانين : « حسن علام عولت ؟ » .

ونظر إلى شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق في ضوء الشمس النافذ إليه من خلال الأوراق . وتملكه الخوف من أن يعجز عن إقناعها وأشفق أن تغيب في فراغ الموت المظلم هذه المرأة الجميلة التي خلقت لتنشر السرور والغبطة وكانت ليدا صامئة تعالج أن تصرع رغبته في الحياة وكانت هذه الرغبة قد طغت بها على رغم إرادتها واستولت على كيائها المرتعد . وحسبت أن من العار بعد الذي جرى لا أن تعيش فقط بل أن ترغب في الحياة . غير أن جسمها القوى المملوء حيوية رفض هذه الفكرة المسوخة كأنها الدم الزعاف .

وسألها سانين : « مالك صامئة ! » .

قالت : لأن هذا مستحيل . إنه يكون دناءة ! إلى .. » .

فقال سانين وقد نقد صبره : « لا تنطقى بهذه السخافة ! » .

فرفعت ليذا طرفها إليه مرة أخرى وفي عينيها المغرورتين بارقة أمل .
وكسر سانين غصنا صغيرا عضه ثم ألقى به وقال :

« دناءة ! إن ألفاظى تذهلك . ولكن لماذا ؟ إن المسألة لا يسعنى لا أنا ولا أنت أن نجيب عنها جوابا صحيحا . جريمة ؟ ما هى الجريمة ؟ إذا تعرضت حياة الأم للخطر وهى تضع طفلا وأميت هذا الطفل الحى لتنجو أمه لم يعد الناس هذا العمل جريمة بل ضرورة منحوسة ! فلما أن نقضى على شىء لم يوجد بعد فهذا جرم شنيع ! نعم جرم شنيع حتى ولو كانت حياة الأم بل سعادتها وهى أكبر من حياتها رهن بذلك ! لماذا يكون هذا هكذا ؟ لا يدبرى أحد ! واكن كل امرئ يذهب إلى هذا ويصبح مرحى ! » وضحك سانين ساخرأ « ويحكم معاشر الرجال يخلقون لأنفسهم خيالات وأشباهاً وأوهاما هم أول من يروح فريستها . على أنهم يقولون إن الإنسان أشرف الكائنات وأعلاها وأنه تاج الخليقة وماكها وأراه ملكا لم يحكم قط . ملكا معذبا يفزعه ظله ! » .

وأمسك سانين هنية ثم عاد يتكلم :

« على أن هذا ليس بسبيلنا الساعة . تقولين إن هذا يكون عملا دنيئاً . لا أدرى . لعل الأمر كما تقولين . وأحسب أن لو سمع نوفيكوف بما أنت فيه لأمضه جلدأ وأحزنه . وربما قتل نفسه على أنه مع ذلك سيحبك كما أحبك من قبل . ولئن قتل نفسه ليكونن هو الملموم . أما إذا كان لبيبا ذكيا فأخلق به أن لا يكثرث اكونك (معذرة من هذه العبارات) ضاجعت سواه فإن جسمك لم يفقد شيئا بذلك — لا ولا روحك . وباعجبا له ! أما يمكن أن يتزوج أرملة مثلا ؟ إذن فليس هذا بالذى يمنعه أن يتزوجك وإنما تمنعه — إذا ممنعه — آراؤه المشوشة المختلطة التى حشى بها رأسه وأما أنت ياليدا فلو أنه كان ممكنا أن لا يحب الآدمى إلا مرة فى حياته كلها لكانت معاودة الحب

عبثاً لا يسرو ولكن هذا ليس هكذا . والحب متعة مشتهاة دائماً وستألفين
نوفيكوف وتجبيته فإذا لم تفعل رحلنا معا باليد وتشكنا ، إن المرء يستطيع أن
يعيش حياً اتفق أليس كذلك ؟ »

فتنهدت ليذا وحاولت أن تغلب ترددها وتمتعت :

« ربما . . . صلحت الأمور . . . نوفيكوف . . . طيب رقيق القلب . . .
وجميل أيضاً أليس كذلك ؟ نعم . . . لا . . . لا أدري ماذا أقول . . . »

فقال سانين « ولو كنت أغرقت نفسك .. ماذا إذن ؟ ان قوى الخير والشر
ما كانت لتكسب أو تخسر بذلك وكل ما كان يحدث هو إن جثتك المشوهة
المسوخة الملطخة بالالوحال كانت تطفو وتجر إلى الارض وتدفن . هذا كل
ما كان يحدث . »

فتصورت ليذا الماء المربد والأوحال والأعشاب والفقايع سابحة حولها
وقالت واصفرت : كلا . كلا . ابداً . اهون من ذلك ان احتمل كل عار . .
ونوفيكوف . . كل شيء .. « أى شيء سوى هذا » .

فقال سانين ضاحكاً : « انظري كيف تفزعين » .

فابتسمت ليذا بين دموعها وعزتها ابتسامتها وقالت بقوة :

« مهما يكن ما يحدث فلننى مصممة على الحياة » .

فصاح سانين ووثب :

« حسن إنه ليس أفظع من فكرة الموت وما دام المرء يستطيع أن يحتمل
العبء وأن لا يفقد إحساسه بمناظر الحياة واصواتها فايحى . ألسنت حلى صواب؟
والان ناولينى يدك . »

فمدت إليه ليذا يدها شاكرة

وقال سانين : « هذا حسن . . . ما أحلى يدك وأجملها » .

فابتسمت ليذا ولم تقل شيئاً .

ولم يذهب كلام سانين سدى فقد كانت ليذا قوية الحيوية زخاريتها وكانت

الأزمة التي مرت بها قد وترت أعصابها إلى أقصى حد فلو زاد الضغط لتمزقت ولكن الضغط لم يزد وعاد كيائها يتجاوب بالرغبة في الحياة زاخرة قوية . فنظرت فوقها وحولها وهي ثملة وأحست السرور تنبض به كل بجاجة وكل شيء أحسته في ضوء الشمس وفي المروج الخضراء وفي النهر المؤتلق وفي وجه أخيها الساكن الابتسم وفي نفسها فكأنما كانت ترى ذلك وتسمعه لأول مرة وصاح بها صوت طروب من أعماق صدرها « الحياة . الحياة » .

وقال سائين : « حسن سأكون عونك في متاعبك وظهيرك وساعدك في معاركك . والآن لما كنت فتانة الجبال فهاتي قبلة » .

فابتسمت ليبدأ ابتسامته عرائس الغاب ولف سائين ذراعيه حول خصرها وضمها فاهتز جسمها الحار اللين للمسته وهصرها وعانقها عناقا حاراً وشاع في نفسها السرور وحنّت إلى الحياة الرجبية القوية ولم تك تكترث لما تصنع فطوقت عنق أخيها بكلمات ذراعيها في بطء وزمت شفيتها لتتلقى قبلته وعيناها مفتوحتان كمنمضتين .

وأحست سعادة لا تلدائها سعادة بين ذراعي سائين ونسيت في هذه اللحظة من يقبها أهواؤها أو أجنبي منها مثل ازهرة تدفئ الشمس ولا تسأل من أين كل هذه الحرارة .

ثم قالت منبطرة : « ماذا جرى آه ! نعم ! لقد أردت أن اغرق نفسي .. ما أحقني ! ولماذا ؟ آوه إن هذا جميل ! هات أخرى وأخرى . والآن سأقبلك أنا : ما أحلى هذا ! ولن أكرّث لما يحدث مادمت أحياء » .

فقال سائين وأطلقها : « هذا أنت فانظري إن كل شيء حسن في الدنيا حسن ولا ينبغي لنا أن نخيله قبيحاً ونمسخه » .

فابتسمت ليبدأ ابتسامته المفكرور تبت شعرها وسوته وناولها سائين المظلة والقفاز فأدهشها في أول الأمر أن قفازها الثاني لا وجود له ولكنها لم تلبث أن ذكرت السبب وأضحكها اهتمامها العظيم بذلك الحادث لما وقع وقالت : « حسن حسن لقد مضى هذا وانتفضى » .

وسارت مع أخيها على شاطئ النهر وأرسلت الشمس أشعتها القوية على صدرها الناضج المكتنز .

٢٠

لما افتتح نوفيكونوف الباب بيده لسانين لم تكن لحنته تدل على الارتياح إلى هذه الزيارة لأن كل ما يذكره ليدنا وحلمه المنتسخ كان يحرك آلامه .

ولاحظ سانين هذا ودخل الغرفة بيتسم وكان كل ما فيها مبعثر على غير نظام كأنما ثارت به زوبعة وكانت الأرض مغطاة بالأوراق والقش وغير ذلك . والسرير والكراسي عليها الكتب والثياب وأدوات الجراحة وحقيقية . فسأله سانين مستغربا : « أمسافر أنت ؟ وإلى أين ؟ » .

فتحاشى نوفيكونوف نظرة سانين ومضى في جمع أشياءه وهو مرتبك مغبط لارتبأكه ثم قال أخيراً :

« نعم . لا بد لي من مغادرة هذا المكان . فقد أمرت بذلك رسمياً . »
فنظر إليه سانين ثم إلى الحقيبة . وبعد نظرة أخرى انبسطت أسارير وجهه عن ابتسامة وكان نوفيكونوف صامتا يحتم على صدره إحساسه بالوحدة وحزنه العميق وشرع - وهو غارق في خواطره - يلف حذاءين مع بعض الأنايب الزجاجية . فقال سانين : « إذا كنت تحزم أمتعتك على هذه الطريقة فستصل إلى حيث تقصد بدون الأنايب أو بدون الحذاءين » .
فأرسلت عين نوفيكونوف المغروقة ردها وقالت : « آه ! دعني . أما ترى كيف حزني وألمي ؟ » .

ففهم سانين هذا الرد الصامت . وسكت .

وكان الأصيل قد جاء وصارت السماء صافية كالبلور ثم قال سانين :
« أظن أن الأرشد لك والأولى بك بدلا أن تذهب إلى حيث لا يدري إلا الشيطان - أن تتزوج ليدنا » .

فاستدار نوفيكونوف وهو يرجف وقال : « لا يسعني إلا أن أطلب إليك أن تكف عن هذا المزاح السخيف » .

قال ذلك بصوت عال شديد فرن صدهاء وتجاوبت به الحديقة الحاملة
فسأله سائين : « لماذا هذا الغضب ؟ » .

فأجاب نوفيكونوف بصوت مخنوق : « اسمع ؟ » .
وكان في عينه وعلى وجهه من الغضب ما جعل سائين ينكره ولا يعرفه
على أنه مع ذلك سأله ضاحكا :
« أتريد أن تقول إنه لا يكون من حسن حظك أن تتزوج ليدا ؟ » .
فصاح به نوفيكونوف « اخرس : » .

وتطرح إليه وفي يده حذاء قديم يابوح به فوق رأس سائين . فقال
سائين بعنف وهو يتراجع : « تمهل ! لا تغضب أجنون أنت ؟ » .
فرمى نوفيكونوف الحذاء ساخطاً وأسرع أنفاسه وعاد سائين يتكلم فقال :
« لقد هممت فعلا بهذا الحذاء أن .. »

وأمسك وهز رأسه ورثى لصديقي وإن كان قد استخف سلوكه هذا
فقال نوفيكونوف وهو مرتباك : « إن هذا خطأك »
ثم شاعت في نفسه الثقة بسائين والاطمئنان إلى قوته وسكونه وكان هو
كالتلميذ الصغير يود أوقال بشجوه لئلا موافق وجمال الدمع في عينيه وقال
وهو يغالب عواطفه : « لو أنك عرفت كيف ينفطر قلبي ؟ ... » . فقال سائين
بعطف :

« يا صديقي العزيز إنني أعرف كل شيء » فأجابه نوفيكونوف وجلس إلى
جانبه « كلا : إنك لا تستطيع أن تعرف كل شيء » .

وأحس أنه ما من أحد به مثل حزنه وكده فقال سائين :
« نعم نعم أعرف . واقسم على ذلك . وإذا وعدت أن لا تحمل على مرة
أخرى بجذائك التديم هذا أثبت لك ما أتول . فهل تعلمني ؟ » . أجاب « نعم
سامحني يا فولودكا ! »

وسمى سائين أول أسماؤه وهو ما لم يفعله من قبل فتأثر سائين وزادت
رغبته مساعدة صديقه فقال ووضع يده على ركبة نوفيكونوف :

« إذن فاسمع ولنكن صريحين . إنك مسافر لأن ليدا رفضت أن تزوجك ولأنك لما كنا عند سارودين طننت أنها هي التي جاءت إليه سرّاً . فأتى نوفيكون ولم يسمع الكلام لفرط حزنه وكأنما نكأ سائين جرحاً رجيعاً ولاحظ سائين اضطراب صاحبه فقال لنفسه « يالك من أبله طيب القلب : » ثم استأنف الكلام :

« أما من حيث العلاقات بين ليدا وسارودين فلا أستطيع أن أجزم بشيء لأنى لا أعرف شيئاً ولكنى لا أعتقد .. » .

ولم يتم الجملة لما رآه من اسوداد وجه صاحبه ثم عاد فقال :
« إن علاقتهما من حداثة العهد بحيث لا يمكن أن يكون قد حدث شيء خطير لاسيما إذا اعتبرنا أخلاق ليدا . وأنت بالضرورة تعرف كيف أخلاق ليدا » .

فثلث لعين نوفيكون صورة ليدا كما عرفها وأحبها - ليدا المزهوة العالية الروح المؤتلفة العين وعليها من الجمال الناضج أكليل وضياء فأغمض عينيه واستراح إلى كلام سائين الذى عاد فقال :

« وهبهما تعابثاً قليلاً فقد مضى هذا وانقضى الآن . وعلى أنه ماذا يهمك إذا كانت فتاة شابة مجنحة الخيال مثل ليدا قد تسلت قليلاً ؟ أحسبك بلا جهد كبير تستطيع أن تذكر على الأقل اثنتى عشرة حادثة خلعت فيها العذار وفعلت ما هو أخطر من هذا » .

فنظر نوفيكون إلى سائين نظرة الائق وخاف أن يتكلم لئلا تخبر بارة الأمل الوائبة الباقية ثم تتم :

« إنك تعرف أنى إذاً .. » : ووقف وخانته الألفاظ وخنقته العبرات فسأله سائين بصوت عال والتمعت عينه :

« إذاً ماذا ؟ إنى أستطيع أن أقول لك هذا . وهو أنه ليس بين ليدا وسارودين ولم يكن بينهما شيء » .

فنظر نوفيكونوف إليه مذهولاً وشرع يتكلم : « أنا . لقد ظننت ... » .
وأحس أنه لا يسعه أن يصدق سائين . فقال سائين بحدة « لقد ظننت
سخافات كثيرة ! وكان ينبغي أن تكون أعرف بليدا . أى جب هذا مع
كل ذلك التردد ؟ » .

فطار نوفيكونوف فرحاً ودفع يده إلى سائين . ولكن وجه سائين تصلب
وهو يرصد تأثير كلماته في نفس صديقه .

وبدا على نوفيكونوف السرور الواضح والارتياح البين إلى كون المرأة
التي يشتهيها نقيه طاهرة ونطقت عيناه الحزینتان الصريحتان بالغيرة الحيوانية .
فنهض سائين وقال بصوت مهدد :

« أو هو . إذن فأني أقول لك : إن ليذا لم تجيب سارودين فقط بل كانت
لها به علاقات غير شرعية وهي الآن حبلی » .

فسكنت الغرفة سكون الموت وابتسم نوفيكونوف ابتسامة مريضة غريبة
وفرك كفيه وخرجت من شفثيه المرتجفتين صرخة ضعيفة . ودل تقبض
ركني فنه على الغضب المكتوم فسأله سائين :
« لماذا لا تتكلم ؟ » .

فرفع نوفيكونوف يمينه ولكنه جانب عين صاحبه وكان وجهه لا يزال
تشوّه هذه الابتسامة . فقال سائين بصوت منخفض كمن يحدث نفسه :

« لقد عانت ليذا تجربة هائلة . ولولا أنني أدركتها مصادفة لما كانت
الساعة حية . ولعادت الفتاة الجميلة القوية جثة ممسوخة غارقة بين أوحال
النهر تأكل منها الحشرات . وليس المهم مسألة موتها فإننا جميعاً سمنوت يوماً ما
ولكن ما أوجع أن يفكر المرء في أن الغبطة والوضاعة التي تمنحهما شخصيتها
للغير يذهبان بذهابها . نعم إن ليذا ليست منقطعة النظير في الدنيا ولكن وبحنا .
لو خلت الدنيا من مثل هذا الجمال لعادات مظلمة كالقبر . أما أنا فأني مستعد
أن أرتكب جريمة القتل إذا رأيت فتاة مسكينة تتقوض حياتها بهذه الطريقة
السخيفة . وايس يعينني على الإطلاق أن تتزوج ليذا أو أن تذهب إلى
(١٢٢ - ابن الطبيعة)

الشیطان ولكنه لا یسعی إلا أن أقول لك أنك مغفل أبله ! ولو انه كانت فی رأسك فكرة صحیحة واحدة أكنت تعنی نفسك وسواك من أجل أن امرأة حرة فی الاختیار قد أحبت رجلا لیس بأهل لها وأطاعت غریزتها الجنسية واستوفت تمام نضوجها ؟ ولست فاعلم بالأبله الوحید . فإن فی الدنیا ملايين مثلك یحیلون الحیاة سجنًا مزویا عن ضوء الشمس وحرارتها ! وكم من مرة أطلقت فیها العنان لشهوتك برائحة مومس تشاطرك نسوكت ؟ وأما لیدا فما دفعها إلا العاطفة وإلا شعر الشباب والقوة والجمال . فبأی حق تنفر منها أنت یامن تدعو نفسك رجلا رشیداً ذكياً ؟ ماشأنتك بماضیها ؟ أهی أقل رجالة ؟ أم أقل صلاحاً لأن تحب وأن تحب ؟ أم المسألة أنك كنت تريد أن تكون أول من ینالها ؟ تكلم ! » .

فقال نوفیکوف وشفته ترنجان :

« إنك تعلم حق العلم أن هذا لیس كذلك » .

فصاح سانین : « نعم هو كذلك . وإلا فما السبب من فضلك ؟ » .
فصمت نوفیکوف واسود كل شیء فی نفسه ولكن خاطر العفو والتضحیة طاف برأسه كما یومض شعاع النور فی الظلمة .
وكان سانین یرقبه وكأنما قرأ ما یدور فی ذهنه فقال بصوت مضبوط متزن : « أراك تفكر فی التضحیة بنفسك من أجلها . وكأنی أسمعك تقول لنفسك « سأهبط إلى دركها وأحميها من الرعاع » هذا ماتقوله الآن لنفسك الفاضلة فیضخم شأنك فی عینك كما تضخم الدودة تغتذى بالجلثة . ولكن هذا كله زور . ولیس هو إلا أكذوبة ؟ إنك لست مطبقاً لتضحیة الذات . ولو أن لیدا مثلاً شوها الجدری لكان من المحتمل أن تستطيع أن ترفع نفسك إلى مستوى هذه البطولة ولكنك كنت خلیقا بعد یومین اثنين أن تسمى حیاتها العلقم وأن تنبذها أو تهملها أو تمطرها التائب كل ساعة . أما الآن فإنك تقف من نفسك موقف العبادة . نعم لقد استحال وجهك وصار من یراك خلیقا أن یقول « انظروا ! هذا قدیس ! » ولكنك لم تفقد شیئاً كنت

تبغيه . إن أعضاء لدينا ما زالت كما كانت ولم تزايلها قوة العاطفة ولا أصحابها جزر في حيويتها البديعة . ولكن من المرغوب فيه جدا أن يروح المرء يستمتع ويقطف أزاهير اللذات وهو يوههم نفسه أنه إنما يأتي عملا شريفا ! » .

فلما سمع نوفيكيوف هذا الكلام فارقه عطفه على نفسه واستولى على روحه شعور أنبل وأشرف فقال معاتباً :

« إنك تجعلني أسوأ مما أنا في الواقع ، ليس ينقصني الشعور كما تظن . وما أنكر أن لي آراء معينة وأن بي بعض التخرج ولكني أحب ليدابتر وفنا ولو أنني على يقين من أنها تحبني أكنت تظن أن يطول بي التردد من أجل أن ... » .

وخانه صوته . وهذا سائين فجأة واجتاز الغرفة ووقف أمام النافذة المفتوحة غارقاً في بحر من الفكر وقال :

« إنها في هذه الساعة حزينة جداً لا يسعها أن تفكر في الحب . وكيف أعرف هل تحبك أم لا تحبك ؟ ولكن تخيل لي أنك إذا ذهبت إليها وكنت بذهابك ثاني رجل لم يضطهدهما من أجل حبها القصير . . . على كل حال لا أستطيع أن أعلم ماذا عسى أن تقول ! » .

وكان نوفيكيوف بحالاً كأنه يحلم وأشعره الحزن والسرور نوعاً من السعادة لطيفاً كالضوء في السماء مساء .

وقال سائين : « لنذهب . إليها . ومهما يكن ما يحدث فإنه سيرها أن ترى وجه إنسان وسط هذه الوحوش المسيخة المتتعبة . إن بك يا صديقي بعض الغباء ولكن في غبائك شيئاً ينقص سواك . تالله ما أخرب أن الدنيا كانت وما تزال تبني آمالها وسعادتها على مثل هذا الغباء ! تعال نذهب . . » .

فابتسم نوفيكيوف وقال : « إني على أتم استعداد للذهاب إليها ، ولكن أتهم بأن تراني ؟ » .

فقال سائين ووضع يده على كتفي نوفيكيوف :

« لا تفكر في هذا . إذا كنت تريد أن تفعل خيراً أو صواباً فافعله ودع المستقبل يعني بنفسه » .

فقال نوفيكونف بلهجة البت : « حسن فلنذهب » .

ولما صاروا في حرم الباب وقف وقال بلهجة التأكيد وعينه محمقة في وجه سائين : « اسمع سأبذل أقصى وسعى لإسعادها . وقد يبدو لك هذا الكلام مبتذلاً ولكني لأعرف كيف أعرب عما في نفسي بما هو خير من هذا » .
فأجابه سائين بلهجة الودود : « لا يكرهك هذا يا صديقي . فأني فاهم ما تريد » .

(٢١)

كان الصيف وماجا . والليل يسجد إذا طلع القمر المنير ويعود الجو مثقلاً بشدى الرياض والحقول فتأنس النفوس وتجد الروح والغبطة :
وكان الناس يكدحون نهارهم أو يشتغلون بالسياسة أو بالفنون وبالأكل والشراب والاستحمام والحديث حتى إذا فتر الحر ونخفت وقدته وسكنت الضوضاء وأخذ قرص القمر يطلع في الأفق ويطل على المروج والحقول ويريق على سطوح المنازل والحدائق ضوءه البارد خلصت أنفاس الناس واستأنفوا الحياة كأنما نقضوا عنهم ثوباً ثقيلاً وصارت الحياة في حيث تكون للشباب الغلبة أوسع وأكثر حرية فتجاوب الحدائق بأصوات البلايل وتعمق الظلال وتعود العيون أشد تلماعاً والأصوات أعذب رقة ويبيت الجو مشرباً أنفاس الحب وطيبه .

وكان يورى وشافروف عظيمى الاهتمام بالسياسة وكانت قد تألفت جماعة التهذيب فطالع يورى كل الكتب الحديثة وراح يعتقد أنه وفق إلى العمل الصالح له . واهتدى إلى وسيلة يمحو بها كل شكوكه . ولكنه لم يكن يجد الحياة إلا عقيمة جافة لافتنة فيها على كثرة ما كان يقرأ وعلى الرغم من مشاغله جميعها ولم تكن الحياة تعود مشبهة إلا حين كانت الصحة والعافية يضفوان عليه ، وإلا حين ينبه حواسه الحب . وكانت كل الفتيات سواء في

نظره من قبل فانتقى واحدة منهن رآها جمعت مفاتيح اقربها واستبدت دونهن بحسبها ورونتها .

وكانت طويلة القامة بارعة التكوين يعتدل رأسها الجميل على كتفيها المصقولتين الناصعتين حديثها تغريد وغناؤها سحر . ولها في الشعر والموسيقى باع تستطبلها وتزهى بها ولكن حيويتها الدافقة لم يكن لها مظهر أقوى ولا صورة أتم من جهدها الجماني فكان يلجج بها الحنين إلى شيء تضمنه إلى صدرها وإلى أن تضرب الأرض بقدمها وأن تضحك وتغنى وأن تتأمل ذوى الوجوه الصبيحة من الشبان وكانت ربما اشتاقت — في وقدة الظهيرة أو في الليلة القمرء — أن تجلج كل ماعليها من ثياب وأن تعدو على الحشائش وتغذف بنفسها في النهر بحثاً عن تمنح إلى اجتذابه واستهوائه إليها بأعذب نغمة وكان محضرها يحرك نفس يورى فيعود أفصح لساناً وأسرع نبضاً وأحضر خاطراً . وكان نهاره يفكر فيها ويحلم بها حتى إذا جاء الليل راح يبينها وإن أبى أن يقر بذلك لنفسه . ولا ينفك يخلل إحساساته فتدوى على التعاقب كالتورة في الصقيع . وكلما سأل نفسه ماذا يجذبه إلى سينا كرسافينا أجاب « إنها الغريزة الجنسية لاشيء سواها » فيثير هذا التعليل أعظم الاحتقار لنفسه . على أنه كان بينهما تفاهم ضمنى فكأنهما مرآتان تنعكس في صقال كل منهما عواطف الآخر .

ولم تكن سينا تعنى بأن تحلل خواجلها بل كانت تستلذها وإن أفلقتها وكانت تكتمها ولا يبيحها أحداً وكرهها أنها لم تستطع أن تعلم ما ينطوى عليه لها صاحبها وكانت ربما خيل إليها أنه ليس بينهما شيء فتأسى لذلك كأنما افتقدت ثميناً على أنها لم تكن تكره أن تكون موضع احتفال غيره من الرجال وأكسبها اعتقادها أن يورى يحبها دالة جعلتها أفن لسواه من المعجبين بها . وكان يسحرها وجود سائين كل السحر ويسببها منه كنفاه العريضتان وعيناه الساكتان وشماله الهادئة المستقرة . ولما انتهت إلى عمق ما يتركه سائين من الوقع في نفسها اتهمت بضعف الإرادة إن لم يكن بالخفة

وقلة الحشمة . ولكنها على هذا ظلت تمنحه أعظم الالتفات والرعاية .
وفي نفس الليلة التي كانت فيها ليذا تجوز ذلك الامتحان القاسي التقت
سينا ويورى فى المكتبة فاقنصرا على تبادل التحية وانصرف كل منهما إلى
شأنه ومضت هى تنتقى الكتب واشتغل هو بمطالعة الصحف الواردة مع البريد
الأخير من بطرسبرج . على أنه اتفق أن زايلا المكان فى وقت واحد فترافقا
فى الطريق واجتازا معا الشوارع الموحشة فى ضوء القمر وكان كل شىء
ساكنا سيكون القبر ولم يكن السارى يسمع إلا صوت الحراس من حين
إلى حين وإلا نباح الكلاب عن بعد .

ولما بلغا الميدان رأيا نفرا جلوسا يضحكون تحت الأشجار واستطاعا
فى ضوء سيجارة تشعل أن يلمحا شاربا جيلا وورد على سمعهما صوت
يغنى « إن قلب الحساء قلب كالريح » ولما اقتربا من بيت سينا جلسا على
مقعد وكان الظلام طاخيا وأمامهما الشارع العريض يضيئه القمر والكنيسة
على قبتها صليب ملتمع كالنجم باديا من فوق قمم الصفصاف .
فقالت سينا وأشارت إلى الكنيسة : « أنظر ! ما أجمل هذا ! »

فنظر يورى إلى كتفها البيضاء الحاضرة نظرة الإعجاب واشتاق أن
يضمها بين ذراعيه وأن يقبل شفيتها الحمراء بين الناضجين وكأنما لم يكن
له بد من ذلك وكأنما كانت هى تتوقع ذلك وتشبهه ولكنه ترك الفرصة
للسانحة تمر وجعل يضحك من نفسه ساخرا فى رفق فسألته ، « لماذا
تضحك ؟ »

فقال يورى وهو مضطرب وحاول أن يخفى انفعاله :
« لست أدرى ! لاشىء » .

وصمت كلاهما وأنصتا إلى أصوات ضعيفة يحملها النسيم إليهما فى الظلام
ثم باغته سينا بهذا السؤال : « ألم تحب قط ؟ » .

فأجابها يورى ببطء : « نعم » .
وقال لنفسه : « وهبني صارحتها فإذا يكون ؟ » .

ثم قال لها : « إني الآن أحب » . فسألته : « وتحب من ا » .
وأشفقت أن تسمع الجواب وإن كانت على يقين منه .
فأجابها يورى « أحبك أنت » .

وحاول عبثا أن يقول ذلك بلهجة المازح وهو مائل إليها يحدق في عينيها
المؤتلفتين وكانتا ناطقتين بالدهشة والانتظار واشتاق يورى أن يعانقها ولكن
شجاعته خائنه مرة أخرى فتظاهر بأنه يعالج بأن يكتفم الثوباء .

فحدثت سينا نفسها « انه إنما يمزح » ونخدت في نفسها الحرارة
وآلمها هذا التردد من يورى وأرادت أن ترد الدموع فقرضت أسنانها
ثم قالت بلهجة غريبة : « هذا كلام فارغ » .

ونفضت فقال يورى يجد غير طبعي :

« إني مجاد جداً . فصدقيني فإني أحبك حبا طاعيا » .

فتناولت كتبها ولم تنبث وسألت نفسها : « لماذا يتكلم على هذا النحو ؟
لقد أريته أنى أعنى به فلما بدا له هذا أخذ يحتقرنى » .

فانحنى يورى ليلتقط كتابا سقط وقالت له هى برود :

« لقد آن أن أذهب إلى البيت » :

فأحزن يورى أنها تريد العود إلى بيتها فى هذه اللحظة ولكن رأى أنه قام
بدوره على أحسن وجه وأنجح وأنه لم يصنع شيئا مبتذلا ثم قال بصوت
مؤثر : « إلى الملتقى » .

فدلت إليه يدها فأسرع فانحنى ولثمها ففرغت سينا وانفجرت شفتاها عن
صيحة خافتة وقالت : « ماذا تصنع ؟ » .

ولم تكذب شفتاه تلمسان يدها الرخصة الصغيرة ولكن صدره جاش
مع ذلك حتى لم يسعه أكثر من الابتسام الخفيف وهى تسرع نائبة عنه
ثم مالبت أن تسمع صوت بابها ولم تفارقه هذه الابتسامة السخيفة وهو
ماض إلى بيته وراح يحس القوة فى جسمه والغبطة فى قلبه .

(٢٢)

لما بلغ يورى غرفته الضيقة كالسجن وجد الحياة أبعث ما تكون على السامة وخيل إليه أن حادثته الغرامية التى وقعت له مبتذلة أتم الابتذال .

« لقد سرت منها قبله ! فأى نعمة ! وما أعظم بطولتى ! إن البطل يستهوى فى ضوء القمر فتاته الحسنة بالألفاظ الملتببة والقبل النارية ! رباه ! أى سخافة ! إن المرء ليعود مغفلا فارغا جدا فى هذا البحر الصغير اللعين ! » .

وكان يورى وهو فى المدن يتصور أن الزيف هو المكان الصالح له حيث يستطيع أن يعايش القرويين ويشاطرهم كدهم تحت الشمس المحرقة . فلما أتاحت له الفرصة بدا له أن حياة القرى لا نطاق وأحسن الحاجة إلى منشط من المدن التى لا يتسع سواها لقواه ومواهبه وكان لا يفتأ يقول « ما أحلى مجلبة المدن وضوضاءها ! وهزة الفصاحة المنبعثة عن قوة العاطفة ! » بيد أنه لم يلبث أن كبح هذه الحماسة الصبيانية .

« وبعد فما معنى هذا ؟ أى شىء هذه السياسة والغلم ؟ أنها لكبيرة ما بقيت مثلاً عليها نائية ولكنها فى حياة كل فرد ليست إلا تجارة ككل شىء سواها ! النضال ؟ جهود تبتان ؟ إن ظروف الحياة الحديثة تجعل هذا مستحيلاً . إني أعانى وأجاهد وأتخطى رقاب الموانع ! حسن وماذا إذا ؟ أين المنتهى ؟ إنه ليس فى حياتى على كل حال ! لقد أراد برومثيوس أن يهدى النار إلى الناس وأن يعلمهم قدحها ولقد فعل . ولك أن تعد هذا نصراً كبيراً وفتحاً مبيناً إذا شئت . ولكن ما رأى فينا نحن ؟ إن أقصى ما يسعنا هو أن نضيف عيدانا موقوفة إلى نار لم نوقدها ولن نكون نحن المحمديها ؟ » .

وخطر له أنه إذا كانت الأمور على غير ما ينبغى فذلك لأنه ليس من طراز برومثيوس ! وهو خاطر محزن فى ذاته كل ما أفاده هو أن أتاح له فرصة جديدة لتعذيب نفسه .

« أى برومثيوس أنا يا ترى ؟ إني لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة

شخصية أنانية . « أنا » دائماً « وأنا » في كل شيء . ألا أنى لضعيف مهن كغبرى من الناس الذين أحترقهم من أعماق قلبي .

وساءته هذه المقارنة حتى اختلطت خواطره فجلس برهة يفكر في الموضوع ويعالج أن يلتمس مبرراً ما . فتال وارتاح قليلاً إلى هذا الخاطر : « كلا لست مثل سواى لأنى على الأقل أفكر في هذه الأمور وهو ما يحلم بأن يفعله أمثال ريارانتزيف ونوفيكوف وسائين . إنهم لا يجرى بياهم قط أن ينقلوا أنفسهم إذ كانوا أتم ما يكونون سعادة ورضى عن نفوسهم كخنازير « زردشتر » . إن الحياة كلها تتلخص في ذاتيتهم الذرية وتالله لقد اعدوني بهذه السطحية ! آه نعم ! إذ كان المرء بين الذئاب فليعوم مثلها . إن هذا طبيعى » .

وجعل يورى يقطع الغرفة جيئة وذهوباً فحدث — وذلك مألوف — أن تغير اتجاه خواطره بتغير المكان .

« حسن جداً . هذا كذلك . وعلى كل حال فالواجب النظر في أمور كثيرة . مثال ذلك ما هو موقفى حيال سينا كرسافينا ؟ وليس المهم هل أحبها حباً جما أم قليلاً ، بل المسألة متعلقة بالنتيجة . ولنفرض أنى تزوجتها أو اتصلت بها اتصالاً وثيقاً . فهل ترائى أعود بذلك سعيداً ؟ إن الغدر بها جريمة وأنا أحبها . . . حسن إذا فلنرى استطيع . . . الأرجح فى الاحتمال أن ترزق منى أبناء . . . » وأخجله هذا الخاطر . وليس فى هذا عيب سوى أنه قيد يفقدنى حريتى . فأعود رب أسرة . تقول النعيم المنزلى ؟ كلا ليس هذا بسبيلى » .

« واحد . اثنان . ثلاثة . » — هكذا كان يعد وهو يحاول أن يتخطى مربعين ويضع قدمه على الثالث .

« لو استطعت أن أكون على يقين من أن لا تحمل أو من أن أحب أبناءنا إذا رزقناهم وأقف حيانى لهم ! كلا ! ما ارذل هذا وأصغره !

وربما انتزيف سيكون له أبناء يحبهم فأى فرق يكون بيننا ؟ حياة تضحية بالذات ؟ ويزعم الزاعم أن هذه هي الحياة الحقيقية ؟ نعم هي كذلك ولكن تضحية لمن ؟ وبأية طريقة ؟ ودع عنك الطريق الذى اختاره والغاية التى أرمى إليها وأرنى المثل الأعلى الذى يستحق أن أموت فى سبيله . كلا ! إن السبب ليس راجعاً إلى ضعفى بل مرده إلى أن الحياة نفسها ليست بأهل للتضحية أو الحماسة . وعلى هذا فلا معنى البتة لأن يعيش المرء .

ولم يتفق له من قبل أن اقتنع بصحة هذه النتيجة مثل هذا الاقتناع وكان على منضدته مسدس كلما مر به وهو سائر أخذت عينه حديد المصقول .

فتناولوه وفحصه بعناية وكان محشواً وصوب فوهته إلى صدغه وقال لنفسه : « هكذا ! بانج - ثم ينقضى الأمر ! فهل من الحكمة أو الغباء أن يقتل المرء نفسه ؟ هل الانتحار جين ؟ إذاً فاحسبني جباناً ! .

وأحس للمس الحديد البارد لجبينه الملهب لذة وفزهاً وسأل نفسه : « وماذا عن سينا ! دعنى من هذا فلن أفوز بها ولهذا فأنى أدع لغيرى هذه المتعة » .

وأيقظ خاطر سينا ذكريات سارة حاول أن ينفيها لأنها حمق وضعف وقال « لماذا لا أفعل ؟ » .

فكأنما كف قلبه عن الخفقان . ثم سدد المسدس إلى جبينه فى احتفال وإصرار ورفع الزناد فجمدت دماؤه فى عروقه وطن فى أذنه شئ غوامد به الغرفة .

ولكن الرصاصة لم تنطلق فلم يسمع سوى صوت الزناد فهوت يده إلى جانبه وهو يكاد يغطى عليه وكانت كل شعرة ترتجف ورأسه يدور وشفته مضمومتان ويده من الاضطراب بحيث سقط المسدس على المنضدة . فقال وعاد إلى نفسه :

« ما أغرب شأنى » .

ومضى إلى المرأة ليرى فيها وجهه وقال :
 « أجبان أنا إذن ؟ كلا ! لست به . لقد فعلتها كما ينبغي وماذا أصنع
 إذا كانت الرصاصة لم تشأ أن تنطلق ؟ » .

ورامقه خياله في المرأة وكان فيما يرى بادی الجلد . ثم أخذ يقنع نفسه بأنه
 لا يعلق أية أهمية بما حدث ولأجل هذا أخرج لسانه لخياله ! ونأى عن
 المرأة وقال بصوت عال : « إن القدر لم يشأ أن يتم ما أردت » .
 وكأنما أنعشه صوته . ثم سأل نفسه « ترى هل أبصرني أحد » وتلفت
 مذعورا ولكن كل شيء كان ساكنا ولم يسمع حركة وراء الباب . فكأنما
 لا موجود سواه ولا معذب في هذه الوحدة غيره . وأطفأ المصباح فأذهله
 أن رأى أولا أشعة الفجر الحمراء ثم استلقى لينام وأحس في نومه شيئا هائلا
 ينحني فوقه ويخرج أنفاسا من النار .

(٢٣)

زحف الأصيل في رفق ولين وقد ترفق في حواشيه أرج الأزهار . وكان
 سائين جالسا إلى منضدة قريبا من النافذة يطالع — أو يحاول أن يطالع — في
 الضوء الكأبي قصة يحبها وهي وصف لمصرع أسقف هرم قضى نحبه وهو لا بس
 ثيابه اللاهوتية وفي يده صليب مرصع والبخور يعقد في الجوسحابات .
 وكان الجو في الغرفة بارداً مثله خارجها ونسيم المساء العليل يمسح جسم
 سائين القوى ويملا رثييه ويعبث بشعره فضى في قراءة القصة وكانت شفتاه
 تتحركان من حين إلى حين فلو رأيته لحسبته صبيا كبيرا يلثم حكاية من
 حكايات المخاطرة بين الهنود على أنه كان كلما أوغل في الكتاب تسود خواطره
 ويعجب للعنينا كيف حشيت كل هذه السخافة وللناس وكثافتهم ووحشيتهم^٢
 ولنفسه كيف بذهم وسبقهم !

وفتح الباب ودخل منه زائر فرفع سائين طرفه وقال وهو يطوي الكتاب :
 « آها . هاءندك من الأخبار ؟ » .

فأثر ثغر نوفايكوف عن ابتسامة حزينة وصافح سائين وقال وهو يدنو

من النافذة : « لاشيء ! إن كل شيء كما كان »

ولم يكن سانين يستطيع أن يرى من نوفيكونف إلا شخصه الطويل .
فظل برهة طويلة ينظر إليه ولا ينكلم

وكان سانين قد مضى قبل ذلك بصديقه إلى ليدا التي تغيرت وزايلها الزهو
والشموخ فلم ينبثا بحرف عما هو أدنى إلى قلبيهما وأعلق بهما وكان سانين يعلم
أنهما سيشتقيان بعد أن يتصارحا وإنهما خليقان أن يكونا أشقى وأتمس إذا
ظلا صامتين وأن ما يستسهله هو لا يسعهما إلا بجهد جاهد فقال لنفسه « ليكن
الأمر كذلك فإن الألم ينقّي الروح ويرفعها فأما الآن فقد منحت الفرصة
الملائمة لهما

وكان نوفيكونف واقفا قبل النافذة ينظر في صمت إلى مغرب الشمس وكان
ينازعه الأسى على ما فقد والشوق إلى اللذة المنتظرة فصور لنفسه ليدا حزينة
مطوقة بالعار فلو آتته الشجاعة لركع أمامها الساعة ونفث بلمثاته الحرارة في يديها
الباردين ويحبه الضخم الغفور حياة جديدة في عروقها ولكن أتى له بالقوة
والقدرة على المضى إليها ؟

وكان سانين يدرك ذلك فنهض في ببطء وقال ، « إن ليدا في الحديقة
فهل نذهب إليها ؟ »

فأسرعت دقات قلب نوفيكونف وامترج في نفسه الفرح والحزن أغرب
امتزاج وتغير وجهه قليلا وجعلت إصابعه تعبت بشاريه . فأعاد . سلين
سؤاله في هدوء كأنما آلى أن ينهض بأمر خطير ما قولك في ؟ هلنا أنذهب ؟
فأحس نوفيكونف إن سانين يعرف كل ما في نفسه فاستحيا كالصبي وإن
كان قد أراحه هذا الإحساس قليلا . فقال سانين في رفق « هيا بنا ! »

وأمسك بكتف نوفيكونف ودفعه إلى الباب فتمتم « نعم . . أنا . . »
وكاد يعانق سانين ولكنه لم يجترأ ولم يسعه إلا أن يرمقه بعين عبرى
وكانت الحديقة الدافئة العطرة مظلمة وأغصان الأشجار فوق جذوعها تكون
فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء وعلى سطح الأرض الظامنة ضباب

خفيف خافق فكأنما هناك شبح غيد مرثى يحوب مسالك الحديقة الصامتة ويسرى بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفة الأوراق والأزهار الناعسة وكان الشفق لايزال وهاجا فيا وراء النهر المنحدر بين المروج الخالكة وعلى حرفه تجلس ليذا مكبة عليه مائلة اليه كأنه روح حزين ظفروه الطفل فلما سمعت صوت أخيها ملأها يقينا لم يلبث أن ولى أسرع مما جاء واستحوذ عليها الخوف والحجل وأحست كأنما لاحق لها في السعادة لا ولا في الحياة وكانت لذلك تقضى النهار كله في الحديقة وفي يدها كتاب إذ كانت عينا لاتقوى على النظر إلى أمها . وتحدث نفسها مرة بعد أخرى ان ألم أمها لا يكون شيئا مذكورا بالقياس إلى ماتعانيه هي الآن ولكنها على هذا ما اقتربت من أمها الا تلعم لسانها وارتسمت في عينا نظرة المذنب فاثارت خجلاتها واضطرابها العجيب ظنون أمها وحركت شكوكها ولحت ذاك ليذا فصارت تلوذ بالحديقة فراراً من نظراتها الفاحصة وأسئلته القلقة . وهكذا كانت الليلة جالسة على حافة النهر تنظر إلى المغرب وتفكر في مصابها وكانت الحياة لاتزال في نظرها مستعجمة وكانما يحول بينها وبين استجلائها شبح بشع . فاستعانت بضعة كتب وسعت أفق فكرها وحررت فجنحت إلى الاعتقاد بأن سلوكها طبعى بل حقيقى بالثناء ذلك إنها لم تسيء إلى أحد وما فعلت شيئا سوى أن أمكنت نفسها وشخصا آخر مثلها من اللذة الجسمية التى لاشباب بغيرها والتي تعقم الحياة بدونها وتقف وتعود كالشجرة العارية في الخريف .

واستسخرت أن علاقتها بذلك الرجل علاقة لم تمنحها الكنيسة موافقتها بعد . ذلك أن حرية الفكر قد نقضت هذه الضرورات من زمن بعيد وانها الحقيقة أن تغتبط بهذه الحياة الجديدة أغتباط الزهرة استيقظت صباها على مس اللقاح يحمله إليها النسيم واكنها مع هذا أحست أنها صارت أخط وأسفل من كل منحط وسافل .

وذابت كالشمع كل هذه الآراء النبيلة الخلية والحقائق الأبدية لاقترب

يوم الفضيحة وصارت تفكر في أن تدوس بقدمها من يمتنونها بل همها الوحيد وشغلها الشاغل هو كيف تجنبهم أو تخدعهم .

على أنها مع رغبتها في اخفاء حزنها عن غيرها أحست جاذبا الى نوفيكونف كما تجذب الشمس الزهرة . وخيل اليها ان من الحقارة بل من الاجرام أن يراد منه انقاذها . وحز في ضلوعها أن يتوقف أمرها على حبه وصفحه ولكن الرغبة في الحياة كانت أقوى من الكبر

وكان خوفها من غباء أعظم من احتقارها له فلم تكن تستطيع أن تنظر الى نوفيكونف بل كانت ترجف في حضرته كالعبد أمام ملك رقه فما أشبهها بالطائر المهيض الجناح الذي لا يسعه أن يطير مرة أخرى

وكانت اذا جاوز الألم طاقتها ربما فكرت في أخيها بشيء من الدهشة . وكان لا يخفى عنها انه لا يقدس شيئا وانه ينظر اليها وهي أخته نظر الذكر الى الأنثى وانه أناني لا يكثر ث للعرف والعادة ولكنه الرجل الوحيد الذي كانت تحس الحرية المطلقة في محضره والذي تستطيع أن تصارحه بأخفى أسرار حياتها : لقد خطئت ... حسن . وماذا في هذا ؟ ولقد أمكنت رجلا من نفسها .. حسن جدا وهل كان هذا الابعثتها ؟ وسيحتقرها الناس ويمتهنونها قذايمهم ان أمامها الحياة وضوء الشمس والدنيا الطويلة العريضة وأما من حيث الرجال فهم كثر وستأسى أمها وتحزن . حسن . ان هذا شأنها هي اذا شاءت ذلك . وان ليذا لتجهل شباب أمها ولا تعرف عنه لا قليلا ولا كثيرا ومتى ماتت قلن يبقى مجال للبحث والتنقيب ، ولقد التقيا مصادفة في طريق الحياة وترافقا مسافة فهل هذا سبب يدعوها الى تبادل المقاومة والمعارضة ؟

وتبينت ليذا أنها لن ترزق حرية أخيها وإنما خطرت لها هذه الآراء بتأثير هذا الرجل القوى الساكن الذي تعجب به وتحيه غطافت برأسها خواطر غريبة . خواطر ليست مشروعة الصبغة وحدثت نفسها أن « آه لو كان غريبا ولم يكن أخي ! » .

وبادرت فعاجلت أن تخنق هذا الخاطر الفاضح المغري .

ثم ذكرت نوفيكونوف فاشتقت كالرفيق العزيز أن يمنحها عفوه ورضاه
وسمعت وقع أقدام فتاننت وجاء إليها سانين ونوفيكونوف في سكوت ولم نستطع
أن نتبين وجهيهما في الظلام ولكنها أحست أن اللحظة المرحوبة قد دنت
أصفر وجهها وكأنما أوشكت الحياة أن تنتهى .

وقال سانين : « هذا أنت ؟ لقد جئت إليك بنوفيكونوف وسيقول لك
كل ما عنده فامكنا هنا ريثما أذهب وأعود بشيء من الشاي » .

وانقلب عنهما مسرعا فظلا هنيهة يرقبان قيصه الأبيض يغيب في ظلمة
الليل وكان السكون من العمق بحيث ظناه لم يجاوز ظلال الأشجار
المحيطة بهما .

وقال نوفيكونوف بصوت رقيق متهدج وقع من قلبها أعمق وقع : « ليدا
بتروفنا ؟ » .

فقال لنفسها مسكين ! ما أطيبه ! » .

ومضى هو فقال : « انى أعرف كل شيء يا ليدا بتروفنا . ولكن حبي
لك باق على عهده . وربما أحببتنى يوما ما فقولى لى هل تقبلينى
زوجا ؟ » .

وقال لنفسه « خير لى أن لا أكثر من الكلام فى هذا إذ لا ينبغي أن
نعرف أى توضحية أبدلها من أجلها » .

فصمت ليدا فكان المرء يسمع خرير الماء فى هذا السكون وعاد نوفيكونوف
إلى الكلام فقال : « إننا شقيان يا ليدا . ولعل الحياة نعود أخف محملا إذا كنا
معا » وكانت هذه الكلمات خارجة من أعماق قلبه ففاضت عينا ليدا بدموع
الشكروهمى تميل إليه ونقول « لعل وعسى » .

على أن عينيها قالتا له : « ويعلم الله أنى سأكون زوجة صالحة وأنى
سأحبك وأحترمك » .

ففهم نوفيكونوف ما قالت العيتان فهوى إلى ركبتيه وتناول يدها وأمطرها

قبيلات حارة فأجاشت هذه العاطفة نفس ليدا فنسيت عارها وحدثت نفسها
« أن قد انتقضى ومضى ذلك الأمر وسأسعد مرة أخرى : فيالك من رجل
طيب ! »

وأبكاهما الفرحة فآنته كلتا يديهما وانحنى على رأسه ولثمت شعره الناعم
الحريرى الذى كانت تعجب به ومثلت لعينها صورة سارودين ولكنها لم
تظهر حتى غابت :

ولما عاد سائين بعد أن أفسح لها الوقت للتفاهم ألفاهما جالسين وأيديهما
مشتبكة وهما يتحدثان بصوت خافت هادئ

فقال سائين بهيئة الجاد : « آها ! اشكرا الله واسعدا »
وكان يهيم أن يقول شيئاً آخر ولكنه عطس بدل أن يتكلم ثم قال ومسح
عينيه : « إن الجو هنا رطب فاحذر البرد »
فضحكت ليدا وتجاوب ما وراء النهر بصدى صوتها الفاتن ثم قال سائين
بعد فترة : « سأذهب عنكما »
فسأله نوفيكوف « إلى أين تذهب ؟ »

قال « إن سفاروجتش وذلك الضابط الذى يعجب بتولستوى
— ما أسمه ؟ — قد دعوانى »

فقالت ليدا ضاحكة : « اتعنى فون دابتر ؟ »
— « هو بعينه . ولقد أراد أن نكون جميعاً هناك ولكنى قلت لهما أنك
لست فى البيت »

فسأله ليدا ضاحكة أيضاً : « لماذا قلت له ذلك ؟ ربما كنت أذهب »
فقال سائين : كلا . ابقيا هنا : ولو كان معى رفيق لبقيت
مثلكما »

ثم تركهما
وزحف الليل وارتمت على الأرض غيابات الطفل وبدا أول نجم يرتعش
فى مرآة النهر المتدفق .

كانت الليلة داجية والسحب يطارد بعضها بعضاً فوق الأشجار وكانت تمضي مسرعة كأنها مرسلّة إلى غاية خفية والنجوم تتلامح لحظة وتختفي أخرى وكل شيء في السماء كأنه في هرج ومرج على حين كانت الأرض كمن ينتظر شيئاً وهو معلق الأنفاس فكانت الأصوات الآدمية المتنازعة وسط هذا السكون مستثقلة عالية .

قال فون دايتز وهو يتعثر تعثراً شديداً : « مهما يكن من الأمر فإن المسيحية نعمة باقية وبركة خالدة على الإنسانية إذ كانت هي النظام الوحيد التام المفهوم للأخلاق » .

فقال يورى وكان سائراً خلفه ورى برأسه يمتد على سبيل التحدى وعينه إلى ظهر الضابط : « هذا صحيح . ولكن المسيحية في صراعها مع الغرائز الحيوانية في الإنسان ظهر أنها عاجزة كغيرها من الأديان »

فصاح فون دايتز مغضباً « ماذا تعنى بقولك ظهر أنها كذلك ؟ إن للمسيحية المستقبل وفي الإشارة إلا أنها عتيقة »

فقاطعه يورى بحدة : « ليس للمسيحية مستقبل . وإذا كانت لم تنتصر وهى في أوج نشوئها بل صارت آلة في أيدي عصابة من الدجالين فمن السخافة المطبقة أن نتوقع منها معجزة في هذه الأيام التي عاد حتى اسم المسيحية فيها مضحكا . إن التاريخ لا يرحم وكل ما يخرج من الميدان لا يسعه أن يكرر إليه » .

فصرخ فيه فون دايتز : « هل تريد أن تقول أن المسيحية خرجت من الميدان ؟ »

فجنى يورى في كلامه معانداً : « أعنى ذلك على التحقيق . وأراك تعجب لذلك كأن مثل هذه الفكرة مستحيلة . كما أن شريعة موسى قد بادت وكما أن بوذا وآلهة الاغريق قد غبروا كذلك ذهب المسيح . هذا قانون النشوء فإذا يدهشك ؟ أتؤمن بالوحيته ؟ »

فقال فون دايتز وقد ساءته لهجة يورى أكثر مما ساءه السؤال :

« كلا لا أو من بألوهيته »

فسأله يورى : « إذا فكيف تقول أن إنساناً يستطيع أن يخلق شيئاً
أبدية ؟ »

وحدث نفسه إن فون دايتز « قدم غي » وارتاح إلى الاقتناع بأنه دونه
ذكاء بمراحل وأنه يعجز عن فهم ما هو واضح وضوح الشمس .

فقال فون دايتز وقد تحمس بدوره : « لنفرض أن هذا كذلك . فإن
المستقبل على الرغم من هذا الفرض ستكون قاعدته المسيحية . ذلك لأنهم لم
تفن . ولكنها كالبدرة فى التربة ... »

فقاطعه يورى وبه بعض الارتباك والغضب لارتياكه :

« لم أكن أتكلم عن هذا . وإنما أردت أن أقول ... »

فقال : « عفوا فإن هذا هو ما قلته »

فقاطعه يورى مرة ثانية وقد حاجه أن هذا الغي يظن نفسه أذكى الاثنين
« إذا كنت قد قلت كلا فإنى أعنى ما أقول . ما أسخفك ! أريد أن
أقول »

فقال « قد يكون هذا كذلك . وأنا آسف إذا كنت قد أسأت الفهم »

وهز فون دايتز كتفيه الضيقتين هزة المتنازل إلى التسامح وكأنه يقول إنه
فاز على مناظره .

ولم يفت يورى هذا المعنى فكاد يخنقه الغضب وقال :

« لست أنكر أن المسيحية قامت بدور عظيم ... »

فصاح فون دايتز : « آه ! إنك الآن تناقض نفسك » والتز هذا النصر
وسره جداً أنه يفوق يورى ذكاء وفطنة .

فقال يورى بحماسة : « ربما خيل إلى مثلك أنى أناقض نفسى ولكن
الواقع أن فكرتى منطقية وليس ذنبى إنك لا تريد أن تفهم . ولقد قلت

وأقول الآن أن المسيحية قد غير عهدها وإن منى العيث أن نتطلع إليها لخلاصنا «
فسأله فون دايتز قائلا : « نعم نعم . ولكن هل تريد أن تنكر التأثير
الحسن الذى أحدثته المسيحية باعتبارها قاعدة النظام الاجتماعى ؟ »
أجاب « كلا ! لا أنكر ذلك »

فقال سانين : « ولكنى أنكره » وكان يسير الى الآن ضامتا وراءهما
وكان صوته هادئا لذيذاً على العكس من المتناظرين ، فصمت يورى وغازته هذه
اللاهجة الساخرة المضبوطة الثبرات ولكنه لم يجد الرد حاضراً ولم يكن يجب أن
ينظر سانين لان معجم ألفاظه المألوف لم يكن مجدية فى هذا التزال وكان يحيل
له إذا قارعه كأنما هو واقف على الجليد يحاول أن يهدم حائطاً . غير أن فون
دايتز صاح مغضباً : « أسمح لى أن أسألك لماذا ؟ »

فقال سانين بلهجة جافية باردة : « لأنى أنكر ذلك »
أجاب يورى : « لأنك تنكر ذلك ؟ إذا قرر المرء شيئاً فيجب عليه أن
يثبته » .

أجاب : « لماذا يجب أن أثبته . إنه لا حاجة إلى إثبات أى شيء ! هذه
عقيدتى وليس لى أقل رغبة فى إقناعك .. وعلى أن هذا عيث » .

فقال يورى بحذر : « إذا سايرناك فى أسلوب تفكيرك كان الأولى أن
نحرق كل كتب الأدب » .

فأجابه سانين : « لا لا ! لماذا تفعل هذا ؟ إن الأدب شيء جليل جداً
وممتع جداً . والأدب الصحيح الذى أعنيه ليس جدلياً وليس صاحبه كذلك
الدعى الذى لم يكن يجد مايصنع ذهب يعالج أن يقنع كل إنسان بأنه آية فى الذكاء
وتوقد الذهن . إن الأدب يحدد الحياة ويعيد إنشائها ويتغلغل وينفذ حتى إلى
دم الإنسانية جيلا بعد جيل . فى القضاء عليه سلب لكل لون للحياة وكل
طعم وروح لها » .

فوقف فون دايتز وترك يورى يمر به ثم قال لسانين :

« أرجوك أن تزيدنى ! إن ما قلته الآن يمتنع لى جداً » .

فاستغرق سائرين فى الضحك ثم قال : « إن ما قلته بسيط جداً وفى وسعنى أن أفيض فى البيان إذا شئت . وعندى أن المسيحية قامت بدور ضئيل فى حياة الإنسانية . ذلك أنها فى الوقت الذى أحس فيه الناس أن حالهم لا يطاق وصمم فيه المضطهدون والمستبعدون لما ثابت إلههم مداركهم على أن يقلبوا نظام الحياة الجائر وأن يعصفوا بالطغليات الآدمية — أقول فى هذا الوقت ظهرت المسيحية وديعة متواضعة تعد الجزيل فأنجحت على النزاع واستذكرته وألاحت للناس بصورة النعم المقيم وعللت الإنسانية بأنعامه حتى أنعسها وانطلقت تنشر دين الإذعان والتسليم لسوء المعاملة وقصارى القول أنها جاءت بمثابة « متنفس » للحق المكتوم فعاد بها ذوو الشخصية القوية الذين درجوا ونشأوا وسط روح الثورة وكانوا يحنون إلى خلع نير القرون — أقول عادوا وقد فقدوا كل حرارة كانت تحفزهم فساروا كالخواريين إلى ميدان الفناء يطلبونه بشجاعة خليقة بغرض أسمى . ولم يكن خصومهم يبعثون بالبدهة غير هذا . والآن فسيحتاج الأمر إلى قرون ظلم فاضح قبل أن توقد نيران الثورة مرة أخرى . ولقد خلعت المسيحية على الشخصية الآدمية العنيدة التى لا تصبر على الرق ثوباً من التوبة والندم يخفى تحته كل ألوية الحرية . وخذعت الأقوياء الذين كان يسعهم الآن أن يستحذوا على الثروة والسعادة بأن نقلت مركز ثقل الحياة إلى المستقبل — إلى عالم أحلام لا وجود له — عالم لن يراه أحد منهم . وهكذا اختفت روعة الحياة وفتتها وماتت الشجاعة والعاطفة والجمال . ولم يبق إلا الواجب وحلم العصر الذهبى فى المستقبل — ذهبى للآتين — نعم لقد كان دور المسيحية صغيراً . واسم المسيح ... »

فقاطعه فون دايتز صارخاً ووقف :

« أبدأ ! إن هذا يتجاوز الحد ! »

وجعل يلوح بذراعيه الطويلتين فى الظلام

فسأله يورى مضطرباً « ولكن ألم يخطر لك قط أى عصر نفاضة وإراقة
دماء كان خليفاً أن يكون لولا أن حالت المسيحية دون ذلك ؟ » .

فأجابه سانين بإيماءة استخفاف : « ها ! ها ! حدث فى بادىء الأمر أن
« الميدان » — تحت ثوب المسيحية — تلتطخ بدماء الشهداء ثم حدث بعد
ذلك أن الناس كانوا يذبحون أو يلقون فى السجون أو محابس المحانين .
والآن يسفك كل يوم من الدم أكثر مما يمكن أن تريقه ثورة عامة . وشر
ما فى الأمر أن كل تحسين فى حياة الإنسانية لا يتم إلا بسفك الدماء
والفوضى والانتفاض وان كان الناس لا يفتأون يدعون أن حب الإنسانية
وليثار الجار هما قاعدة حياتهم وأعمالهم . والأمر كله ينتهى بمأساة سخيفة كاذبة
ليست من هذا ولا ذاك فى شيء . أما أنا فأنى أؤثر أن تنزل بالعالم كارثة
عامة وحية تقضى عليه — ذلك خير عندى من وجود نبأى فاطر يمتد
على الأرجح إلى عام أخرى » .

فصمت يورى ومن الغريب أن ذهنه لم يكن موجهاً إلى ما يقول
سانين بل إلى شخصيته . وسأله من سانين يقينه المطلق ولم يطق أن يحتمل
هذا منه ، فقال وهو مدفوع بغامل قوى إلى إيلاهم سانين : « هل لك أن
تفضل على فتخبرنى لماذا تتكلم دائماً كأنك تعلم أطفالاً صغاراً ؟ » .

فقلق فون دايتز لهذا السؤال وقال شيئاً على سبيل التوفيق .

وسأله سانين بحدة ، « ماذا تعنى بذلك ؟ ولماذا تغضب ؟ »

فأجس يورى أن كلامه جارح وأنه لا ينبغي أن يتبادى ولكن كرامته
المثوبة دفعته فقال : « أن هذه اللهجة ثقيلة الوقع جداً »

فأجابه سانين وبه بعض الغيظ إلا أن به رغبة فى التسرية عن صاحبه
« إنها لهجتى المألوفة »

فقال يورى ررفع صوته : إنها ليست موافقة دائماً ولا أدري ماذا يكسبك مثل هذا اليقين الجازم ! »

فأجابه سانين وقد عاد إلى سكيفته : « لعل السبب شعورى أنى أذكى منك »

فوقف يورى وهو يردد من فزعه إلى قدمه وصاح بصوت متهلج : فقال سانين « لا تغضب ! أنى لم أرد أن أسىء إليك وإنما أعربت عن رأيى الصريح . وليس رأيى فيك الا كرايك فى وكرأى فون دايتز فينا وهكذا وذلك طيبى »

وكان سانين يقول ذلك بلهجة ودية صريحة لاتدع محلا للغضب فصمت يورى ولكن فون دايتز ظل قلقاً عليه . فتمتم يورى « مهجاً يكن من الأمر فإنى لا أصارحك برأى وأرميه لك فى وجهك »

فأجابه سانين « كلا ! إنك لاتفعل هذا وذلك حيث تخطىء ولقد كنت أصغى إليك وأنت تناظر صاحبك الآن فرأيت روح الغضب والإساءة يحفر كل كلمة يجرى بها لسانك . والمسألة مسألة شكل : أنا أقول ما أرتأى وليس فى هذا ذرة من الامتاع . ولو أننا كنا كلنا صرحاء مخلصين لكان هذا أمتع لنا جميعاً »

فضحك فون دايتز وقال « ياله من رأى مبتكر ! »

ولم يجبه يورى وكان غضبه قد سرى عنه بل لقد استشعر شيئاً من السرور وإن كان قد آله أنه قد خرج من المعركة مهزوماً وإن لم يشأ أن يعترف بذلك

فقال فون دايتز « إن مثل هذه الحالة تكرر بنا إلى الحياة الساذجة »

فسأله سانين « وهل ترى الأفضل أن تكون الحياة مبهمة معقدة »
فهز فون دايتز كتفيه واستغرقه التفكير

اجتاز ثلاثتهم الميدان ومن بعده السكك المقفرة خارج البلدة وهي أضواء من الميدان وأكثر نوراً وكان الإفريز الخشبي واضحاً حيال الأرض السوداء : وفي السماء الصافية الزرقة تلمع النجوم ..

وقال فون دايتز « هانحن هؤلاء قد وصلنا » وفتح باباً قصيراً اختفى فيه ولم يكده يغيب حتى سمعنا نباح كلب وصوتا يقول له « أرقد يا سلطان » وأبصر فناء واسعاً فارغاً وفي جانب منه كتلة سوداء هي طاحونة بخارية ذهبية مدخنتها الضيقة في الهواء وحولها خصاص ولم تكن ثم أشجار إلا في رقعة ضيقة من الأرض أمام البيت الثاني وقد أضاء أوراقها الخضراء نور منبعت من نافذة مفتوحة فقال سانين « ما أظلمه من مكان ! » فسأله يورى « أحسب الطاحون قديمة » فأجابه فون دايتز « قديمة جداً » ولما تجاوز النافذة المضيئة أطل منها ثم قال بلهجة المرتاح « لقد حضر خلق كثير » فأطل سانين ويورى مثله ورأيا رؤوسا تتحرك في سحابة من الدخان . فمال إلى النافذة رجل عريض الألواح يجعد الشعر وسأل « من هنا ؟ » فقال يورى « أصدقاء ! » .

ولما صعدوا السلم اصطدموا برجل صافحهم مصافحة الوداء وقال بنبرة يهودية بارزة « لقد خشيت أن لا تحضروا » وقام فون دايتز بواجب التعريف قائلاً « سنولوفتشك - سانين » فضحك سولوفتشك ضحكة المضطرب وقال « يسرنى أن ألقاك لقد سمعت عنك كثيراً وأنت تعرف ... » وتطرح الى الوراء دون أن يخفى كف سانين فاصطدم بيورى وداس على قدم فون دايتز فقال « عفواً يا جاكوف ادولوفتشك (دايتز) » وأخذ يهز كفه بقوة . وهكذا طال الامر قبل أن يبلغوا الباب وكان في الردهة صفوف من المسامير دقها سولوفتشك لاجتماع الليلة وبها القبعات معلقة وبجانب النافذة زجاجات خضراء ملأى بالجمعة . وسحب الدخان معقودة حتى في جو الردهة .

وبدا سولوفتشك في الضوء يهوديا شابا أسود العينين مجمد الشعر صغير
القسمات قبيح الاسنان بادبها إذ كان لا يزاله الابتسام .

فاستقبلهم القوم بضجة عالية وأبصر يورى سينا جالسة على حافة النافذة
فعاد كل شيء في عينه وضاحاً ساراً كأن الاجتماع لم يكن في حجرة مردولة
خاصة باللخان بل حفلة بين المروج الخضراء في الربيع .

فابتسمت له سينا وهي مرتبكة . وقال سولوفتشك وهو يحاول أن يرفع
صوته الضعيف الحوار وبداه تتحركان على نحو زرى ، ضحكك :

« أيها السادة : أحسبنا جميعاً قد حضرنا - أرجوك العنوا يا يورى ! إني دائماً
اصطدم بك » وضحك وهو يدفع نفسه إلى الأمام محاولاً أن يتوخمى الأدب
فضغط يورى على ذراعه وقال له « لا شيء ! » .

وصاح طالب حسن الوجه « لسنا جميعاً هنا لعنة الله على الباقين » وكان
صوته العالى يشعر أنه ألف أن يأمر سواه فوثب سولوفتشك إلى المنضدة
ودق جرساً صغيراً وابتسم مرتاحاً إلى أنه فكر في استعمال الجرس .

فصاح به الطالب « آوه ! لا تفعل هذا ! إنك مولع بكل أنواع
السخافات ! ليس بنا أدنى حاجة إلى هذا » .

فتمتم سولوفتشك « لقد . . ظننت . . أن . . » وارتبك ووضع الجرس
في جيبه فقال الطالب :

ينبغي أن تكون المنضدة في وسط الحجرة » .

فأجاب سولوفتشك « نعم نعم سأجرها حالا » وأسرع فأمسك بطرف
منها فصاحت ديوفا قائلة : « حاذر أن تكسر المصباح » .

وقال الطالب ودق ركبته : « إنها لا تنقل بهذه الطريقة » .

فقال سائين : « دعنى أساعدك » .

- « اشكرك » .

فوضع سائين المنضدة في وسط الحجرة ، وكانت كل عين تنظر إلى ظهره القوي وعضلات كتفيه التي كان قميصه الرقيق يشف عنها .

وقالت ديبوفا : « والآن يا جوشنكو من حيث أنك مقترح هذا الاجتماع فإن عليك أن تلقي الخطاب الافتتاحي » وكان من الصعب أن تعرف من عينها أجادة هي أم ضاحكة بالطالب .

فقال جوشنكو ورفع صوته :

« أيها السيدات . أيها السادة . إنكم جميعا تعرفون لماذا اجتمعنا الليلة هنا وعلى ذلك نستطيع أن نستغنى عن خطاب تمهيدى » .

فقال سائين : « الواقع أنى لا أعرف لماذا جئت ، ولكن ربما كان السبب أنهم قالوا لى إن هنا جمعة ! » وضحك .

فنظر إليه الطالب باحتقار ومضى فى كلامه :

« إن جماعتنا مؤلفة لتهديب النفس بواسطة المطالعة المتبادلة والمحاضرات والمناقشات المستقلة . . . » .

فقاطعت ديبوفا : « المطالعة المتبادلة ؟؟ لست بفاهمة ! » قالت ذلك بلهجة قد تعد ساخرة . فاحمر وجه الطالب وقال :

« أردت أن أقول مطالعة نشرك فيها جميعا ، فالغرض من جماعتنا هو تربية الرأى الفردى تربية تفضى الى أن يتألف فى هذه البلدة اتحاد يعطف على الحزب الديمقراطى الاشتراكى » .

فقال إيفانوف : « آها !! » وحك رأسه .

« ولكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد . أما فى مبتدأ الأمر فلن نتولى حل شىء من هذه المسائل الكبيرة . . . » .

فلقته ديبوفا : « أو الصغيرة » .

فتظاهر جوشنكو بعدم الالتفات إليها وقال : « وسنبداً بوضع برنامج يتضمن بياناً بالكتب التي ننوي أن نطالعها واقترح أن نقصر اجتماع الليلة على هذا العمل » .

فسألت دييوبا : « سولوفتشك . هل سيحضر عمالك ؟ » .

فوثب سولوفتشك كأنما كان لدغ وقال : « نعم سيحضرون ولقد أرسلت في طلبهم » .

فصاح الطالب : « لا ترفع عقيرتك هكذا ! » .

وقال شافروف وكان يصغى إلى خطاب جوشنكو باحترام :

« ها هم أولاء قد حضروا » .

وصر الباب وسمع نباح الكلب وانطلق سولوفتشك من الغرفة وهو يقول :
« لقد حضروا » وصاح بالكلب أن « أرقد يا سلطان » وسمعوا وقع أقدام ثقيلة وسعالا وأصوات رجال ثم دخل طالب هندسة شبيه بجوشنكو لولا أنه أسمر وأقل وسامة ودخل معه الحجرة عاملان مستحيان مرتبكان أكفهم خشنة وعلى كل منهما جاكته قصيرة تحتها قميص أحمر قذر وكان أحدهما طويلًا عربيًا يقرأ في وجهه الخلق النحيل آيات البورع سنين والكمد الباطن المخامر والبغض والسخط المكتومين . أما الثاني فله هيئة الرياضي وهو عريض الكتفين حسن الوجه مجعد الشعر وكان يتلفت حوله كالفلّاح إذ يرى مدينة لأول مرة . فتقدمهما سولوفتشك وقال بجد ووقار : « أيها السادة هؤلاء » .

فقاطعه جوشنكو كعادته : « كفى كفى ! عموا مساء أيها الرفاق » .

فقال طالب الهندسة مقدما رقيقة : « بتسوف وكودريانجي » .

فدخل الثاملان بخنور وصافحا الأيدي الممتدة للترحيب بهما وابتسم بتسوف وهو مرتبك أما زميله فكان يلوي عنقه الطويل كأنما كان الزيت « اليابقة » يخنقه . ثم جلسا إلى النافذة قرب سينا .

فسأله جوشنكو: «لماذا لم يحضر نيقو لايف؟» .

فأجاب بتسوف: «لم يستطع الحضور» .

وزاد كودريافجى: «لقد شرب حتى عمى» .

فقال جوشنكو وهز رأسه: «آه ! فهمت» .

فأثارت هذه الحركة التى أراد بها جوشنكو أن يعرب عن عطفه حتى يورى ووجد فى الطالب خصما شخصياً له .

وعاد الكلب إلى النباح فقالت ديبوفا «لقد حضر آخرون» .

فقال جوشنكو وتكلف الاستخفاف: «لعلمهم الشرطة» .

فصاحت ديبوفا: «إنى على يقين من أنك لا تكترث إذا كان الطارقون هم الشرطة !» .

فنظر سائين إلى عينيها الذكيتين وإلى جدائل شجرها الجميلة المرسلة على كتفيها وقال لنفسه: «إنها فتاة ذكية القواد» .

ووثب سولوفتشك كأنما بهم بالخروج ولكنه استعاد صوابه فتظاهر بأنه يتناول سيجارة على المنضدة . ولم تفت جوشنكو هذه الحركة فقال ولم يجب ديبوفا: «ما أكثر قلقك وحركاتك ياسولوفتشك» .

فاحمر وجه سولوفتشك وتجهم وخالجه الأسف على حماسه التى لا تستحق أن يكون جزاؤها هذا التعنيف . . ثم دخل نوفيكوف وهو باش مبتسم: «هذا أنا» . فقال سائين: «وكذلك نراك» وتصافحا . وهمس نوفيكوف فى أذن سائين على سبيل الاعتذار: «إن ليدا تستقبل زوار اليوم» .

وعاد طالب الهندسة إلى موضوعه فسأل: «هل جئنا للتكلم؟ ألا دعونا نبدا !» .

فقال نوفيكوف والسرور باد عليه: «إذا فأنتم لم تيدأوا: بعد؟» وصافح العاملين اللذين وثبا إلى اقدامهما وارتبكا لمقابلته هنا مقابلة الند والزميل وهو لا يعاملهما فى المستشفى إلا معاملة من هم دونه .

ثم أخذ جوشنكو يتكلم وبه بعض الغيظ وقال :

« أيتها السيدات ، ويا أيها السادة . إننا كلنا نريد بطبيعة الحال أن نوسع آفاقنا ونعمق نظرنا إلى الحياة ولما كنا نعتقد أن خير وسيلة لتهديب النفس أن نضع طريقة منتظمة للمطالعة وتبادل الآراء في ما نقرأ فقد رأينا أن ننشئ هذا النادي ... والمسألة الآن هي : أي كتب نقرأ ؟ ربما استطاع بعضكم هنا أن يقترح شيئاً . »

فوضع شافروف نظارته على عينيه ونهض في بطاء وفي إحدى يديه مذكرة صغيرة وقال بصوته الخاف المنفرد : « أرى أن نقسم برنامجنا قسمين . ولا بد في تهديب عقولنا وصقلها من أمرين دراسة تبدأ بأول أطوارها ودراسة الحياة كما هي في الواقع . »

فقالت ديبوفا : « إن شافروف قد بدأ يتفصح . »

واستمر شافروف : « فأما الأول فيتم بقراءة الكتب العلمية والتاريخية القيمة والثاني طريقه كتب الأدب ومنها نواجه الحياة . »

ولم يسع ديبوفا إلا أن تقول وفي عينها لمعة خبيثة : « إذا مضيت في كلامك على هذا النحو فسيأخذنا النوم . »

فقال شافروف بلطف : « إنني أجتهد أن يكون كلامي مفهوماً من الجميع . »

فقالت ديبوفا وأومات إيماءة التسليم بقضاء الله : « حسن جداً قل ما بذلك . »

وضحكت سبينا أيضاً من شافروف ودمت رأسها إلى الوراء فبدا للعين جيدها الاتلع الناصع وكانت ضحكها موسيقية منعمة .

فقال شافروف وعينه إلى ديبوفا : « لقد وضعت برنامجاً - ولكنني أخشى أن تملكم قراءته وأرى أن نبدأ بكتاب « أصل الأسرة » مع مؤلفات داروين . أما من حيث الأدب فلنبدأ بتولستوى . »

فصاح فون دايتز وهو راض عن نفسه وفي يده سيجارة يشعلها : «تولستوى بكل تأكيد !» .

وانتظر شافرون حتى أشعل صاحبه السيجارة ثم قال : « ثم بتشيكوف وابسن وكنوت همسون » .

فصاحت سينا : « ولكننا قرأنا كل هؤلاء ! » .

فاهتز يورى لصوتها وقال : « بالطبع ! إن شافروف ينسى أننا لسنا في مدرسة في وما أعجب هذا الخلط ! تولستوى وكنوت همسون ! » .

فساق شافروف بعض الحجج تعزيزا لرأيه ولكنه بعثها فلم يفهمه أحد فقال يورى وسره أن سينا تنظر إليه : « كلا ! لا أوافقك » وراح يشرح رأيه في الموضوع وأكثر ما يعينية من الكلام أن يفوز بموافقة سينا فحمل على مشروع شافروف حملة شعواء وأنهى حتى على ما يوافق عليه منه وتلاه جوشنكو فأدلى برأيه وكان يعد نفسه أذكاهم وأفصحهم وأعظمهم تهديبا وكان يتوقع أن يفوز بالحل الأول فغاظه ما وفق إليه يورى من النجاح فعارضه في رأيه وتلت ذلك مناقشة طويلة لا آخر لها وشرع نوفيكوف وجوتشكو وإيفانوف يتكلمون جميعا في وقت واحد واختلطت الأصوات اختلاطا لم يعد معه مجال للفهم ، ولزم سولوفتشك الصمت في هذه الحرب وجلس في زاوية يصنعى وكان في أول الأمر عظيم الاهتمام ثم لم يلبث الشك والأسى أن غضنا وجهه ورسا خطوطا حول فمه وعينه .

وكان سائين يشرب ويدخن ولا يقول شيئا وعلى وجهه دلائل الملل ولما علت الضجة ولم تعد محتملة وقف وأطفا سيجارته وقال : « ألا تشعرون أن هذه حالة لا نطاق ؟ » .

فقلت ديوبوفا : « إنها لكذلك حقا ! » .



وسأله جوتشكو : « كيف ذلك ؟ » .

فلم يلتفت إليه سائين وقال ليورى : « هل تعتقد أنك تستطيع أن ..

أتستخلص فكرة الحياة عن الحياة الكتب ؟ » .

فأجابه يورى بدهشة : « أعتقد ذلك بلاشك » .

فقال سانين : « إذا فأنت مخطيء ! إذا كان هذا صحيحاً فإن المرء يستطيع أن يصب الإنسانية كلها في قلب واحد بأن يجعل الناس يقرأون كتباً تنزع إلى منحى واحد . إن فهم الحياة لا يتأتى إلا من ملائسة الحياة نفسها في جملتها وليس الأدب أو مظاهر العقل الإنسانى إلا ذرة ضئيلة فيها . وليس في وسع أى نظرية عن الحياة أن تعينك عن تكوين فكرة عنها . لأن هذا رهن بمزاج كل فرد وخلق أن يختلف ذلك مادام الإنسان حياً . وعلى هذا فمن المحال عليك أن تكون فكرة محدودة مضبوطة عن الحياة كما تريد أن ... » .

فصاح يورى مغضباً : « ماذا تعنى بقولك (من المحال) ؟ » .

فقال سانين : « محال ولاشك ! لو أن تكوين فكرة عن الحياة نتيجة نظرية محدودة تامة لوقف تقدم الفكر الإنسانى . بل لا تقطع . وهذا كلام لا يقبل . إن كل لحظة تنطق بكلمة جديدة وواجبنا أن نصغى إليها وأن نفهمها دون أن نضع لأنفسنا قيوداً وحدوداً سابقة . وعلى أنه ما خير الجدل في هذا ؟ رأيك ماتشاء . إنما أسألك بامن قرأت مئات من الكتب لماذا عجزت إلى الآن عن تكوين فكرة محددة عن الحياة » .

فسأله يورى وبدا الغضب في عينيه : « لماذا تفرض أنى لم أفعل ذلك ؟ ربما كانت فكرتى عن الحياة كلها خطأ ولكن لى فكرة » .

فقال سانين « حسن جداً . إذا كانت لك فكرة فلماذا تبغى غيرها ؟ » .

وقالت سينا لنفسها : « ما أذكاه ! » وأعجبت به إنما إعجاب ، وجعلت تلحظه هو ويورى وأحست شيئاً من الخجل ولكنها كانت على هذا فرحة مسرورة فكأنما كان الاثنان يتجادلان في أيهما يفوز بها . .

ومضى سائين في كلامه فقال : « فأنت لاحتاجة بك إلى ما تطلبه عبثاً . وأرى كل امرئ هنا يحاول أن يكره غيره على الاقتناع برأيه ويخشى أن يقنعه الآخرون بأرائهم . الحقيقة بصراحة أن هذا عمل جداً » .

فقال جوتشنكو : « لحظة واحدة ! اسمح لي ! » .
فأجابه سائين بضجر : « كفى كفى ! لا بد أن لك فكرة رائعة عن الحياة وأن تكون قد قرأت أكواما من الكتب ! هذا واضح لا خفاء به ! ومع ذلك فإنك تغضب لأن غيرك لا يوافقك على رأى لك ! وشر من ذلك أنك تسيء معاملة سولوفتشك وهو لم يسيء إليك في حياتك ! » .
فذهل جوتشنكو ولزم الصمت .. وقال سائين : « يا يورى لا يغضبك أنى صارتك الآن . إنه لا يخفى عني أن في صدرك عراكا ! » .

فصاح يورى : « عراك ؟ » واجر وجهه ولم يدر أ يغضب أم يحتمل هذا القول ووقع في نفسه صوت سائين الساكن وقعاً عميقاً كما حدث وهما آتيان إلى هذا الاجتماع .

فأجابه سائين : « إنك تعلم أن الأمر كذلك . ولكنه لا ينفع المرء أن يعنى بهذا الهلر الصيباني . الحياة أقصر من ذلك » .
فصاح به جوتشنكو مغضباً : « اسمع . انك تدعى لنفسك أكثر مما يجب ! » .

فقال سائين : « ليس أكثر مما تدعى أنت » .

أجاب « كيف ذلك ؟ »

فقال سائين « فكر في الأمر وحدك : إن ما تقوله وتفعله أخشن وأسوأ أدبا من كل ما أقول ! » .

أجاب : « لست بفاهم » .

فقال سائين : « ليس هذا بذنبى » .

أجاب : « ماذا » .

فلم يجبه سائين وتناول قبعته وقال : « سأخرج فقد ضجرت » .

فقال إيفانوف : « هذا حق . وقد فرغت الجمعة » .

فقال ديبوفا : « لن نتقدم خطوة إذا سرنا على هذا النحو ، لهذا واضح » .

وقالت سينا : « رافقني في الطريق يا يورى » ، ثم التفتت إلى سانين وقالت : « إلى الملتقى » .

والتقت عيناها وعيناه فسرت في جسمها هزة سرور وقالت ديبوفا في الطريق : « وأسفاه ! لقد تداعى نادينا قبل أن يقوم » .

فقال صوت حزين : « ولكن لماذا ؟ » وكان صاحبه سولوفتشك يتطرح ويصطدم بكل واحد وكانوا قد نسوا وجوده فراعهم كآبته . فقال سانين وكأنه يفكر : « اسمع يا سولوفتشك سأزورك يوماً لنتحدث » . فانحنى سولوفتشك وقال : « بكل تأكيد . أرجوك أن تتفضل » .

ولما خرجوا من الحجرة المضاءة كان الظلام على أشده فكانوا يتعارفون بالأصوات دون الشخوص وسار العاملان على مسافة من الباقيين ولما ابتعدا قال أحدهما : « هذه حالهم أبدا . يجتمعون ويتحدثون عن عجائب ومعجزات ينوون إتيانها ثم يأتي كل منهم إلا أن يكون الأمر على هواه ومشيبته . إلا أنه لم يعجبني غير هذا الرجل الضخم (سانين) » . فقال صاحبه « ما أكثر ما نفهم حين يتجادل أمثالهم ! » ولوى عنقه كأنما يحنقه شيء فصفر رفيقه ساخراً بدل أن يجيبه .

- ٢٦ -

وقف سولوفتشك عند الباب برهة ينظر إلى السماء الغائمة ويفرك أصابعه الذميلة . وكانت الريح تزمزح حول الأبنية الخشبية وتحني رؤوس الأشجار المتقاربة كأنها جند من الأشباح . وكانت السحب في سباق دائم كأنما تدفعها قوة قاهرة إلى الأمام . أو كأنما تنتظرها جيوش يخطئها الحصر رفعت رايتها السوداء وخرجت في كل قوتها الرائعة إلى ميدان تنصارع فيه العناصر . وكانت الريح كأنما تحمل من حين إلى حين ضجة المعركة النائية .

وقف سولوفتشك ينظر إلى السماء وقد ملأت روعة المنظر نفسه .
فلج به الإحساس بضآلته وأنه لا شيء إزاء هذه الهيولى الهائلة . فنهد
وقال : « يا آلهى ! يا آلهى ! » . وكان إذا أضواء الليل يعود شخصاً آخر
غير الذى يعرفه الناس . وكذلك زايله القلق والارتباك الآن . واختفت
أسنانه الدميمة وراء شفتيه الحساستين وارتسمت في عينيه السوداوين نظرة
الجد والشجن .

ودخل البيت في ببطء وأطفأ مصباحاً لا ضرورة إليه ورد المنضدة
والكراسى إلى مواضعها وكانت الغرفة لا تزال ملاءى بدخان الطباقي والأرض
مبعثرة عليها أعقاب السجائر والكبريت . فتناول مكنسة وشرع ينظف
الغرف وكان يجب أن يرى مأواه نظيفاً مرتباً . ثم جاء بدلو ووضع في
مائه كسراً من الخبز وحمل هذا في يمينه ومد يسه را ليحفظ توازنه واجتاز
القناء بخطى قصيرة وكان قد وضع مصباحاً صغيراً قرب النافذة لتضيء
له طريقه ولكن الظلام مع ذلك كان طاغياً فلما وصل إلى ميت الكلب
تنفس الصعداء وتقدم كلبه « سلطان » ليقابله .

« آه . سلطان ! كوش كوش ! » أخرج هذه الأصوات لينشجع
ودفع الكلب أنفه البارد البليل في كف سيده فوضع له الدلو وقال له : « هذا
أنت » فشم الكلب الدلو ثم أنطلق يأكل بنهم وسيده واقف بجانبه يتأمل
الظلام المحيط ويقول لنفسه :

« ماذا أصنع ؟ كيف أستطيع أن أحمل الناس على تغيير آرائهم ؟
لقد كنت أنا نفسى أتوقع أن يعلمنى الناس كيف أعيش وكيف أفكر .
ولقد ضمن على الله بصوت النبى فكيف أساعد الخلق ؟ » .

وزام الكلب راضياً . فقال سيده : « كل واشبع . لقد كنت أود أن
أطلقك لتعدو قليلاً ولكن المفتاح ليس معى وأنا متعب مجهود . . . إيه
— ماذكى من كانوا هنا الليلة وأعلمهم وأمهرهم ! إنهم يعرفون شيئاً كثيراً .

نصارى طبيون على الأرجح ! وهذا أنا .. من يدري ؟ لعل هذا خطأى
وحدى . لقد كنت أحب أن أقول لهم كلمة . ولكنى حرت كيف أقولها .
وحملت الريح من وراء المدينة صغيراً طويلاً هافياً فرفع الكلب رأسه
وأصغى وسقطت قطرات كبيرة من كمامته فى الدلو . فقال صاحبه : « كل
واشبع إن هذا صوت المطر » .

فتهدد الكلب وقال سيده : « ترى هل يعيش الناس أبداً على هذا النحو؟
ربما أعياهم ذلك » وهز كتفيه يائساً . وبدأت له فى الظلام صورة حشد
هائل من الخلق لا آخر له كالأبد يغيب ويختفى فى الظلام — سلسلة قرون
لا مبدأ لها ولا منتهى — سلسلة متصلة الحلقات من آلام وأوجاع لا دواء
لها ولا شفاء منها وفوقها حيث عرش الله سكون أبدى !

واصطدم الكلب بالدلو فقلبه وأخذ يبصيص بذنبه وسمع صوت سلسلته
فسح سولوفتشك ظهره وربته وأحس هزة السرور تسرى فى كيان الكلب
ثم انقلب إلى البيت وكان يسمع منه صوت سلسلته وبدأ الفناء أقل ظلمة
والطاحون أشد جهامة بمدخنها الطويلة والتمع فى السماء خط عريض من النور
أضاء المدينة هنيئة فبدت للعين أزهارها الصغيرة الضعيفة مطرقة تحت السماء
الثائرة وأعلامها السوداء المنذرة التى نشرها الليل .

وغلب الحزن سولوفتشك وراخى أعصابه الشعور بالوحدة وبخسارة
لا عوض عنها فدخل غرفته وجلس إلى المنضدة وبكى .

كتب سارودين رسالة إلى ليدا وقعت فى يد أمها ماريا إيفانوفنا، وفيها
يطلب إليها أن تأذن له فى الحضور ليراها ، ويشير إلى أن هناك أموراً يمكن
أن تسوى على نحو مرضى ، فرأت ماريا إيفانوفنا أن هذه الصفحات تلقى
ظلاً مخجلاً على ابنتها الطاهرة ، فارتبكت وذكرت معاشقتها فى صدر أيامها
وما كان فيها من خدع ، وزواجها وما تحلله من آلام ، وكانت حياتها سلسلة

طويلة من الأوجاع صاغتها قوانين الأخلاق الحرجة ومدتها إلى حدود الشيخوخة .

وهاجت لما خطر لها أن ابنتها كسرت الحائط الذى يدور بهذه الحياة القذرة وانغمست فى الدوامة التى تختلط فيها اللذات والاحزان والموت ، وقالت لنفسها : « يا لها من فتاة خسيصة خبيثة ! » وهوى ذراعها إلى جانبها . ثم خطر لها فجأة أن الأمور ربما كانت لم تبلغ هذا المدى فعزاها ذلك وتلت الرسالة ثم تلها غير أنها لم تستخلص شيئاً من أسلوبها الجاف المتكلف ولما أعياها الأمر بكت بكاء مرا ثم سوت قبعها وسألت الخادمة : « دونيكا ! هل فلاديمير سائين هنا ؟ » فصاحت دونيكا : « ماذا ؟ » أجابت : « أيتها الحمقاء إني أسألك هل فلاديمير سائين هنا ؟ » .

قالت : « لقد ذهب إلى المكتبة ! وهو يكتب رسالة ! » .

وانبسطت أسارير الخادمة كأنما كانت كتابة الرسالة مبعث سرور غير عادى فحملت ماريا فى الفتاة والتمتع فى عينيها الذابلتين نور الشر وقالت : « أيتها الورهاء ! لئن أجتأت أن نحمل رسائل مرة أخرى لألقنك درساً لن تنسينه عمرك ! » .

وكان سائين جالساً إلى مكتب ولم تألف أمه أن تراه يكتب فارتاحت إلى هذا المنظر على الرغم من حزنها وسألته : « ماذا تكتب ؟ » . فقال سائين ورفع رأسه إليها باسم : « رسالة » .

قالت : « لمن الرسالة ؟ » .

أجاب : « لصحفى أعرفه . فإني أفكر فى الالتحاق بجريدته » .

قالت : « وهل تكتب مقالات للصحف ؟ » .

فابتسم سائين وقال : « إني أصنع كل شيء » .

فقالت أمه : « ولكن لماذا تريد أن تذهب إلى هناك ؟ » .

فقال سائين بصراحة : « لقد مللت العيش معك يا أماه » .

فتألمت أمه لذلك وقالت : « أشكرك » فراقها سائين ونازعته نفسه أن يقول لها لا ينبغي لك أن يبلغ من حممك أن تتصورى أن رجلاً ليس له عمل يمكن أن يرتاح إلى البقاء أبداً في مكان واحد ولكنه لم يكن يحب أن يقول شيئاً من هذا فسكت .

فأخرجت أمه منديلها وفركته بين أصابعها ولولا رسالة سارودين وحزنها وقلقها من جرائها لساءتها خشونة ابنها ولكنها لم تزد على أن قالت : « نعم ! واحد يتسلل من البيت كالذئب والأخرى » .

وأتمت الحملة إيماءة التسليم بالقضاء .
فرفع سائين رأسه إليها بسرعة وألقى القلم وسألها : « ماذا تعرفين عن هذا » .
فخرجت ماريًا إيفانوفنا من أنها قرأت رسالة ليذا واحمر وجهها وأجابته بصوت المتردد يشوبه شيء من الغيظ :

« الحمد لله . لست بالعمياء ! وإني لأستطيع أن أرى » .
فقال سائين بعد أن فكر هنيهة : « ترين ! إنك لا تستطيعين أن ترى شيئاً . ولكي أثبت لك ذلك دعيني أهنتك بخطبة ابنك ! وكانت ستخبرك بهذا بنفسها » .

فصاحت ماريًا إيفانوفنا واعتدلت قامتها : « ماذا ؟ ليذا ستزوج ؟ تتزوج من ؟ » أجاب : « نوفيكراف بالبداهة » .

قالت : « نعم ولكن ما القول في سارودين ؟ » .
فقال سائين بغضب : « آوه ! إنه يستطيع أن يذهب إلى الشيطان وما شأنك بهذا ؟ لماذا تتدخلين في شئون غيرك ؟ » .

فقالت أمه وبها بعض الدهشة إلا أنها أحست هزة الفرح :
« نعم ولكني لم أفهم تماماً يا فولودجا . أن ليذا ستزوج ؟ » .

فهمز سائين كسفيه وقال : « ما هذا الذي لا تفهمينه ؟ لقد كانت تحب رجلاً وهي الآن تحب غيره ، وغداً تحب ثالثاً . حسن . بارك الله في معاشقها ! » .

فصاحت ماريًا إيفانوفنا مغضبة: « ماهذا الذى تقوله ؟ » .

فقال سانين إلى المكتب وطوى ذراعيه وسألها بغضب :

« هل لم تحبى فى حياتك إلا رجلاً واحداً ؟ » .

فنهضت ماريًا إيفانوفنا وارتسمت على وجهها المغضن أمارات الشموخ والتعالى وقالت بحدة :

« لا ينبغي للمرأة أن يخاطب أمه بهذا اللسان » .

فسألها : « لا ينبغي لمن ؟ » فقالت « ماذا تعنى بمن ؟ » .

فقال وصعد نظره فيها وصوبه : « من الذى لا ينبغي أن يتكلم ولحظ لأول مرة فراغ نظره عينها وسخافة هيئة القبعة على رأسها ، فقالت بصوت مخنوق : « لا ينبغي لأحد أن يوجه إلى مثل هذا الكلام » .

فقال سانين واستعاد سكينة وأمسك القلم : « مهما يكن من ذلك فقد فعلته وانقضى الأمر . لقد فزت بنصيبك من الحياة ولا حق لك فى منع ليذا من طلب نصيبها » .

فلم تجبه بشيء وراحت تحلجه بنظرات الدهشة وأسرعت فنفت ذكريات شبابها وكل ما كان فى ليالى حبه الفرحة وعلقت بذهنها هذا السؤال وحده : « كيف يجرؤ أن يخاطبني بهذا اللسان ؟ » وقبل أن تهتدى إلى جواب ماالتفت إليها سانين وتناول يدها فى رفق وقال : « لا يؤملك هذا أو يزعمك وإنما يجب عليك أن تمنى سارودين من دخول البيت لأنه يستطيع أن يلعب معنا دوراً قذراً » .

فهدأت ماريًا إيفانوفنا وقالت : « بارك الله فيك يا بنى . وإنى لمسرورة جداً فقد كنت دائماً أحب ساكا نوفييكوف ، نعم لا نستطيع أن نستقبل سارودين . هذا لا يمكن من أجل ساكا » .

فقال سانين وفى عينيه نظرة فكهة .

كلا ! هو كما تقولين ! من أجل ساكا » .

وسأله أمه « وأين ليذا ؟ » أجاب سانين : « فى غرفتها » .

فقال : « وساكا ؟ » ونطقت مختصر اسمه هذا بعطف فقال سانين : « لا

أدرى : لقد ذهب إلى ... » .

وفي هذه اللحظة دخلت دونيكا الخادمة وقالت :

« فيكتور سارودين وسيد آخر معه » .

فقال سائين : « أطرديهما من البيت » .

فابتست دونيكا ابتسامة صبيانية وقالت :

« سيدى كيف أستطيع ذلك ؟ » .

فقال سائين : « تستطيعين بالطبع ! ما شأنهما هنا ؟ » .

فأخفت دونيكا وجهها وخرجت . ومدت ماريا إيفانوفنا قامتها حتى صارت فى رأى العين أبيض وأصغر لولا أن فى عينها نظرة شر . وكانت قد غيرت وجهة نظرها إلى الموضوع بسرعة مذهشة وسهولة عجيبة فبعد أن كانت تحس لسارودين رقة فى قلبها لما كانت ترجو أن يتزوج من ابنتها عادت فأحست له شتانا لما أدركت أن غيره سيتزوج منها وأن سارودين لم يكن إلا طالب حب .

واستدارت لتخرج ولحظ سائين تحجر وجهها وصلابة نظرتها فقال لنفسه : « هاهنا دجاجة عتيقة لك يا سارودين ! » وطوى الرسالة التى كان يكتب وتبعها ليرى على أى حال ينتهى الأمر .

وبالغ سارودين وفلوتشين فى تحيتها ولكن سارودين فقد سلاسة شمالكه وقلق فلوتشين قليلا إذ كان قد جاء لغرض واحد هو أن يرى ليدا فاضطر أن يكتم غايته .

وبدا الاضطراب على سارودين على زغم تكلفه وأجس أنه لم يكن يجمل به أن يأتى وأشفق من لقاء ليدا ولكنه لم يكن يحب أن يطلع فلوتشين على هذا السر إذ كان يريد أن يظهر أمامه فى مظهر الفاتك اللهج فقال وتصنع الابتسام :

وعزى قى ماريا إيفانوفنا . أسمحى لى أن أقدم إليك صديقى بول فلوتشين .

فقال ماريا بأدب جاف : « مسرورة » ولمح سارودين جفوة النظرة التى فى عينها فاضطرب وأدرك أنه لم يكن ينبغى له أن يحضر بعد أن كان قد غفل

عن هذا في حضرة صديقه . وقد تدخل ليدا في أى لحظة — ليدا أم طفله — فاذا يقول لها ! كيف يواجهها ؟ وربما كانت أمها على علم بما وقع بينهما ! فاضطرب في كرسيه وأشعل سيجارة وهز كتفيه وحرك رجله وتلفت يمينا وشمالا .

فقالت ماريا لصاحبه بصوت بارد متكلف : « هل تطول إقامتك هنا؟ » فقال . « كلا ! » وجعل ينظر إلى هلبة السيدة الريفية نظرة الارتياح والرضى عن النفس وزج سيجارته في زاوية فكهان الدخان يصعد إلى وجهها مباشرة فقالت : « لاشك أن الحياة هنا مملة بعد بطرسبرج » .

قال : « إنها على العكس للذيذة في هذه البلدة الصغيرة » . قالت : « يحسن أن تزور الجهات المجاورة فإنها متزهات بهيجة وفيها أماكن للسياحة والتجديف » .

فقال فلوتشين وبدأ يسأم : « بالطبع يا سيدتي بالطبع » . وتعثر الحديث وصاروا جميعاً كأنما على وجوههم صور مستعارة باسمه تخفى تحتها عيوناً متعادية . ونظر فلوتشين عن عرض إلى سارودين نظرة لا سبيل إلى الخطأ في فهم مدلولها ولم تفت سائين دلالها وكان يرقب كل شيء من الركن الذي وقف فيه .

ولكن خوف سارودين أن يستصغر أمره صاحبه ولا يرى فيه ما زعمه من اللباقة والجرأة والفتك رد إليه شيئاً من عازب ثقته بنفسه وجرأته فسأل ماريا : « وأين ليدا بتروفنا » .

فنظرت إليه ماريا غاضبة مذهولة وقالت له عيناها : « ما أنت وهذا إذا كنت أن تزوجها » ثم قالت يحفاء : « لا أدري ! لعلها في غرفها » .

فرمى فلوتشين نظرة أخرى إلى زميله معناها : « ألا تستطيع أن تستتر ليدا بسرعة ؟ إن هذه العجوز مملة » .

ففتح سارودين فيه ولوى شاربیه . وقال فلوتشين باسمها وفرك كفيه ومال إلى ماريا إيفانوفنا .

« لقد سمعت ثناء طيباً على ابنتك فطمعت أن أتشرف بمعرفتها » .

فعجبت ماريا إيفانوفنا لهذا الوقع ماذا سمع عن ابنتها وقام في نفسها أن ابنتها زلت وهوت . فاضطربت ولانت نظرتها . فقال سانين لنفسه : « إذا لم يطردا الآن فسيبيان متاعب الليدا ونوفيكوف » ثم قال فجأة لسارودين وهو ينظر إلى الأرض مفكراً :
« سمعت أنك مسافر » .

فعجب سارودين كيف لم يخطر له هو هذا العذر واستحسن الفكرة وقال لنفسه : « لقد وجدت تكأة ! إجازة شهرين » قبل أن يجيب بسرعة :
« نعم لقد كنت أفكر في السفر لأن الإنسان محتاج إلى الانتقال وطول مقام المرء في مكان واحد خليق أن يكسوه طبقة من الصدا » .

فضحك سانين ضحكاً عالياً وسره هذا الحديث الذي ليس فيه كلمة واحدة صادقة معبرة عن حقيقة مافي النفوس—وهذا الخداع الذي لم يندع أحدا .
ووجد ارتياحاً وحرية فنهض وقال :
« إذا فكلما كان ذلك أسرع كان خيراً » .

فتمزق الحجاب في لحظة واحدة وتغير الثلاثة الآخرون واصفرت ماريا إيفانوفنا ونطقت عين فلوتشين بالخوف الحيواني ونهض سارودين في بطاء وتردد وسأل بصوت مبحوح :
« ماذا تعني ؟ » .

وتطرح فلوتشين وجعل يتلفت باحثاً عن قبعته .

ولم يجب سانين على سؤال سارودين بل ناول فلوتشين قبعته بخبث وكان هذا مفتوح الفم فخرج منه صوت مخنوق وصاح سارودين مغضباً :
« ماذا تعني بهذا ؟ » وقال لنفسه : « فضيحة ! » .

فأجاب سائين: « أعنى أن وجودك هنا لا ضرورة له على الإطلاق ،
وأنه يسرنا أعظم السرور أن لا نراك » .

فتقدم سارودين خطوة وهو مضطرب وأسانه تلمع مهددة كأسان
الوحش وتمم وأنفاسه مسرعة : « آه ! أهذا كذلك ؟ » .

فقال سائين باحتقار : « اخرج » وأكن لهجته بلغ من هولها أن حملق
سارودين وتراجع .

وقال فلوتشين بأخفت صوت : « لا يدري إلا الشيطان معنى هذا »
ورفع كتفيه ومضى إلى الباب .

ولكن ليدا كانت واقفة في حرم الباب وفي ثياب غير المألوفة وكان
شعرها مضفراً والصفيرة مدلاة على ظهرها وثوبها واسع مرسل فزادت
بساطته في جمال شكلها .

وابتسمت فظهر الشبه بينها وبين أخيها وقالت بصوتها الرخيم الغض :
« هذا أنا . لماذا تسرعان ؟ فيكتور سارودين ضع قبعتك » . فصمت
سائين ونظر إلى أخته مذهولاً وقال لنفسه : « ماذا ترى تعنى ؟ » .

وما كادت تظهر حتى وجدوا لها تأثيراً خفياً رقيقاً لا سبيل إلى
مقاومته فكأنها وهى واقفة هناك مروضة أمام قفص غاص بالوحوش
الضارية فهذا الرجال وأذعنوا .

وتمم سارودين : « هل تعلمين أننا .. » .

فلما سمعت صوته ارتسم على وجهها الألم فنظرت إليه وخامرها الأسى
والرقة والأمل ولكن هذه الإحساسات لم تلبث أن عفت عليها الرغبة الوحشية
في أن ترى سارودين مبلغ خسارته وأنها مازالت جميلة وضاعة على الرغم من
كل أساها وعارها اللذين كلفها إياهما .

فأجابته بصوت الأمر : « لا أريد أن أعرف شيئاً وأنعمضت عينها
فأحدث وجودها تأثيراً غريباً في نفس فلوتشين فبرز لسانه الصغير الحاد من
بين شفتيه الجافتين وصغرت عيناه واهتز كيانه . وقالت ليدا لسارودين :
« لقد نسيت أن تعرف بعضنا ببعض » .

فتمتم : « فلوتشين . . بافل لفوفتش . وقال لنفسه : » وهذه الجميلة كانت عشيقتي . .

والتذ هذا الخاطر وأراد أن يتظاهر أمام فلوتشين بغير الواقع وإن كان قد امضه الشعور بخسارته التي لا تعوض .

فقالت ليدا لأمها في فتور : « إن أناساً يريدون أن يقابلوك » .

فأجابت ماريا إيفانوفنا : « لا أستطيع الذهاب إليهم الآن » .

فألحت ليدا : « ولكنهم ينتظرون » .

فنهضت ماريا إيفانوفنا بسرعة وراقب سائين أخته وقالت هذه : « ألا تذهبون إلى الحديقة ؟ إن الجو هنا حار لا يطاق » ومضت الحديقة دون أن تلتفت وراءها .

وكأنما سحرتهم فتبعوها وكأنما كانوا مقيدين إليها بخصل شعرها فلو شاءت لجرتهم إلى حيث راقها وكان أسبقهم فلوتشين الذي سباه حسنها ونسى كل ما عداه .

وجلس ليدا على كرسي هزاز تحت شجرة الزيزفون ومدت قدميها الصغيرتين الجميلتين في جوربيها الشفافين الأسودين وحذاءيها القصيرين وكأنما كانت لها طبيعتان إحداهما كلها أدب وخجل ، والثانية كلها إحساس بنفسها وحسن دلالها . وكانت الأولى تغريها باستفطاع الرجال والحياة ونفسها .

ثم قالت وهي مطرقة : « والآن يا فلوتشين أى أثر كان لبلدتنا الصغيرة الفقيرة النائية في نفسك ؟ » .

فأجابها فلوتشين وهو يفرك كفيه : « تأثير الزهرة المونقة تصافح عين الموغل في قلب الغابة المظلمة » .

ثم بدأ حديث فارغ متكلف . كل ما يجري به اللسان منه كاذب زائف وكل ما يطرونه هو الصادق . وجلس سائين في صمت يصغى إلى أحاديث النفوس الصامتة المخلصة التي كانت تنطق بها الوجوه والأيدى والأقدام

واضطراب نبرات الصوت : وكانت ليدا شقية وفلوتشين يشاق جمالها وسارودين يحقها ويمقت سائين وفلوتشين والدنيا جميعها وكان يحب أن يفارقهم ولكنه لم يستطع أن يتحرك ونازحته نفسه أن يأتي أمراً فاضحاً غير أنه لم يسعه إلا أن يدخن سيجارة بعد أخرى وهو أشد ما يكون رغبة أن يعلن إلى الحضور أن ليدا عشيقته .

وعادت ليدا فسألت فلوتشين « وكيف تحب المقام هنا ؟ ألا تأسف لتركك بطرسبرج وراءك » ونفسها تتقطع حشرات وهي تعجب لأمرها لماذا لا تهض وتدعهم .

فقال فلوتشين بالفرنسية ولوح بيده وحلق في ليدا : « على العكس ! » فقالت ليدا بدلال « اسمع ! اسمع ! دعنا من الخطب الجميلة » وكان جسمها يقول لسارودين « إنك تظنني شقية أليس كذلك ؟ وأنني سحقت ؟ ولكنك يا صاحبي مخطيء ! أنظر إلى ! » .

فقال سارودين : « يا ليدا بتروفا ! كيف تسمين هذا خطبة جميلة » فسألته ليدا بحفوة : « عفواً ياسيدى ماذا تقول ؟ » كأنما لم تكن سمعته ثم عادت إلى كلام فلوتشين بلهجة أخرى :

« حدثنا عن الحياة في بطرسبرج » إننا هنا نعيش كالنبات .

ورأى سارودين أن فلوتشين يبتسم لنفسه ابتسامة من لا يصدق أن سارودين كانت له بها علاقة متينة فعرض شفثيه وتويع .

فتعلقت عين فلوتشين بجمال ليدا وانطلق يهضب وكأنه القرد الصغير يهذى بما لا يفهم وقال : « حياة بطرسبرج الشهيرة ؟ إنى أؤكد لك بشرى أن حياتنا ملة لا لون لها . ولقد كانت هذه الحياة إلى ما قبل اليوم كذلك في بطرسبرج وفي غيرها » .

فقالت ليدا وأطبقت جفونها : « أ كذلك تقول ؟ » .

وأتم فلوتشين كلامه فقال : « إن الذى يجعل للحياة قيمة ... هو المرأة الجميلة . وما ظنك بالنساء فى المدن الكبرى ؟ آه لو ترينهن ! وصدقيني إنى مقتنع بأنه لن ينقذ الدنيا ويخلصها - إذا كان شيء من ذلك مقدوراً لها سوى الجمال » ولم يكن يريد أن يقول هذا ولكنه نطق به فجأة لظنه أنه أليق ما يكون وكانت لحظة وجهه ناطقة بالغباء والشره وهو يكر فى حديثه إلى موضوع المرأة الذى لم يكن أشهى منه عنده . وكان سارودين يحمر تارة ويصفر أخرى من الغيرة فلم يطق الجلوس فى مكان واحد فهض وجعل يتمشى وقال فلوتشين :

« إن نساءنا كلهن سواء كل واحدة منهن صورة طبق الأصل من الأخرى . فن طلب امرأة يستحق جمالها العبادة فليذهب إلى الأقاليم حيث الأرض بكر تخرج آتى الأزهار » .

فحك سائين قناه ووضع إحدى رجليه فوق الأخرى .

فقال ليذا : « وما خير ان تنفتح هذه الأزهار هنا إذا لم يكن ثم من هو أهل لقطفها ؟ » .

فاهتم سائين فجأة وقال لنفسه : « آها ! أهذا ما تقصد إليه » والتذ هذا التلاعب بالألفاظ .

فسألها فلوتشين : « أهذا ممكن ؟ » .

فأجابته ليذا بحرارة : « نعم هو كذلك ! وإنى لأعنى ما أقول من الذى يقطف أزهارنا السيئة الحظ ؟ ما هؤلاء الرجال الذين نحسبهم أبطالا ؟ » .

فسألها سارودين : « ألا تظنين أنك قاسية علينا فى هذا الحكم ؟ » .

فقال فلوتشين : « كلا ! إن أيدا بتروفنا مصيبة ! » ونظر إلى سارودين

فانقطع تيار فصاحته . فضحكت ليذا ضحكا عاليا وأثارت نظرها إلى سارودين وقلبت امتزجت فى نفسها عواطف الحجل والامسى والانتقام وعاد فلوتشين إلى الكلام وجعلت ليذا تقاطعه بالضحك لتخفى دموعها :

فقال سارودين : « أظن أن الوقت قد أزف فلنقم » وأحس أن الموقف لا يحتمل ولم يكن يدري لماذا . ولكن كل شيء — ضحك ليدا ونظراتها الساخرة واضطراب يديها — كان له وقع اللكم على الأذن وأضناه بغضه المتزايد لها وغيرته من فلوتشين وشعوره بما فقد . فسألته ليدا : « بهذه السرعة ؟ » .

فأفتر ثغر فلوتشين ولحس شفقيه بطرف لسانه وقال بلهجة المتهمم وقد زهاه انتصاره : « لاحياة لنا . إن فيكتور سارودين على ما يظهر متغير » .

وودعوا ولما انحنى سارودين على يد ليدا همس : « إن هذا فراق بيني وبينك » ولم يشعر ليدا بمثل هذا المقت .

ونازعت ليدا نفسها هنية أن تودع تلك الساعات الخالية ساعات الحب التي نعما بها ولكنها خفت هذه الرغبة وقالت بصوت خشن عال : « الوداع سفر سعيد ! لا تنسنا يا بافل لفوفتش ! » .

ولما انصرفا كانت ليدا وأخوها يسمعان فلوتشين وهو يقول : « ما أفتنها : أنها تسكرني مثل الشمبانيا ! » .

وجلس ليدا على الكرسي المزاز وتغيرت هيئتها ومالت إلى الأمام وأطرقت وجعلت ترجف ودموعها تنساقط .

فقال سانين وتناول يدها : « تعالى ! تعالى ما الخير ؟ » .
فقالت ليدا : « آه ؟ دعني ! ما أفضع الحياة » وتدل رأسيها وغطت وجهها براحتها وكانت ضفيريها الناعمة المصقولة قد زلت عن كتفها إلى صدرها .

فقال سانين : « ما خير أن تبكى لمثل هذه التوافه ؟ » .

ههمت ليدا : « أليس في الدنيا إذاً من هم خير من هؤلاء الرجال ؟ » .
فابتسم سانين وقال : « كلا ! على التحقيق : إن الإنسان سافل بطبيعته .

فلا تتوقعى منه شيئاً من الخير وإذا وطنت نفسك على هذا لم يحزنك ما يصيبك من شره .

فرفعت ليدا إليه عينيها الجميلتين المغرورقتين وسألته :
 « أولا تنتظر أنت كذلك شيئاً من الخير من أبناء جنسك ؟ » .
 فأجابها سائين : « كلا ! بالبداية . إلى أعيش في هذه الدنيا وحدى » .

— ٢٨ —

في اليوم التالي ذهبت دونيكا تعدو إلى سائين ورأسها عار وكذلك قدمها
 وكان في الحديقة وصاحت به وفي عينيها آيات الفزع :
 « فلاديمير بتروفتش ! قد جاء الضباط وهم يطلبون أن يحاذنوك ! »
 ورددت هذه الكلمات كأنما كانت درسا حفظته عن ظهر قلب .
 فلم يعجب سائين إذ كان يتوقع ذلك من سارودين وسأها بلهجة المغتبط
 المازح : « هل يشتاقون جداً أن يقابلوني ؟ » .
 ولا بد أن تكون دونيكا توقعت شيئاً مزعجاً ذلك أنها لم تخف وجهها
 بل طفقت تحديق في وجه سائين وترنو إليه رنو العطف والذهول .
 فأسند سائين فأسنه إلى شجرة وشد حزامه ومضى إلى البيت في تودة على
 عادته وكان يقول لنفسه : « ما أسخفهم وأشد غباءهم ! » وهو يفكر في سارودين
 ورسوليهِ ولم يكن يقصد بهذا إلى الطعن فيهن بل إلى مجرد الإعراب عن رأيه
 الصريح المخلص في سلوكهم .
 ولقي في طريقه ليدا خارجة من غرفتها فوقفت على العتبة ووجهها باهت
 ممتنع وعيناها قلقتان محزونتان وشفاتها تختلجان دون أن ينبثا وكانت في هذه
 اللحظة تحس أنها أشقى النساء في العالم وأعظمهن جرماً .
 ورأى ماريّا إيفانوفنا جالسة على كرسي ذى ذراعين أشد ما تكون
 فزعا ويأسا وعلى رأسها قبعتها مائلة إلى أحد خلفيها فألقت إلى سائين نظرة
 فرعة وخانها الكلام فابتسم لها وهم بأن يقف معها هنيهة ولكنه أثر أن يمضي
 لشأنه .

وكان تاناروف وفون دايتز جالسين في غرفة الانتظار جلسة صلبة ورأس كل منهما إلى زميله كأنما كانت تضايقهما ثيابهما المشدودة فلما دخل سائين وقفا في بطاء وتردد كأنهما في شك مما يجب عليهما نحوه . فقال سائين بصوت عال : « عما صباحاً » ، ومد إليهما كفه فتردد فون دايتز وانحنى تاناروف وبالغ في الانحناء حتى لا استطاع سائين أن يرى قفاه وعاد سائين فقال :

« أي خدمة أستطيع أن أقدمها لكما ؟ » ولم تفته مبالغة تاناروف في التأديب وعجب له كيف وسعه أن يقوم بدوره السخيف بهذا الاطمئنان . فاعتدل فون دايتز وأراد أن يكسب وجهه المملوط كوجه الحصان هيئة الجلد والوقار إلا أنه لم يفلح في هذا الذي عاجله لفرط اضطرابه . ومن الغريب أن تاناروف — وهو في العادة سخيف حيي — هو الذي خاطب سائين بلهجة حاسمة مترنة فقال :

« إن صديقنا فيكتور سارودين قد أولانا شرفاً بأن طلب إلينا أن نمثله في أمر معين يعينكما » — ألقى هذه الجملة بإحكام الآلة وضبطها . فقال سائين : « أهو ! » بوقار مضحك وفتح فمه على آخره ومضى تاناروف في كلامه معبساً قليلاً :

« نعم ياسيدى . أنه يرى إن سلوكك نحوه لم يكن .. أحسن .. أ.... » . فقاطعه سائين وقد بدأ صبره ينفذ : « نعم نعم . فهمت . لقد كدت أطرده من البيت لكرا برجلي فقولاك لم يكن « أحسن .. » أقل العبارات صلاحاً للعبارة عما حدث » .

فلم يلتفت تاناروف إلى هذا الكلام وقال :

« حسن ياسيدى . إنه يصبر على أن تسحب ألفاظك » .

وأيدى فون دايتز بنعم نعم وكان يتقل رجليه كالجواد فابتسم سائين وقال : « أسحب ألفاظي ؟ كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ إن الكلمة كائناثر خرج من قفصه ! » .

فحار تاناروف واربتك وحدث في وجه سائين بدل أن يرد عليه وقال سائين لنفسه « واسوأنا لعينيه ! » ثم استأنف تاناروف الكلام وهو مغضب : « إن هذه ليست بالمسألة التي يجوز فيها المزاح فهل أنت مستعد لسحب كلامك أم غير مستعد ؟ » .

فصمت سائين برهة وجيزة وقال لنفسه « ما أغباه » وهو يتناول كرسيًا ثم جلس وقال بلهجة الجدل : « ربما كنت مستعداً أن أسحب كلامي لأرضي سارودين وأسكن نفسه لاسيما وأنا لا أعلق أضال أهمية بما قلت له . ولكن سارودين أولاً لغبائه أبى أن يفهم الباعث لى على كلامي ثم هو يأبى الآن إلا أن يلغظ بالأمر بدل أن يضبط لسانه ثم أتى ثانياً أمقت سارودين كل المقت ولست أرى في هذه الظروف أى مبرر لسحب كلامي » .

فقال تاناروف بصوت أشبه بالصغير : « حسن جدا . وإذا ... » .
وحملق فون دايتز مذهولاً واصفر وجهه الطويل .
وعاد تاناروف فقال بصوت عال أراد به الوعيد : « في هذه الحالة » .
فزاد كره سائين لهذا المخلوق وهو ينظر إلى جبهته الضيقة وثيابه المشدودة وقاطعه قائلاً : « نعم نعم . إنى أعرف كل ذلك . ودعائى أقل لك شيئاً واحداً وهو أنى أنوى أن لا أبارز سارودين » .
فاستدار فون دايتز بحدة ومط تاناروف جسمه وسأله بلهجة المحتقر : « ولماذا من فضلك ؟ » .

فانفجر سائين ضحكاً وزال كرده له بأسرع مما جاء وقال :
« حسن . أذكر لك السبب . إنى أولاً لا أريد أن أقتل سارودين وأنا — ثانياً — أقل رغبة فى أن يقتلنى أحد » .
فقال تاناروف باحتقار : « ولكن ... » .

فقاطعه سائين ووقف : « لن أبارزه والسلام . لماذا ؟ إنى لا أميل إلى تعليل شيء أو تفسيره لكما ، وإن ماتطلبان لأكثر مما لكما الحق فيه » .
وكان احتقار تاناروف لهذا الرجل الذي يأتي أن يبارز متمزجاً باعتقاده

أن الضابط وحده هو الذى رزق الشجاعة والإحساس بالشرف اللازمين لهذا العمل . ومن أجل ذلك لم يدهشه أن يرفض سائين بل لعل الرفض سره . فقال بلهجة زارية :

« هذا شأنك ولكنى لأرى بدا من تحذيرك ... »

فضحك سائين وقال : « نعم نعم ولكنى أنصح لسارودين أن لا ... » .

فقاطعه تاناروف وهو يتناول قبعته سائلا : « أن لا يفعل ماذا ؟ »

فقال سائين : « أنصح له أن لا يلمسنى وإلا جلده حتى .. » .

فصاح فون دايتز هائجا : « اسمع ! إني لا أستطيع أن أحتمل هذا .. » .

إنك .. إنك إنما تضحك منا . ألا تعلم أنك برفضك أن تبارز » .

وكان وجهه أحمر وعيناه جاحظتين . والزبد على فمه فنظر سائين إلى فمه

مستغربا وقال : « وهذا هو الرجل الذى يعد نفسه من تلاميذ تولستوى !! » .

فقلق فون دايتز وطوح رأسه وتمتم وهو مستحي من أن يخاطب بهذه

اللهجة من كان صديقا له إلى آخر لحظة : « إني مضطر أن أرجوك أن

لا تذكر هذا . فإنه لا شأن له بموضوعنا » .

فأجابه سائين : « أوليس لهذا شأن بما أذكرتك ؟ حقيقة ؟ إن له لدخلا كبيرا » .

فنتق فون دايتز : « ولكنى مضطر أن أرجوك .. » .

وقال تاناروف : « إن هذا كثير حقيقة .. » .

فقال سائين وتراجع مشمئزا من فون دايتز وكانت شفتاه تنثران ريقه :

« آوه . كفى كفى ! ظننا ماشئا فما يعيننى ظنكما وقولا لسارودين إنه حمار » .

فصاح فون دايتز « ليس لك حق ياسيدى . أقول ليس لك حق » .

وقال تاناروف مقتنعا : « حسن جدا . دعنا نذهب » .

فصاح فون دايتز ولوح بذراعيه : « كلا ! كيف يجرؤ ؟ ... أى حق .. » .

إن هذا .. » .

فنظر إليه سائين هنية وأوما محتقرا وخرج من الغرفة . فصاح به

تاناروف : « سنبلي رسالتك إلى زميلنا الضابط » .

فقال سانين : « افعل ماشئت » ولم يلتفت وراءه وكان يسمع تانا روف يعالج أن يهدى روع فون دايتز فقال لنفسه « ان هذا الفتى سخي ف فى العادة ولكنه بصير عاقل إذا كانت المسألة من اختصاصه » .

وصاح فون دايتز وهما خارجان « ان المسألة لا يمكن أن يسمح لها بالانتهاء عند هذا الحد » .

ونادت ليدا أخاها من غرفتها « فولودحا » .

فوقف سانين وسألها : « ماذا ؟ » .

أجابت : « تعال : فىنى أريد أن أحادثك » .

فدخل سانين غرفة ليدا وكان العطر يغعم الأنف فيها فقال سانين : « ما أحلى أن يكون المرء هنا » وكانت ليدا تواجه النافذة والأضواء المعكوسة عن الحديقة تضطرب على خديها وكتفها .

فسألها سانين برفق : « ماذا تريد منى ؟ » .

فصمت ليدا وأسرت أنفاسها :

فسألها ثانية : « ما الخبر ؟ » .

فقالت بصوت أجش ولم تلتفت إليه : « ألا تنوى أن تبارزه ؟ » .

أجابها : « كلا » . فصمت ليدا وقال سانين : « وماذا إذا ؟ » .

فاضطربت ذقن ليدا والتفت إليه بسرعة وقالت : « إنى لا أفهم هذا . : لا أستطيع أن . » .

فقاطعها سانين متجهما وقال : « إذا فإن أسفى عليك عظيم » :

وأحس أن الغباء والشر يحيطان به من كل جانب وغاظه أن يجد هذه الصفات فى الأشرار والأخيار والقباح والحسان على السواء فاستدار وخرج .

وراقبته ليدا وهو يخرج ورأسها بين يديها ثم ألقت بنفسها على السرير

وامتدت ضفيريها السوداء الطويلة على الغطاء الأبيض فبدت في هذه اللحظة على الرغم من بأسها أصبي وأينع .

وكانت النافذة ترسل النور والحرارة والعطر : ولكن ليذا لم تلتفت إلى شيء من هذا .

كان الوقت أصيلاً بارع الجمال ومساء من تلك المسى التي تفيضها على الأرض في أخريات الصيف قبة السماء اللازوردية وكانت الشمس قد مالت صوب المغرب ولكن الضوء كان وضاحاً والجو صافياً رائقاً والندى كثيراً والتراب الذي ثار في بطء يعقد شفوفاً دون السماء . والأصوات تسبح هنا وهناك كأنما تحملها أجنحة سريعة .

وكان سانين يسير في الطريق المعفر ورأسه عار وعلى جسمه قميصه الأزرق حائل اللون قليلاً عند الكتفين ثم مال إلى درب كثير النجائل ميمماً بيت إيفانوف .

وكان إيفانوف جالساً عند النافذة عريض الكتفين بادي الجذ وشعره الطويل مرسل عن جبهته إلى يافوخه وأمامه الطباقي يصنع منه لغائف والحديقة ترسل إليه النسيم رطباً بليلاً وأوراق الأشجار أمامه يومض فيها الطل . ورائحة الطباقي القوية تغريه بالعطاس . فقال سانين ومال على حافة النافذة : « عم مساء لقد طلب إلى اليوم أن أبارز » .

فأجابه إيفانوف غير محتفل : « أى فكاهة هذه ؟ تبارز من ؟ ولماذا ؟ فقال سانين : « سارودين . فقد طردته من البيت فعد هذا إهانة » . فقال إيفانوف : « إذا فسيكون عليك أن تلاقه . دعنى أكون شاهدك وطير له أنفه »

فقال سانين وهو يضحك ، « لماذا إن الأنف عضو جميل من وجه الإنسان . . كلا . لن أبارزه » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : هذا شيء حسن . والمبارزة بعد لا ضرورة إليها أبداً .

فقال سانين : ولكن أختي ليدا لا ترى هذا الرأي .
فأجابه إيفانوف : ذلك لأنها أوزة ورهاء . ما أكثر السخافات التي يؤمن بها الناس . ! »

وفرغ من آخر لفافة وأشعلها ووضع الباقية في علبة ونفخ بقايا الطباقي عن النافذه ووثب منها وانضم إلى سانين وسأله :
« ماذا نصنع هذا المساء ؟ » فقال سانين مقترحاً :
« لنذهب إلى سلوفتشك » . فقال إيفانوف : « لا لا ! » .

فقال سانين : « لماذا ؟ » . فقال إيفانوف : « لا أحبه : إنه كالوددة » .
فهز سانين كفيه وقال : « ليس شراً من غيره . هيا بنا » . فقال إيفانوف « حسن : هيا بنا » وكان لا يمتنع عن شيء يقترحه سانين فمضيا معاً . ولكن سلوفتشك لم يكن في البيت وكان الباب موصداً والفناء موحشاً وليس به إلا « سلطان » يجر جر سلسلة طوقه فنبحهما فقال إيفانوف :

« ياله من مكان موحش . دعنا نذهب إلى الميدان » .

فعادا ونبحهما الكلب مرتين أو ثلاثاً ثم أقعى أمام مبيته .

وراح ينظر إلى الفناء المهجور الموحش وإلى الطاحون الصامتة وإلى آثار الأقدام على الحشائش المعفرة .

وكانت فرقة الموسيقى تعزف في الميدان على عادتها والنسيم يهب عليلاً والمتزهون كثير تسير جموعهم إلى الحدائق الظليلة تارة وإلى المدخل الحجري الضخم أخرى .

وما كاد سانين وإيفانوف يدخلان وخراعاهما مشتبهتان حتى لقيتا ساوفتشك وكان يسير وهو مطرق ويداه وراء ظهره فقال سانين : « لقد مررنا الساعة بدارك » .

فاحمر وجهه ساوفتشك وابتسم وقال عجيباً :
 « أسألك العفو . وإنى لعظيم الأسف ولكنه لم يخطر لى قط أنك ستزورنى
 اليوم وإلا للزمت البيت : لقد خرجت طالباً للرياضة قليلاً » والتمعت
 عيناه .

فقال له سانين بلهجة العطف وأمسك بذراعه : « تعال معنا » وكأنا
 ابتهج سلوفتشك فأطبق على ذراعه ودفع قبعته إلى قفاه وسار معهما
 وكأنه ممسك بشيء ثمين لا بذراع سانين وكان يخيل إليك أن فيه يصل من
 أذن إلى أذن .

وكان رجال الفرقة حمر الوجوه متفخى الحدود يرسلون أصوات
 آلاتهم النحاسية المصممة ويحتشم رئيسهم ملوخاً بعصاه بحماسة . وحول
 الفرقة طوائف من الكتبة وعمال الخوانيت والصبيان والبناات وعلى أجيادهم
 مناديل زاهية الألوان . وفى طرقات الحديقة وممراتها طائفة مريحة من الضباط
 والطلبة والسيدات .

وما لبث أصحابنا الثلاثة أن قابلوا ديبوفا وشافروف ويورى فتبادلوا
 معهم البسمات . وبعد أن طافوا بأرجاء الحديقة كلها قابلوا سينا كرسافينا
 فانضمت إليهم وسألنها ديبوفا :

« لماذا تسيرين وحدك » وقال بعضهم : « تعالى معنا » .
 واقترح شافروف : « ميلوا بنا إلى ناحية منزلة فلان الزخام هنا شديد » :
 فقالوا إلى مكان أهدأ وأكثر ظلاً وهم يضحكون ويتحدثون . ولما بلغوا
 آخره وهموا أن يرجوا على سواه التقوا بسارودين وتاناروف وفلوتشين
 وأدرك سانين أن سارودين لم يكن يتوقع أن يلتقى به هنا وأنه اضطرب
 اضطراباً شديداً فقد تجهم وجهه ومط جسمه . وضحك تاناروف ساخراً .

وقال إيفانوف لسانين : « إن هذا القرد الصغير لا يزال هنا » ونظر إلى
 فلوتشين وكان هذا لم يرهم إذ كان فى شاغل من سينا وكانت سائبة فى طليعتهم
 حتى لقد التفت وراءه لينظر إليها .

فقال سانين : « نعم لا يزال هنا » .

وظن سارودين أن تاناروف إنما يقصده هو بضحكه فتلوى كأنما كان جلد وثارت نائرة غضبه وترك زميليه واندفع إلى سانين .

فقال سانين « ماذا ؟ » وجد جده وعينه إلى سوط صابر في يد سارودين المرتجفة وقال لنفسه : « ما أحقك ! » . وخامره الغطف عليه والغضب منه . فقال سارودين بصوت مبجوح :

« أريد أن أقول لك كلمة . هل تلقيت دعوتي ؟ » .

فقال سانين وعينه ترصد كل حركة ليد الضابط : « نعم » . فسأله سارودين : « وهل استقر رأيك على أن ترفض .. » . أن تعمل ما ينبغي لكل رجل محترم أن يعمل في مثل هذه الظروف ؟ » . وكان صوته متهدجا مخنوقاً وإن كان عالياً حتى لأنكره هو نفسه ولم تواته الشجاعة على التحول عن الطريق الذي أمامه .

فسكنت الحديقة فجأة كأنما لم يعد بها هواء ووقف الباقون من الناجيتين سكوناً مرتبكين منتظرين .

وحاول إيفانوف أن يتدخل فقال : « آوه ! أى شيطان .. » . فقاطعه سانين موجهاً كلامه إلى سارودين وقال بصوت غريب في هدوئه واتزانه وهو يحدق في عينه : « أرفض بالطبع » .

فأسرعت أنفاس سارودين كأنه يرفع ثقلاً جسيماً :
وسأله مرة أخرى بصوت رنان : « أسألك مرة أخرى — هل ترفض ؟ » .
فاصفر سلفوتشك وقال لنفسه : « وأأسفاه إنه سيضربه »

ثم تتم وهو يحاول أن يحمي سانين « ماذا ؟ ماذا جرى »
فلم يلتفت إليه سارودين ودفعه عنه بخشونة ولم ير أمامه إلا عين سانين المادتين الباردتين .

وقال سانين بنفس هذه اللهجة : « لقد قلت لك هذا مرة » .
فاج كل شيء في نظر سارودين وسمع خلفه أقداماً سريعة الخطى

وصرخة امرأة وأحس من اليأس ما يحسه من يسقط في هاوية فلوح في الهواء بسوطه .

وفي هذه اللحظة نفسها جمع سائين كل قوته ولكمه في وجهه بجمع يده فصاح إيفانوف ولم يملك نفسه : « حسن ! » .

فتدلى رأس سارودين على كتفه وفاض على أنفه وفيه شيء حار أحس له وخزاً في دماغه وعينيه وتوجع وسقط على يديه وأفلت السوط من كفه وزلت قبعته عن رأسه ولم ير شيئاً ولا سمع شيئاً . ولا شعر إلا بالفضيحة الشنيعة وبالألم الكاوي في عينيه . وصرخت سينا : « يا آلهي ! » وأمسكت رأسها بكلتا يديها وأغمضت عينها . واستفزع يوري منظر سارودين وهو راقد على يديه ورجليه . فاندفع إلى سائين ووراءه شافروف . أما فلوتشين فزلت نظارته عن أنفه لما تعثر وعادا بأسرع ما يستطيع على النبات البليل حتى أسودت سراويله البيضاء الناصعة إلى الركبتين .

وقرض تاناروف أضراسه هائجا وتقدم مثل يوري ولكن إيفانوف أمسك بكتفه ورده . فقال سائين باحتقار :

« هذا حسن . دعه يقبل » وكان واقفاً ورجلاه منفرجتان وأنفاسه بطيئة والعرق يتصبب عن جبينه :

ونفض سارودين بطيئاً وندت عن شفثيه الوارمتين المرتجفتين ألفاظ وعيد خافتة غير مفهومة رآها سائين غاية السخافة والبله :

وكان الجانب الأيسر كله من وجه سارودين قد انتفخ وورم ولم تعد عينه ترى والدم يسيل من فمه وأنفه وجسمه كله يردد كأنما ترعشه الحمى . ولم يبق شيء من ذلك الضابط الرشيق الوسيم .

فقد سلبته هذه اللكمة الفظيعة كل مظهر إنساني ولم تدع إلا كتلة مشوهة مستبشعة تبعث على العطف والمرثية ولم يحاول أن يمضي أو أن يدفع عن نفسه وجعلت أسنانه تصطلك وهو يبصق الدم ونفض الرمل عن ركبتيه ثم دار رأسه قال إلى الأمام وسقط على الأرض مرة أخرى .

فصاحت سينا : « ما أظفح هذا ! ما أشنع ! » وأسرعت فغادرت المكان . وقال سائين لإيفانوف : « هيا بنا » ونظر إلى السماء حتى لا تنزع عينه على هذا المنظر البشع .

فقال إيفانوف : « تعالى معنا يا سلوفتشك » .
ولكن سلوفتشك لم يتحرك بل ظل يحدق في سارودين وفي الدم والرمل القذر على ثيابه البيضاء وهويرجف وشفته تفتحان .

فجره إيفانوف بعنف ولكن سلوفتشك دفعه بحدة عجيبة ثم التصق بجذع شجرة كأنما يريد أن يقاوم من يحره بالقوة .
وقال : « لماذا ؟ لماذا فعلت هذه الفعلة ؟ » .

وصاح يورى في وجه سائين « ما أنذل هذا العمل ! »
فأجابه سائين وعلى فيه ابتسامة ساخرة : « نعم نذالة ! هل كان يكون خيراً في رأيك لو تركته يضربني ؟ » ثم أشار بيده وحث خطاه ورمى إيفانوف إلى يورى نظرة ازدراء وأشعل سيجارة وتبع سائين على مهل وقال له ظهره العريض وشعره المصقول « ما أقل ما أثر فيك هذا المشهد ! » وقال هو لنفسه « ما أقدر الإنسان على أن يصير وحشاً ! » .

ونظر سائين وراءه مرة ثم مضى مسرعاً .
وقال يورى وهو يمضي « مثل الوحوش تماماً » .
وتلفت وراءه فإذا الحديقة التي كانت جميلة لطيفة قد صارت بعا، الذي وقع مكاناً موحشاً جهما معزولا عن سائر العالم .

وتنفس شافروف الصعداء وتلفت من وراء نظارته في كل جهة كأنما يتوقع أن تتكرر هذه الفظيعة في أية لحظة .

(٣٠)

تغيرت حياة سارودين كل التغير في لحظة . كانت رجة سلسلة كلها مرح فعادت الآن مشوهة لا تحتل وسقط التنوع الضاحك وبدا وجه الوحش الدميم

وكان تاناروف قد حمّله إلى مسكنه في مركبة فجعل في الطريق يبالغ في التألم والتظاهر بالضعف حتى لا يفتح عينيه وبذلك ظن أن يجتنب تعبير آلاف العيون له كلما وقعت عليه وكان يحيل إليه أن ظهر السائق والمارة والوجوه المتطلعة من النوافذ وذراع تاناروف حول خصره . كل ذلك ليس إلا عبارات صامتة عن الاحتقار . ولج به هذا الشعور المؤلم حتى كاد يغشى عليه فأحس أن رشده يكاد يعزب وتمنى الموت وأبى أن يعترف بالواقع وظل يعالج أن يتصور أن هناك خطأ أو سوء تفاهم وأن خطبه ليس من الهول بحيث يتصور . ولكن الحقيقة الواقعة بقيت كما كانت فصار يأسه أظلم .

وشعر سارودين بأن أيديا تساعدته وأنه يتالم وأن يديه ملوثتان بالدم والاقذار وعجب لنفسه كيف لا يزال يشعر بهذا وكانت المركبة ربما مالت إلى طريق آخر عند ركن حاد فيفتح عينيه ويرى ما ألفت من الشوارع والمنازل والناس والكنيسة — كل شيء كما كان لم يلحقه تغيير ولكن كل شيء كان يبدو له غريبا مناصبا . وكان المارة يقفون ويحملقون فيغمض سارودين عينيه خجلا ويأسا . وكأن الطريق لا آخر له ثم تصور وجوه خادمه وربة البيت والجيران فود لو يطول الطريق إلى غير نهاية وأن يظل ماضيا هكذا إلى غير ضاية وعيناه مغمضتان

وكان تاناروف أعظم ما يكون استنصاحا لهذا الموكب . فجعل ينظر أمامه وهو مضطرب أحمر الوجه وحاول أن يوقع في روع النظارة أنه لا شأن له على الإطلاق بهذه المسألة . وكان في أول الأمر يدعى العطف على سارودين ثم لم يلبث أن لزم الصمت وربما استحث السائق من حين إلى حين وأسنانه مطبقة فأدرك سارودين من هذا ومن تراخي ذراعه حوله بل من دفعه به أحيانا — ما يحسه تاناروف وجاء إدراكه هذا أن رجلا كهنااروف دونه بمراحل صار يخجل منه مغريا له بالاعتقاد أن كل شيء قد انقضى . ولم يستطيع سارودين أن يجتاز فناء السدار بغير معين فكان على

تاناروف والخادم المذعول أن يحملاه ولم ير سارودين غيرهما ثم وضعاه على الفراش ووفقا أمامه متردين لا يعلمان ماذا يصنعان فهاج ذلك سارودين ولما عادت إليه نفسه جاء الخادم بماء ساخن ومنشفة وغسل له وجهه ويديه وكان سارودين يتجنب عينه ولكن وجه الخادم لم يكن فيه شيء من دلائل الشر أو الزرابة ولم يكن المرء يقرأ فيه سوى آيات العطف والقلق . وهو يتمتم :

« كيف حدث ذلك ياسيدى ؟ واأسفاه ! واأسفاه ؟ ماذا فعلوا به ؟ »
فصاح تاناروف مغضبا : « هذا ليس شأنك » وتلفت حوله مضطربا ثم مضى إلى النافذة وأخرج سيجارة ولكنه تردد ولم يدر أيليق به وسارودين ملقى هناك أن يشعلها فردها إلى موضعها من العلبة ودفعها في جيبه .

وقال الخادم ولم يصدمه ما أصابه من سوء الرد :

« هل أدعو الطبيب » . فد تاناروف أصابعه متردداً وقال :

« لا أدري » بصوت آخر غير الاول وأدار وجهه وسمع سارودين هذه الكلمات واستهول أن يرى الطبيب وجهه المحطم فتمتم بضعف : « لا أريد أحداً » كأنما يعالج أن يقنع نفسه وغيره أنه سيموت . ولما طهر وجهه من الدم والأقذار لم يعد بشعاً بل لعله صار أبعث على العطف . فنظر تاناروف مسرعاً ثم صرف عنه عينه ولمح سارودين هذه الحركة على خفائها وناله منها ألم ويأس لا سبيل إلى العبارة عنهما فأطبق جفونه وصاح بصوت متقطع تخنقه العبرات : « اتركاني آوه ! آوه ! »

فرماه تاناروف بنظرة أخرى وتملكه المصط عليه والاحتقار له وقال لنفسه بارتياح خبيث : « إنه بهم فعلا بالبكاء » .

وكان سارودين مغمضاً عينيه هادئاً فنقر تاناروف بأصابعه على حافة النافذة ولوى شاربيه وتلفت حوله ثم أطل من النافذة واشتاق أن يخرج ولكنه قال لنفسه : « لا أستطيع ذلك الآن . ما أمله ! الأوفى أن أبقي حتى ينام » .

ومضى ربع ساعة أخرى وسارودين لا يهدأ وتاناروف على أحر من الجمر قلقا . وأخيراً هدا ولم يعد يتحرك فسر تاناروف وقال : « آها ! لقد نام . نعم وأنا واثق من ذلك » .

ومشى بحذر وخفة حتى لم يسمع صوت مهمازه : ولكن سارودين فتح عينيه فجأة . فوقف تاناروف . وأدرك سارودين ما انتواه صاحبه وعرف تاناروف أنه افتضح . ثم حدث أمر غريب : أغمض سارودين عينيه وادعى النوم وحارل تاناروف أن يقنع نفسه بأن صاحبه نائم وإن كان على يقين . جازم بأنه يراقبه ويرصد حركاته . وهكذا زحف من الغرفة وهو منحني يحس كأنه خائن محكوم عليه .

وأغلق الباب وراءه في رفق . وهكذا انبتت روابط الصداقة التي كانت بينهما إلى الأبد . وأحس كلاهما أن هاوية لاسبيل إلى تخطيها قد احتفرت بينهما . وأنهما صارا غريبين .

ولما صار تاناروف في الغرفة الخارجية خلاصة أنفاسه ولم يأسف على انقطاع الصلة بينه وبين من قضى كثيراً من سنى حياته معه . وقال للخادم على سبيل المدارة .

« اسمع . سأذهب الآن . وإذا جد شيء .. إنك تفهم .. » :

أجاب : « حسن جداً ياسيدى » .

— « أنت الآن تعرف . غير الضمادات كثيراً » .

وأسرع إلى السلم ومنه إلى بوابة الحديقة ثم أخرج نفساً عميقاً طويلاً لما رأى الشارع الساكن العريض وكان الظلام قد زحف فسر أنه يستطيع أحد أن يرى احتقان وجهه

وقال لنفسه : « من يدري ! قد يزجون بي في هذه المسألة الفاضحة ؟ ولكن ما شأنى بها ؟ » .

وهبط قلبه في صدره لما بلغ الميدان وحاول ، أن يهدى روعه وأن ينسى أن تاناروف دفعه بقوة حتى كاد يسقط إلى الأرض .

« إلى الشيطان بها ! ما أشأمها حادثة ! إن سببها كلها سارودين لماذا راح يصاحب مثل هذا الوحش ؟ » .

وكان مستعدا أن يلمح في وجوه المارة امارات السخرية والتهكم فلو تعرض له أحد لاستل سيفه . ولكنه لم يلق إلا قليلين كأنهم الظلال المتحركة يمضون مسرعين . ولما بلغ البيت صار أهدأ وكر ذهنه إلى صدمة تاناروف فقال : « لماذا لم أضربه ؟ لقد كان يجب على أن ألكمه على فكه . وكنت أستطيع أن استعمل سيفي . وكان في جيبي مسدس أيضا . ولقد كان يجب أن أقتله به كالكلب . ألا كيف نسيت المسدس ؟ من يدري عسى أن يكون هذا خيرا . ولنفرض أني قتلته ؟ إذا كانت المسألة تصبح في أيدي البوليس ولعل بعض الموجودين كان معه مسدس أيضا . حالة لطيفة أليس كذلك ؟ وعلى كل حال فلا يعلم أحد أنه كان معي سلاح . وستنسى المسألة تدريجيا »

وتلفت تاناروف بحذر وهو يخرج مسدسه ويضعه على المنضدة وقال : « يجب أن أذهب إلى الكولونل حالا وأن أفهمه أن لاشأن لي بهذا الموضوع ولادخل لي فيه » وأغلق الدرج على المسدس ثم نازعته نفسه أن يذهب إلى نادى الضباط وأن يصف الحادثة ووصف شاهد عيان وكان الضباط قد سمعوا بها في الحدائق العامة فارتدوا مسرعين إلى ناديتهم ليطلقوا العنان لسخطهم . وكانوا في الحقيقة قد سزهم ما أصاب سارودين لأن رشاقته وأناقته في ملبسه وهيئته كثيرا ما ضيعتاهم .

فاستقبلوا تاناروف بالترحيب وبالرغبة الصريحة في الاستطلاع واحس هو أنه بطل الساعة وهو يفصل الحكاية لهم وكان المرء يلمح في عينه نظرة مقت لصديقه الذي كان دائما يفوقه . وذكر حادثة القرض ووقوف سارودين منه موقف المتنازل فانتقم لنفسه منه بأن أفاض في وصف ما أصابهم من الهزيمة .

وفى خلال ذلك كان سارودين وحده على فراشه . وعلم خادمه بما أصابه من الناس فجعل يتنقل فى سكون ورفق وهو قلق حزين . وأعد أدوات الشاى وجاء بقليل من النبيذ وطرده الكلب الذى جعل يشب فرحا بعودة سيده ثم قال بعد برهة : « سيدى يحسن بك أن تتناول قليلا من النبيذ » .

فتفتح سارودين عينه وقال : « ماذا ؟ » وأغمضها وبجهد ما استطاع أن يحرك شففيه وأن يطلب المرأة :

فتنهذ الخادم وجاء بها ورفع له شمعة أمامها . وقال لنفسه : « ترى لماذا يريد أن ينظر إلى وجهه ؟ » .

فنظر سارودين فى المرأة ثم صرخ مكرها فقد رأى أمامه وجهها مشوها مسيحا أحد جانبيه أسود أزرق وعينه منتفخة وشاربه كالأشواك على خده الوارم .

« خذها عني ! خذها ! » وبكى « إلى بشيء من الماء » .

فقال الخادم وهو يقدم إليه الماء فى كوب لرج تفوح منه رائحة الشاى : « سيدى : لا تأس على ما نزل . كل شيء سيعود كما كان » :

ولم يستطع سارودين أن يشرب وجعلت أسنانه تصطك بزجاج الكوب وأريق الماء على ثيابه .

فتوجع وقال بضعف : « اذهب » : وخطر له أنه مامن أحد فى الدنيا يعطف عليه غير هذا الخادم ولكن الرقة التى أحسها قلبه نحو خادمه عفى عليها الشعور بأنه محل للمرثية حتى من الخادم .

فخرج الخادم وعيناه مغرورتان وجلس على السلم المؤدى إلى الحديقة ، وتمسح به الكلب وحك أذنه بركبته ورفع إليه وجهه مستفسرا فسح الخادم شعره فى رفق وكانت النجوم مضيئة فى السماء فتوجست نفسه خيفة وأحس أن كارثة ستقع . وذكر قرينته وأهله فقال : « إن الحياة كلها أسى وكرب » .

وانقلب سارودين في فراشه ولم ينتبه إلى أن الضمادة زلت عن وجهه لما دفنت وتمتم : « قد انقضى كل شيء ! حياتي كلها - ذهبت . لماذا ؟ لأنني أهنت - ضربت كالكلب - ضرب وجهي بلكمة ! ألا لن أستطيع البقاء في فرقتي . أبداً . أبداً » .

ومثلت لعينه صورته كأوضح ما تكون وهو يحبو على يديه ورجليه : ذليلاً مهيناً مضحك الهبته . يخرج وغيداً سخيفاً . وظل مرة بعد أخرى يحضر إلى ذهنه تفاصيل ما جرى له وكلمة تمثله طغى به الألم ولكن أوجع ما آله أذكاء ثوب سينا كرسافينا وكان قد لامحه في اللحظة التي كان يقسم فيها أن ينتقم .

ثم حاول أن يدفع خواطره في مجرى آخر فقال :

« من الذي رفعتني ؟ أهو تاناروف ؟ أم ذلك اليهودي الذي كان واقفاً معه ؟ لا بد أن يكون تاناروف . على أن هذا لا يهم . إنما المهم أن حياتي انهارت وأن على أن أترك فرقتي . والمبارزة ؟ ما القول في هذا ؟ لقد انتصر على : فلا بد من تركي الفرقة » :

وذكر سارودين أن لجنة إحدى الفرق أكرهت ضابطين متزوجين على الاستقالة لأنهما رفضا المبارزة .

« وسيطلب إلى أن أستقيل كذلك بكل أدب . بدون مصافحة .. لن يباهي أحد الآن بأن يرى معي في الميدان . أو يحسبني أحد أو يحاكيني . ولكن هذا لا شيء . إنما المهم هو العار . لماذا ؟ لأنني لكمت على وجهي ؟ لقد جربت ذلك من قبل لما كنت تلميذاً في المدرسة الحربية فضربني ذلك الرجل الضخم - شفارتز - وأطار أحد أسناني . ولم ير أحدني هذا عاراً . ولكننا تصافحنا بعد ذلك وصرنا خير الأصدقاء . ولم يحتقرني أحد يومئذ . فلماذا يكون الأمر الآن غير ذلك ؟ إن الحادثتين سواء على التحقيق . ولقد سال دمي يومئذ وسقطت على الأرض : وعلى هذا . . . »

ولم يجد سارودين جواباً مريحاً على هذه الأسئلة التي يبعثها اليأس :
 « لو أنه كان قبل دعوتي وضرب وجهي بالرصاص لكان هذا شراً وأوجع .
 ولكنه لم يكن يحتقرني أحد حينئذ بل على العكس كنت أفوز بالعطف
 والإعجاب . فهناك فرق بين الرصاصة والكلمة . أى فرق ؟ ولماذا يكون
 هناك فرق ؟ » .

وتتابعت خواتمه سريعة غير منتظمة ولكن آلامه ومصيبته حركت على
 ما يظهر شيئاً جديداً كما أنها في نفسه لم يكن يشعر به في أيام هنائه ومرحه .
 « إن فون دايتز مثلاً كان دائماً يقول إذا ضربك أحد على خدك الأيمن
 فأدر له خدك الأيسر » ولكن على أى حال من الهياج عاد من بيت سانين
 اليوم ؟ عاد يصيح مغضباً ويلوح بذراعيه لأن سانين أبى أن يبارزنى ! إن
 الحقيقة أن غيرى ملوم على تقصيرى في جلده وقد أخطأت في أنى لم أجلبه
 في الوقت المناسب . إن الأمر كله ظلم . على أن هذا هو الواقع والفضيحة
 باقية . وسيكون واجبى أن أترك الفرقة » .

وضغط سارودين بكلتا يديه على جبينه المتصدع وجعل يتقلب ويتلوى
 لأن ألم عينه كان مما يطير له العقل ثم تتم وهو هائج :

« أتناول مسدساً وأهجم عليه وأطلق على رأسه رصاصتين . . . وهناك
 وهو ملقى على الأرض أدوس بقدمى على وجهه وعينه وأسنانه ... » .

وسقطت الضمادة إلى الأرض وسمع سارودين صوتها ففزع متراجعاً
 وفتح عينيه فأبصر حوض ماء ومنشفة ورأى النافذة المظلمة كأنها العين المرعبة
 تحنق فيه . فقال :

« لا لا ! لم تعد في الأمر حيلة الآن . لقد رأى الناس جميعاً ما حدث
 وأبصرونى وأنا أزحف على يدى ورجلى آه ! بالفضيحة والعار ! ضربت
 على وجهي ! كلا ! إن هذا أكثر مما يحتمل . ولن أكون حراً أو سعيداً
 مرة أخرى » .

ثم أضواء في ذهنه خاطر جديد حاد .

« ومع ذلك فهل كنت حراً في يوم من أيام حياتي ؟ كلا ! هذا هو السبب فيما يكرهني ويحزنني الآن - لأن حياتي لم تكن حرة - لأنني لم أعش على النحو الذي يروقي . ولو أن ارادتي كانت حرة طليقة أكنت أطلب أن أبارز رجلاً أو كانت نفسي تنازعني أن أجلبه بالسوط ؟ لو كنت حراً لما لکمني أحد . من أول من تخيل ومتى تخيل أن الإهانة لا يغسلها إلا الدم المراق ؟ لست أنا على التحقيق . ولقد غسلتها أو هي غسلت في الحقيقة بدمي أليس كذلك ؟ ولست أدري ما معنى هذا كله ولكن الذي أدريه أنني مضطر أن أترك فرقتي . »

وكان يود لو انجبت خواطره إلى ناحية أخرى ولكنها كانت كالطيور المهيضة المقصورة الأجنحة لا تزال ترجع وتكر إلى حقيقة واحدة مركزية هي أنه أهين وأنه مضطر أن يغادر الفرقة .

وذكر أنه رأى مرة ذبابة سقطت في شراب مراق فجعلت ترحف على الأرض وتجر أرجلها اللزجة واجنحتها بأقصى صعوبة وكان من الواضح أن الذبابة المسكينة لا مفر لها من الموت وإن كانت لا تزال تجاهد وتبذل جهوداً عنيفة لاسترداد حرية أرجلها . ولقد أشاح يومئذ عنها بوجهه مشمئزاً فالآن مثلت لعينيه كأنه محموم يحلم . ثم ذكر قتالا دار بين فلاحين أهوى إحداهما على وجه صاحبه بضربة مرعبة طرحته على الأرض وكان شيخاً أبيض الشعر .

فنهض وبمسح أنفه الداي بكمه وصاح : « يا لها من حماقة » .

ثم قال « نعم أذكر أنني رأيت هذا . وأنهما شربا معاً في حان « الكرون » . ومضى الليل إلا قليلاً فكان سارودين في سكونه الثقيل الوطأة الحى الشقى الوحيد فوق ظهر الأرض وكانت الشمعة لا تزال موقدة على المنضدة . ولكنه كان غارقاً في ظلام خواطره المضطربة فكان يرمقها بعين محمومة .

وكان في هذه الفوضى - فوضى الذكريات والخواطر - يرى شيئاً واضحاً هو الإحساس بوحده إحساساً له وقع الخنجر في قلبه . وكان يحدث

نفسه أن ملايين من الناس في هذه اللحظة يقطفون أزهار الحياة ويضحكون ويمزحون ولعل بعضهم يتحدثون عنه وليس وحيداً سواء . وحاول عبثاً أن يذكر الوجوه التي ألفها فلم تبد له إلا صفراء باردة منكورة وفي عيونها نظرة استطلاع وشماتة . ثم ذكر ليذا فثلث لخياله كما رآها آخر مرة . عينها الواسعة الحزينة . والصدرية الرقيقة التي تشف عن ثدييها الناعمين وشعرها صغيرة واحدة . ولم ير سارودين في وجهها لا مقتناً ولا احتقاراً . بل كانت عينها تنظران إليه نظرات العطف والأسى . وذكر كيف ردها في أظلم ساعات حزنها . فأحس لفقداء وقع السكين واتجهت إليها روحه كأنها آخر ملجأ ومعاذ واشتاق عطفها وحنانها وخيل إليه هنيهة أن آلامه ستعفى على الماضي وتمحوه ولكنه لم يكن يخفى عنه أن ليذا لن تعود إليه وأن ما بينهما قد مضى وانقضى وأنه لم يبق أمامه سوى فراغ هائل .

فرفع ذراعه وضغط بكفه على جبينه وظل كذلك لا يتحرك وعيناه مغمضتان وغمه مطبق وراح يعالج أن لا يرى شيئاً وأن لا يسمع شيئاً وأن لا يحس شيئاً ولكن يده انحدرت عن جبينه بعد قليل فجلس واشتد الصداق وعاد لسانه وكأن فيه ناراً وارتجف من فرعه إلى قدمه ثم نهض ومشى إلى المنضدة وهو يقول :

« لقد فقدت كل شيء : حياتي وليداً - كل شيء » .

وخطر له أن هذه الحياة التي قضاهم تكن لا صالحة ولا سعيدة ولا رشيدة بل حياة خرق وسفالة وشر . وأن سارودين - الوسيم الخليق بخير متع الدنيا وأحلاها لم يعد له وجود وأنه لم يبق منه إلا جسم ضعيف يحمل كل هذا العار والألم .

« إن البقاء مستحيل لأن معناه إمحاء الماضي ولا بد لي من حياة جديدة ومن أن أصبح رجلاً آخر وهذا مالا طاقة لي عليه » .

وسقط رأسه على المنضدة وظل كذلك في ضوء الشمعة الضعيف المضطرب - لا يتحرك .

ذهب سانين إلى سلوفتشك في نفس هذه الليلة وكان هذا اليهودي جالسا وحده على سلم بيته ينظر إلى المكان الموحش العارى الذى أمامه . وما كان أشجى منظر الحصاص الفارغة الصلدة الأقفال ونوافذ الطاحون السوداء ! لقد كان المتظر كله ناطقا بنضوب الحياة والجزر في مدها الأول .

ولم يفت سانين هذا التغير في ملامح سلوفتشك فقد كان لا يبتسم وكانت نظراته قلقة مضطربة وعيناه تتساءلان وقال : « آه ! عم مساء وتناول يد سانين ثم استأنف التحديق في السماء الساكنة . وجلس سانين إلى جانبه على السلم وأشعل سيجارة وجعل يراقب سلوفتشك في ضمت ومجد لذة في درس هذه الحالة الغريبة ثم قال بعد برهة : « ماذا تصنع بنفسك هنا ؟ » .

فإذا - سلوفتشك عينيه الحزبتين الواسعتين إليه في فتور وقال : « إني أعيش هنا . وكانت عادتي أن أكون في المكتب أيام كانت الطاحون دائرة . ولكنها الآن مغلقة وقد ذهب كل امرئ سوى » . فسأله سانين : « ألا تحس وحشة الوحدة هنا ؟ » .

فصمت سلوفتشك ثم هز كتفيه وقال : « سواء عندي كل شيء » . وسكتا برهة فلم يكن يسمع إلا صوت سلسلة الكلب ثم قال سلوفتشك بحدة مفاجئة : « إن المكان ليس موحشا بل الموحش هو هذا وهذا » وأشار إلى رأسه وصدره .

فسأله سانين في هدوء ما خطبك ؟ .

فقال سلوفتشك وزاد حماسة : « اسمع . لقد ضربت اليوم رجلا وحطمت له وجهه . وربما كنت قد قضيت على حياته . ولا يسوءك

كلامي هذا . لقد فكرت كثيراً في هذا كله وأنا جالس هنا كما ترى أعجب وأعجب والآن هل إذا سألتك عن شيء تخبريني ؟ » . فقال سائين بعطف : « سألني ما بدا لك . أنتخشي أن تسيء إلي ؟ إني أؤكد لك أن هذا لا يسيئني . إن ما وقع وقع . ولو كنت أعتقد أني أسأت لكنت أول من يقر ويعترف » .

فقال سلوفتشك وهو يرتعش : « أريد أن أسألك هل تدرك أنك ربما كنت قد قتلت هذا الرجل ؟ » .

فأجابه سائين : « لا يكاد يكون هناك شك كبير في هذا . فإن من الصعب على رجل مثل سارودين أن يتخلص من هذه الورطة دون أن يقتلني أو أن أقتله . أما حيث قتله لي فقد أفلتت منه اللحظة المناسبة وهو الآن في حانة لا تسمح له بإيذائي ولن تؤاتيه الشجاعة فيما بعد . لقد انتهى دوره » .
— « وتقول لي هذا بكل هدوء ؟؟ » .

فسأله سائين : « ماذا تعني بالهدوء ؟ إني لأستطيع أن أنظر في هدوء إلى فرخ يقتل فضلاً عن إنسان . ولقد آلمني أن أضربه نعم إن شعور الإنسان بقوته لذيذ ولكنها على هذا تجربة فظيعة — فظيعة لأن مثل هذا العمل في ذاته وحشي . غير أن ضميري هادئ . لأنني لم أكن إلا أداة القدر وإنما حاق بسارودين ما حاق به لأن تيار حياته كلها كان لابد أن ينتهي إلى كارثة . والعجيب أن غيره من أمثاله لا يصيرون إلى مثل مصيره . إنهم قوم يتعلمون أن يقتلوا أبناء جنسهم ولا يعرفون لماذا . إنهم مجانين بله ! إذا خلعت حبالهم على غواربهم قطعوا رقاب الناس وراقبهم كذلك فهل ألام على أن حميت نفسي من مجنون من هذا النوع ؟ » .

فأجابه سلوفتشك بعناد : « نعم ولكنك قتلتها » .

فقال سائين : « إذن فتوجه إلى الله الذي قدر لنا اللقاء » .

« كان يسعك أن تمنعه بأن تمسك كلتا يديه » .

فرفع سائين رأسه وقال : «إن المرة في هذه اللحظة لا ينكر . وكيف كان ذلك خليقا أن يمنع وقوع الشر ؟ إن قانون الشرف عنده يطلب الانتقام بأى ثمن . ولم يكن يستعنى أن أظل قابضا على يديه إلى الأبد . وما كان ذلك ليكون إلا إهانة جديدة » .

فلوح سلوفتشك بيديه ولم يحب وأطبق الظلام عليه وزال الشفق وعمقت الظلال وصار المكان كأنما يتأهب لاستقبال كائنات مرعبة خفية ، ولعل خطاهم الصامتة أفلقت الكلب فقد خرج من مبيته فجأة ورقد أمامه .

وقال سلوفتشك : « ربما كنت مصيبا . ولكن ألم يكن من ذلك مفر ؟ ألم يكن خيرا أن نحتمل أنت اللظمة ؟ » .

فقال سائين : « خيرا ! إن الضرب شيء مؤلم فلماذا أحتمله ؟ في أى سبيل ؟ » .

فقاطعه سلوفتشك : « استمع إلى من فضلك . كان هذا يكون خيرا .. » .
فقال سائين : « لسارودين على التحقيق » .

فقال سلوفتشك : « لأبل لك . لك أنت » .

فأجابه سائين : « إيه ياسلوفتشك . دعك من سخافة القول بالانتصار الأدبي . إنها فكرة غير صحيحة . ليس النصر الأدبي في أن تقدم خدك للضارب بل في أن تكون على حق أمام ضميرك . فأما كيف يتأتى ذلك فمسألة مرجعها إلى المصادقة والظروف . إنه ليس أفضع من الاستعباد . وهو أفضع ما يكون حين تثور الروح على الإرغام والقوة ولكنها تدعن على رغم ذلك باسم قوة أعظم منها وأعلى » .

فأمسك سلوفتشك برأسه كأنما يهم أن يطير عن جسمه وقال بلهجة شاكية : « ليس لي العقل الذى أفهم به هذا . ولست أدرى كيف ينبغي لى أن أعيش » .

فقال سانين : « وما حاجتك أن تدري ؟ عش كما تعيش الطيور . إذا أرادت أن تحرك جناحها الأيمن فعلت وإذا شاءت أن تطير حول شجرة طارت وحومت » .

فأجابه سلوفتشك : « قد يستطيع الطائر ذلك ولكنى لست بطائر بل إنسان » . فضحك سانين ورنّت ضحكته في الفناء الموحش وهز سلوفتشك رأسه وقال : « كلا ! هذا ليس إلا كلاماً » . وأنت أعجز من أن تبين لى كيف أعيش والناس مثلك عجزاً وقصوراً » . فقال سانين : « هذا صحيح وما يستطيع ذلك أحد . إن فن الحياة يتطلب الموهبة اللازمة له . وأحر بمن حرمة الطبيعة هذه الموهبة أن يفنى أو أن تعود حياته كالسفينة المحطمة » : فقال سلوفتشك : « ما أعظم هدوءك وأنت تقول هذا كأنك تعرف كل شيء ! لا يسوءك قولى هذا — ولكن هل كنت دائماً هكذا — هادئاً دائماً » . فقال سانين : « كلا ! وإن كان مزاجى هادئاً فى العادة ولقد مر بى وقت تنازعنى فيه الشكوك من كل نوع . ولقد كنت أحلم فى بعض أياى بأن الحياة المسيحية هى المثل الأعلى » .

وأمسك سانين ومال إليه سلوفتشك كأنما يتوقع أن يسمع شيئاً على أعظم جانب من الأهمية فقال سانين :

« وكان لى فى ذلك الوقت زميل — طالب رياضة — اسمه إيفان لاند وكان رجلاً عجبياً نصيبه من قوة الروح عظيم وكان مسيحياً بفطرته لا عن اقتناع فكانت حياته مرآة للمسيحية وصورة مجسدة لتعاليمها . إذا لطمه أحد لم يكر عليه باللطم ولم يجاره فى التعدى وكان يعد كل رجل أخاً له ولا تثير المرأة فى نفسه الإحساس الجنسى — هل تذكر سمينوف ؟ » .

فهز سلوفتشك رأسه أن نعم وبه مثل اغتباط الطفل ومضى سانين فى كلامه فقال : « كان سمينوف فى ذلك الوقت مريضاً جداً وكان يعيش فى القرم حيث يشتغل بالتدريس فرمت به الوحدة وتوقع الموت فسمع « لاند » يخبره فألى أن يذهب إليه وأن ينقذ روحه ولم يكن معه مال ولم يكن ثم من

يرضى أن يقرض مجنوناً مشهوراً شيئاً من المال . ولكنه ذهب إليه مع ذلك مشياً على رجليه وبعد أن قطع أكثر من ألف فرسخ قضى نحبه في الطريق وهكذا ضحى بحياته في سبيل الناس .

فصاح سلوفتشك وعيناه تلتهمان: « قل لي هل تقدر عظمة هذا الرجل؟ ».

فأجابه سائين وعلى وجهه هيئة المفكر : « لقد تحدث الناس عنه كثيراً في ذلك الوقت . وكان البعض لا يعدونه مسيحياً وينحون عليه لهذا السبب . وقال غيرهم بل هو مجنون لا يخلو من الزهو وأنكر آخرون أن له نصيباً من قوة الروح ولما رأوه يأبى أن يقاتل فقد أنكروا أنه نبي أو فاتح ! أما أنا فرأيت فيه غير ذلك . كان له في ذلك الوقت أعظم تأثير في نفسى . حتى أقدم لكفى طالب على أذنى فتار ثائرى وكدت أجن . ولكن لاند كان واقفاً أمامى فنظرت إليه و — لا أدري كيف حدث هذا ولكنى نهضت دون أن أتكلم وخرجت من الغرفة وأحسست في أول الأمر شيئاً من الزهو والمباهاة بما فعلت ثم انقلبت أمقت هذا الطالب من أعماق نفسى لا لأنه لكفى بل لأن سلوكى معه لا بد أن يكون أرضاه كل الرضى ثم انضح لى شيئاً فشيئاً كذب موقفى وزوره فشرعت أفكر وقضيت أسبوعين وأنا كالذى ضاع عقله وبعد ذلك زابلنى الإحساس بالزهو والمباهاة بهذا النصر الأدبى الكاذب وحدث أن هذا الطالب تهكم على فجلدته حتى غاب عن رشده فأفضى هذا إلى وقوع الجفوة بينى وبين لاند ولقد فكرت في حياته تفكيراً نزيهاً فألفيتها فقيرة شقية إلى أقصى حد . »

فقال سلوفتشك : « كيف تقول هذا ؟ كيف استطعت أن تقدر ثروة عواطفه الروحية ؟ » .

فأجابه سائين : « إن عواطفه هذه واحدة ملة ولقد كانت سعادته في حياته في تقبل كل مصيبة بدون تملل . وأما ثروته كلها فكان قوامها رفض لذات الحياة والمنافع المادية . أقدم كان متسولاً باختياره وكان شخصاً مضحكاً ذهبت حياته في سبيل فكرة لم يكن يدركها على صورة واضحة . »

فيضرب سلوفتشك كفاً بكف وقال : « إنك لا تستطيع أن تقدر ألى لساع هذا الكلام » .

فقال سانين : بلهجة المستغرب : « إنك يا صاحبي مضطرب الأعصاب جداً . لم أقل لك شيئاً غريباً فلعل الموضوع مؤلم لك » .

أجاب : « مؤلم جداً . إني دائم التفكير حتى ليخيل إلى أحياناً أن رأبى سينفجر . فهل كان كل هذا خطأ لا أكثر ؟ إني أتلمس طريقى كائى فى غرفة مظلمة ولا أجد من يقول لى ماذا أصنع . لماذا نعيش ؟ أجبنى » .

فقال سانين : « لماذا ؟ هذا مالا يعرفه أحد » .

أجاب : « ألا نحيا للمستقبل ليفوز الناس فى الأجيال الآتية بعصر ذهبي ؟ »

فقال سانين « لن يتأتى هذا العصر الذهبي أبداً . ولو أن الدنيا صلحت والناس صلحوا فى لحظة واحدة لكان من المحتمل أن يطاع فجر عصر ذهبي . ولكن هذا مستحيل أن السير فى طريق التحسن بطئ . والإنسان لا يستطيع أن يرى إلا الخطوة التى أمامه والخطوة التى وراءه مباشرة . ونحن لم نجرب حياة الرقيق الرومانى ولا حياة المستوحشين فى العصر الحجري ولذلك لا نستطيع أن نقدر نعمة مدينتنا فإذا حدث أن عصراً ذهبياً مر بالعالم فإن أهله لن يجتولوا أى فرق بين حياتهم وحياة أجدادهم . إن الإنسان يسير فى طريق لا آخر له يعرف وليس من يريد أن يمهّد الطريق ويسويها للسعادة إلا كمن يريد أن يضيف أرقاماً إلى اللانهاية » . فسأله سلوفتشك : « إذا فأنت تعتقد أن كل هذا لا معنى له . وأن كل شيء عبث ؟ »

أجاب سانين : « نعم هذا ما أرى » . فقال سلوفتشك :

« ولكن ما قولك فى صديقك لاند ؟ لقد قلت إنك ... » .

فقال سانين بلهجة الجد : « لقد كنت أحب لاند لأنه كان مسيحياً بل لأنه كان مخلصاً ولم يحد قط عن طريقه ولا أربهته العقبات الكأداء أو السخيفة فأنا كنت أقدره باعتباره شخصية فلما مات لم يعد لقيمه وجود » .

فسأله سلوفتشك: «وهل تظن أن لمثل هؤلاء الناس تأثير في الحياة يجعلها أنبل؟ ألا يكون لأمثالم أتباع أو تلاميذ» .

فقال سانين: «ولماذا تريدون أن تجعلوا الحياة أنبل؟ قل لي ما الداعي إلى ذلك أولاً . واعلم ثانياً - أن المرء لا يحتاج إلى التلاميذ وإنما يكونون كذلك بفطرتهم مثل «لاند» . لقد كان المسيح رجلاً رائعاً ولكن المسيحيين نوتية مساكين . وما أجل فكرته غير أنهم أحالوها شيئاً جامداً لا حياة فيه» .

وتعب سانين من الكلام فسكت ولزم زميله الصمت كذلك وكان السكون عميقاً حولهما والنجوم فوقهما كأنما تدبران حديثاً صامتاً لا آخر له . ثم همس سلوفتشك بشيء فرزع له سانين وسأله: «ما هذا الذي تقوله؟» .

فتعمم سلوفتشك: «قل لي رأيك . لنفرض أن رجلاً لم يعد يرى الطريق واضحاً وأنه لا يكف عن التفكير وتقطيع قلبه به وأن كل شيء يحيره ويفزعه - فقل لي ألا يكون خيراً له أن يموت؟» .

فأجاب سانين وقد استشف ما في ذهن صاحبه: «ربما كان الموت في هذه الحالة خيراً فإن التفكير وكد الذهن لا طائل تحتهما ولا ينبغي أن يعيش سوى من يجد لذة في الحياة . أما الشقي فالموت خير له وأرفق به» .

فصاح سلوفتشك: «هذا رأي أيضاً» ودفع يده إلى سانين وكانت عيناه في الظلام أشبه شيء بثقبين مظلمين . فقال سانين وهو ينهض: «إنك رجل ميت . وخير مكان للميت هو القبر . الوداع!» .

وكأنما لم يسمعه سلوفتشك فظل لا يتحرك وتريث سانين قليلاً ثم مضى في ببطء . ولما بلغ البوابة وقف وأصغى ولكنه لم يسمع شيئاً وقال لنفسه وكأنما يرد على شعور باطن: سواء أن يعيش هذا الرجل أو يموت . وسيموت غداً إذ لم يمض اليوم» .

وأغلق الباب فصر ومضى هو إلى الميدان فأخذت عينه شخصاً يعدو

وهو يبكي فوقف سائين وبرز من الظلام رجل دنا منه فصاح به : « ما الخبر ؟ » .
فوقف الرجل هنيهة فرأى سائين جنديا كثيباً فسأله : « ماذا حدث ؟ »
فتمتم شيئاً ثم عدا وهو يعول وغاب في الظلام كالأشباح فقال سائين :
« هذا خادم سارودين » ثم طاف بذهنه مثل البرق « إن سارودين قد
انتحر » .

فحرق في الظلام برهة وابتعد جبينه ودار عراك وجيز إلا أنه هائل
في صدر هذا الرجل القوى .
وكانت البلدة نائمة والطرق عارية والنوافذ كالعيون الفاترة محمقة
في الظلام فهز سائين رأسه وابتسم وقال بصوت عال : « لا ذنب لي ! » .
ونصب قامته واستجمع قوته وسار - شبحاً رائعاً في الليل الساكن .

(٣٢)

استفاض في البلدة الخبر بأن اثنين انتحرا في ليلة واحدة وكان إيفانوف
هو الذي أبلغ يوري ذلك وكان يوري قد عاد من المدرسة وجلس يصور
أخته لياليا فقال إيفانوف ووضع قبعة على كرسي : « عم صباحا » .
فسأله يوري باسم « أهذا أنت ؟ ما عندك من الأخبار ؟ » .
وكان مزاجه معتدلاً ووجهه باشاً ذلك أنه صار مدرساً فقلت حاجته
إلى أبيه وتكفلت أخته المليحة الفتاة بشرح صدره .
فقال إيفانوف وفي عينه نظرة غامضة : « أخبار كثيرة . واحد شق نفسه
وثان نسف دماغه وثالث استحوذ عليه الشيطان ! »
فصاح يوري : « من تعني ؟ » .

فأجابه إيفانوف : « إن الكارثة الثالثة مما اخترع خيالي لزيادة التأثير وأما
من حيث الأولى والثانية فانه خبر صحيح فقد انتحر سارودين البارحة وسمعت
الساعة أن سلوفتشيك شق نفسه » .

فصاحت لياليا ونهضت : « مستحيل » ودنا يوري من إيفانوف وقال :
« أهذا مزاح ؟ »

فقال إيفانوف : - « كلا ! » وأظهر عدم الاكتراث وإن كان على هذا قد راعه ما حصل . وسأله يورى :

« لماذا انتحرت ؟ الآن سائبن لكمه ؟ » .

وسألت لياليا : « هل اتصل الخبر بسائبن ؟ » .

فأجابها إيفانوف : « نعم لقد علم سائبن البارحة » .

فقال يورى : « وماذا يقول ؟ » .

فهز إيفانوف كتفيه ولم يشأ أن يتحدث مع يورى عن سائبن وقال بشيء من الضجر : « لا شيء ! ما شأنه بهذا ؟ » .

فقالت لياليا : « إنه السبب » .

فرد عليها إيفانوف : « ولكن لماذا اعتدى عليه ذلك الأحمق ؟ إن هذا ليس خطأ سائبن . والمساءلة كلها مما يؤسف له ولكن مرجعها إلى سخافة سارودين » فقال يورى : « إني أظن أن السبب أعمق من ذلك . لقد عاش سارودين بين زمرة » .

فهز إيفانوف كتفيه وقال مقاطعاً : « نعم . ولحياته بين هذه الزمرة السخيفة وتأثره بها - دليل قاطع على أنه كان سيخيفاً » .

ففرك يورى كفيه ولم يذب وآله أن يبسط إيفانوف لسانه في رجل مات وقالت لياليا : « قد أفهم لماذا قتل سارودين نفسه . فأما سلوفتشك ! لم يخطر لي قط أن هذا محتمل ! هل تعرف السبب ؟ » . فأجابها إيفانوف : « الله أعلم ! لقد كان دائماً شاذاً » . وجاء في هذه اللحظة ريزانترزيف في مركبته والتي يسينا كرسافينا على السلم فصعدا معاً ودخلت سينا أمامه وقالت : « لقد جاء أنا تول بافلوفتش من هناك » .

وتبعها ريزانترزيف ضاحكاً كعادته لوفى يده سيجارة كان يشعلها وهو داخل وقال : « شيء حسن جداً . إذا استمر هذا لم يبق في المدينة شبان على الإطلاق » .

وجلست سينادون أن تتكلم وكان وجهها الجميل مكتئباً فقال إيفانوف :
« قص علينا ما تعرفه » .

فقال ريبازانتزيف : « كنت خارجاً البارحة من النادى فاندفع إلى جندى
وقال : « قد انتجر سعادته » فوثبت إلى مركبة وذهبت إلى هناك بأسرع
ما أستطيع فألفت الفرقة كلها تقريباً في المنزل وكان سارودين على القراش
وعرى ثوبه محلوله » .

فسألته لياليا وتعلقت بذراعه : « وفي أى موضع أطلق الرصاص على
نفسه ؟ » . فقال ريبازانتزيف : « فى رأسه اخترقت الرصاصة دماغه
ونفذت إلى السقف » ..

فسأله يورى : « هل كان المسدس من طراز بروننج ؟ » .
فقال ريبازانتزيف : « نعم . وما أقطع المنظر ! لقد كان الحائط ملوثاً
بالدم وعليه بعض عظام رأسه وكان وجهه ممسوخاً . لقد فعلها سانين !
تالله ما أقوى هذا الشاب ! » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : « اؤكد لك أنه قوى جداً » .
فقال يورى : « وحش خشن ! » .
فالتفتت إليه سينا وقالت : « رأى أن هذا ليس بخطأه . ولم يكن من
المستطاع أن ينتظر حتى ... » .

فقاطعها ريبازانتزيف : « نعم نعم . ولكنه لكمه لكمة فظيعة . لقد تحدها
سارودين ودعاه إلى المباراة » .

فصاح إيفانوف ضجراً وهز كتفيه : « هذا أنت تهذى » .

وقال يورى : « الحقيقة أن المباراة لا معنى لها » .

فوافقت سينا « لا شك فى ذلك »

ولاحظ يورى أن سينا يسرها أن تنتضر لسانين فقال : « على كل حال
هذا ... » وخافته الألفاظ .

فأقترح ريبازانتزيف : « عمل وحشي » .

ومع أن يورى لم يكن يعد ريارانتزيف إلا وحشاً آخر فقد سره أن
يقدم في سائين أمام سينا . ولكن هذه لاحظت غيظ يورى فكفت عن
الكلام وكانت في الواقع معجبة بقوة سائين وشجاعته ولم تكن مستعدة أن
توافق ريارانتزيف على اعتبار المبارزة عملاً عادلاً . وقال إيفانوف
متهكماً :

« إن من التمدن ولا شك أن ينسف المرء أنف صاحبه أو أن يقرر بطنه . »
فقال ريارانتزيف : « وهل لكم الوجه خير ؟ » .

فقال إيفانوف : « لا شك أنه خير . أى أذى تستطيع القبضة أن تلحقه
بالرجل ؟ إن الجرح يشفى بسرعة . وما من لكمة آذت أحداً أذى بليغاً » .
فقال ريارانتزيف : « ليس هذا في الموضوع ! » .

فقال إيفانوف : « إذاً ماذا فيه من فضلك ! » وزم إيفانوف شفثيه
ازدراء . فقال ريارانتزيف : « لقد كاد يفتق له عينه . وأحسبك لا ترى هذا
ضرراً بليغاً ! »

فأجابه إيفانوف : « لا شك أن فقد العين خسارة ولكنه ليس كدخول
رضاضة في جسمك . إن فقد العين ليس قاتلاً » .

فقال ريارانتزيف ش : « ولكن سارودين مات ! » .
فقال إيفانوف : « آه ! ذلك إنما كان لأنه أراد أن يموت ! » .
فقال يورى وسرته صراحته : « يجب أن أعترف أنى لم أنه إلى رأى في هذا
الموضوع . ولا أعلم ماذا كنت أصنع لو أنى كنت في موقف سائين . ولا شك
أن المبارزة سخيفة ولكن التلاكم ليس خيراً » .

فقالت سينا : ولكن ماذا يصنع المرء إذا اضطر أن يقاتل ؟ » .

فقال ريارانتزيف : « إن أسفنا يجب أن يكون على سلفقتشك » .

فقالت : « أين شق نفسه ؟ هل تدري ؟ » .

فقال ريازانتزيف : « في الخصر المجاور لجحر الكلب . أطلقه ثم شتق نفسه » . فخيل ليورى وسينا أنهما يسمعان صوتا عاليا يقول : « ارقد ياسلطان ! » .

ومضى ريازانتزيف في قصته فقال : « وقد كتب ورقة قبل موته نسختها . إنها وثيقة إنسانية » . وأخرج من جيبه مذكرته وقرأ : « لماذا أعيش إذا كنت لا أدري كيف ينبغي أن أعيش ؟ إن أمثالي لا يستطيعون أن يجعلوا أخوانهم سعداء ! » .

فساد سكون رائع وترقرقت عينا سينا واحمر وجه لياليا وجاشت نفسها وابتنم يورى ابتسامة حزينة والتفت إلى النافذة وقال ريازانتزيف : « هذا كل ما فيها ! » .

فقالت سينا وشفتها ترجفان : « ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » . ونهض إيفانوف واجتاز الغرفة إلى المنضدة طلباً للكبريت وقال : « إن هذا ليس إلا سخافة » .

فاحتجت سينا وقالت : « ياللعار ! » . والتفت يورى إليه مشمئزاً وقال ريازانتزيف : « لقد كنت دائماً أعتقد أن سلوفتشك صبي يهودى سخي فانظروا الآن ماذا فعل ؟ إنه ليس أجل من الحب الذى يدفع المرء إلى التضحية بنفسه في سبيل الإنسانية . فأجابه إيفانوف « ولكنه لم يضح بنفسه في سبيل الإنسانية » . قال : « نعم . ولكنه يستوى أن ... » .

فقاطعه إيفانوف وفي عينيه لمعة الغضب : « إن الأمرين لا يستويان . إنه عمل أبله لا أكثر ولا أقل » فكان لبغضه الغريب لسلوفتشك أسوأ وقع في نفوسهم . ونهضت سينا وهمست في أذن يورى « سأذهب أنه لا يطاق » .

فوافق يورى وقال بصوت خافت : « وحش » .

وخرج فى أثر سينما - لياليا وريازانتريف وجلس إيفانوف برهة يلحن ثم خرج أيضاً . وقال لنفسه وهو سائر فى الطريق يطوح ذراعيه على عادته : « إن هؤلاء السخفاء يظنون أنى عاجز عن فهم ما يفهمون ويلدلى ظنهم هذا ! ألا أنى لأدري بخواطرهم وإحساساتهم منهم أنفسهم : وأعلم كذلك أنه ليس أجل من الحب الذى يأمر المرء أن يبذل حياته للناس . فلما أن يشق رجل نفسه لالسبب سوى أنه لا خير فيه لأحد - فكلام فارغ ! » .

(٣٣)

كان يورى مطلاً من نافذته يشهد جنازة سارودين وهم سائرون به إلى المقبرة على ألحان الموسيقى الحربية . فرأى الخيل مجللة بالسواد وقبة الفقيد على غطاء النعش وكانت الأزهار كثيرة وبين المشيعين عدد كبير من السيدات . فأحزنه هذا المنظر .

وفى مساء ذلك اليوم سار مسافة طويلة مع سينما كرسافينا : غير أن جمال عينيها وفتنة محضرها لم ينفضا عنه الكآبة وقال وعيناه إلى الأرض « مأهول أن يتصور المرء أن سارودين لم يعد موجوداً ! ضابط وسيم مرح مثله يصبح لاشئ ! لقد كان المرء يخيل إليه أنه سيعيش أبداً وأنه لا يعرف متاعب الحياة وآلامها وشكوكها وأن هذه لن تمسه . فانظري ! فى صبيحة يوم رائق ذهب كأنه التراب المكنوس بعد أن عانى تجربة فظيعة لا يدري بها سواه . والآن قد مضى ولن يعود أبداً . أبداً . ولم يبق منه غير القبة على النعش ! » .

وسكت وكانت سينما تصغى إليه ويدها تعبثان بمظلتها ولم تكن تفكر فى سارودين بل كان قربها من يورى مثار لذة محادة لها غير أنها مع ذلك شاطرته كآبته وقالت : « نعم أن الأمر محزن وهذه الموسيقى أيضاً ! » .

فقال يورى بلهجة التاكيد : « لست ألوم سائين : فما كان يسعه أن يفعل غير ما فعل . وأفطع ما في الأمر أن طريقى هذين الرجلين تعارضا وصار لابد لأحدهما من أن يخلى الطريق للثاني . ومما هو فظيع أيضاً أن المنتصر لا يدرك أن نصره مروع : » يزيل رجلا من فوق ظهر الارض في سكون ويكون مع ذلك على حق » .

فقال : « نعم إنه على حق » ولم تكن قد سمعت كل ما قاله يورى وجعل صدرها يعلو ويهبط فصاح يورى مقاطعاً وهو ينظر إلى جمال جسمها ووجهها : « ولكنى أقول إن هذا فظيع ! » : فسألته سينا بصوت رقيق واحمر وجهها فجأة وفقدت عينا لمعها : « لكن لماذا ؟ » .

فأجابها يورى : « غير سائين كان حقيقاً أن يندم أو أن يعانى شيئاً من ألم الروح ولكنه لم يظهر أى دليل على ذلك وكل ما قاله هو أنى أسف جداً ولكن هذا ليس خطأى . خطأ حقاً ! كأنما كانت المسألة مسألة خطأ أو ملامة ! » .

فسألته سينا : « إذن ماذا هى ؟ » وارتجف صوتها واطرقت مخافة أن تؤلم رفيقها فقال « هذا مالا أعرفه . ولكن الإنسان لاحق له فى أن يكون مثل الوحش فى اخلاقه » .

وسارا مدة فى صمت وآلم سينا ما بينهما من الجفوة الوقتية وأسفت لانقطاع هذه الصلة الروحية التى لم يكن أعذب منها ولا أحلى وراح يورى يظن أنه قصر فى أيضاً خواطره فجرح هذا الظن إحساسه بكرامته :

ثم افترقا وكانت سينا مكتئبة متألّة ولاحظ يورى اكتئابها فسرّه كأنما انتقم لنفسه من إهانة شخصية . وزاد سوء خلقه لما صار فى البيت . وقصّت لياليا على المائدة ما قاله لها رياراز انتزيف عن سلوفتشك . وخلا يورى بنفسه فى غرفته وشرع يصحح كراسات تلاميذه ويحدث نفسه : « ما أعظم نصيب الإنسان من

الوحشية أو هل مثل هذه الوحوش البليدة تستحق أن يموت في سبيلها المرء ؟
ثم خجل من عدم تسامحه وقال إنهم غير ملومين ! ولا يعرفون ما يفعلون .
وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فهم وحوش ولا شيء غير ذلك ، »

ثم كررت خواطره إلى سلوفتشك فقال « ما أشد وحدتنا في هذه الدنيا !
هذا سلوفتشك كان بين ظهرائنا ، عظيم القلب مستعداً أن يبذل كل تضحية
في سبيل غيره . ومنع ذلك لم يحسه أحد ولا قدره أحد . بل الواقع أننا كنا
نحتقره . وذلك لأنه لم يكن يحسن العبارة عن نفسه ولم يكن لرغبته في إرضاء
الناس من أثر سوى إسخاطهم وإن كان في الحقيقة قد حاول أن يوثق صلاته
بنا وأن يساعدنا . ألا لقد كان قديساً نظنه قدماً غيباً ، »

واشتد ندمه حتى ترك عمله وجعل يقطع الغرفة ثم يجلس إلى المنضدة
وفتح الإنجيل وقرأ فيه « كما تنفذ السحابة وتغيب كذلك من يهبط إلى الأرض
لا يصعد أبداً . ولا يعود إلى بيته لا ولا يعرفه مكانه بعد ذلك . »

ثم قال : « ما أصدق هذا وأحكمه ! ختم فطيع ! هذا أنا أعيش ونيلج في
الظنم إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء البرم ولا يسعني حتى أن أحتج
عليه ! »

ثم ثار بأسه فأمسك بجبينه وناشد القوة الخفية « ماذا جنى الإنسان عليك
حتى تسخرين منه هذا السحرة ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن
عينه ؟ لماذا تجعليني إذا آمنت بك لا أو من يأماني ؟ وإذا أجبتي كيف أعرف
أنت الحقيقة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا
تسليبنني هذا الحق الذي منحتني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا
نحملها من أجل خبتنا لك . ولكننا لا نعرف أيهما أعظم قيمة الشجرة أم
الإنسان »

« ان الشجرة دائمة الامل . اذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وان تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة أما الانسان فيموت ويزول . يرقد فلا ينهض كرة أخرى ولو أتى كنت على يقين من أتى سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام »
ثم قرأ :

أى ربح بجنه الانسان من كل تعب تحت الشمس ؟ جيل « « يمضى وجيل غيره يأتى ولكن الارض تبقى الى الابد . « « والشمس أيضاً تطلع وتنحدر وتسرع الى مكانها الذى طلعت « « منه والريح تهب صوب الجنوب ثم تكرر الى الشمال وتدور أبداً « « مارأيتاه أمس نراه اليوم وسنراه غدا . لا جديد تحت الشمس « « ليس ثم ذكرى لما مضى . ولن تكون ثم أى ذكرى لما سيأتى « « فى نفوس من سيتلوننا « « أنا الواعظ كنت ملكا على بنى اسرائيل فى اورشليم «

ولما وصل الى هذه الجملة رفع بها صوته مغضباً يائساً ثم تلفت حوله مخافة أن يكون قد سمعه أحد ثم تناول ورقة وشرع يكتب : « ابدأ هذه الوصية التى تنتهى حياتى بانتهائها . . . »

ثم قال : « رباه ! ما اسخف هذا ! » ودفع الورقة بعنف فسقطت على الارض ثم عاد فقال : « ولكن ذلك المسكين الشقى سلو قتشك لم ير من السخافة أنه يعجز عن فهم معنى الحياة ! »

ولم يفتن يورى الى انه يتمثل برجل يصفه بأنه مسكين شقى . « وعلى كل حال فهذا مصيرى عاجلا أو آجلا لا مفر من ذلك ! ولكن لماذا ؟ لأن .. » ووقف . ونخيل اليه ان الجواب الدقيق المضبوط حاضر ولكن الالفاظ تنقصه . وكان ذهنه قد تعب واضطربت خواطره وقال : « لماذا لم أمت وأنا طفل لما مرضت بالتهاب الرئتين ؟ اذا لا تحت ! » . وارتعد لهذا الحاطر « ولو حدث هذا لما رأيت ولا عرفت ما أعرف الآن . وهذا فظيخ أيضا » ورد رأسه الى الوراء ونهض « ان هذا كفيل بأن يجن المرء »

ومضى إلى النافذة وحاول أن يفتحها ولكن مصراعها كانا مقفلين من الخارج فاستخدم قلما وفتحهما ودخل الهواء البارد فنظر إلى السماء ورأى ضوء الفجر في الأفق . وكان الفجر وضيئا ونجوم الدب الأكبر السبعة بادية وفي الشرق المتوهج يومض كوكب الصباح . وهب نسيم عليل فحرك أوراق الشجر ومزق الضباب الذى كان يحجب صفحة الغدير حيث الأزاهير يانعة . وكانت السماء موشاة بالسحب والنجوم هنا وهنا تتلامح . وكل شيء جميل رائع كأنما كانت الأرض تتأهب لاستقبال الفجر .

ثم انقلب إلى فراشه ولكن الضوء حال بينه وبين النوم فظل مستقليا ورأسه موجه وعينه مفتوحتان كغمضتين .

— ٣٤ —

خرج إيفانوف وسانين فى صباح ذلك اليوم مبكرين وكان الطل يومض فى أشعة الشمس والحجاج يدلون إلى الدبر وكانت نواقيسه تدق وتجلجل والريح تحمل أصواتها على السهوب إلى الغابات الحاملة فقال إيفانوف « لقد بكرنا » فتلفت سانين حوله مغتبطا مسرورا وقال : « إذا فلنجلس قليلا » فجلسا على الرمل وأشعلا سيجارتين وكان الفلاحون السائرون وراء مركباتهم يتلفتون لينظروا إليهما والنساء والبنات يشرن ويتصاحكن ولم يلتفت إيفانوف إلى شيء من هذا ولكن سانين كان يبتسم ويهز رأسه لمن .

ثم بدا على سلم بيت صغير أبيض سقفه أخضر لامع صاحب خمار « الكرون » وهو رجل طويل قصير كمي القميص وفتح الباب وهو لا يكف عن التثاؤب ودخلت فى أثره امرأة على رأسها منديل أحمر فقال إيفانوف : « دعنا ندخل » ففعلا واشتريا قليلا من الفودكا وبعض النقل والخضر والخبز . فقال إيفانوف لما رأى سانين يخرج حרבانه « كيسه »

« آها ! ان مالك كثير على ما يظهر يا صديقى »

فقال سانين ضاحكا : « لقد أخذت دفعة مقدما . وذلك أنى على

نقيض رغبة أمي قبلت أن أكون سكرتيراً لشركة تأمين وهذه الطريقة استطعت أن أظفر بشيئين : قليل من المال . واحتمار أمي »

ولما صار في الطريق مرة أخرى قال إيفانوف : « أوه ! إنني أشعر إنني الآن أحسن وأسعد ! »

فقال سانين : « وكذلك أنا . وما قولك في أن نخلع نعالنا ؟ »

فقال إيفانوف : « حسن جداً »

وخلعا نعالهما وجواربهما وسارا حافيين على الرمل البليل الدافئ واستلذا ذلك بعد أن نزعا أحذيتيهما الثقيلة . وقال سانين وتنفس تنفساً عميقاً « بديع أليس كذلك ؟ »

وكانت الشمس قد زادت حرارتها وهما ماضيان عن البلدة صوب الأفق الأزرق وكانت الأطيوار على أسلاك التلغراف ومر بهما قطار ركاب ، مركباته خضراء وصفراء وزرقاء ووجوه الركاب المتعبين مظلة من نوافذها وفي آخر مركبة منه فتاتان جميلتان جعلتا تتأملان هذين الحافيين وفي عيونهما أمارات الدهشة فضحك منهما سانين وارتجل رقصة عنيفة .

ورأيا على كتب منهما مرجا ترتاح القدم إلى السير على نجاتله فقال إيفانوف : « ما أبدع هذا »

فقال صاحبه « إن الحياة اليوم تستحق أن تحيا » فنظر إيفانوف إلى سانين وخطر له أن هذه الكلمات تذكره بسارودين وبالمأساة الأخيرة ولكن خواطر سانين كانت على ما يظهر أشد ما تكون انصرافاً عن هذا فعجب إيفانوف إلا أن ذلك لم يسؤه .

واجتازا المريج إلى السكة الكبرى الحاشدة بالفلاحين ومركباتهم وفتياتهم ثم بلغا الأشجار ومن ورائها النهر وإلى ناحية أخرى الدبر قائماً على تل وفوقه صليب يلتمع كالنجم المتوهج . وكانت حل الشاطئ زوارق موشاة فاستأجرا منها واحدة وكان إيفانوف يحسن التجديف فانطلق الزورق

يشق الماء ويفرق تياره وكانت المجاديف ربما لمست أعشاباً أو أخصاناً غائصة إلى قريب من رءوسها فتظل تضطرب وترتعش على سطح الماء بعد كل لمسة . وكان سانين يجدف بجدة حتى صار الماء يرغى ويزبد ويتدفع حول الدفة . وبعد لآى ماباناً مكاناً ظليلاً بليلاً وكان الماء من الصفاء بحيث يستطيع المرء أن يرى قاعه وما فيه من الحصى والأسماك فقال إيفانوف « هذا مكان يحسن أن ننزل فيه » فدفعوا الزورق إلى الشاطئ ووثبوا عنه وقال سانين « لن نجد خيراً من هذا المكان ! » وغاص إلى ركبتيه في الحشائش فقال إيفانوف « كل مكان حسن تحت الشمس » وجاء بالشراب والخبز والخضر ووضع كل ذلك على الحشائش تحت شجرة ثم استلقى وكانا قد نسيا الأكواب فتسلق سانين شجرة وقطع غصناً وقور جزءاً منه اتخذه كأساً فقال إيفانوف وكان يراقب سانين باهتمام « ولتستحم بعد ذلك » فقال سانين « فكرة حسنة » وقذف الكأس في الهواء والتقطها ثم جلسا ووقعا على الشراب والطعام ولما أصابا كفايتهما قال إيفانوف « لا أستطيع أن أنتظر الآن . وسأذهب إلى الماء لأستحم » وخلع ثيابه ولما كان لا يحسن السباحة لقد اختار موضعاً قريب الغور وكان سانين يراقبه ثم نضا عنه ثيابه في ببطء وهدوء واندفع إلى أعظم مكان في النهر فصاح به إيفانوف « حاذر أن تغرق » فضحك سانين وقال « لا تخف » بعد أن طفا على وجه الماء وكان الجو يتجاوب بأصواتهما الطروبة ثم خرجا من الماء ورقدا على الحشائش وهما عاريان وجعلتا يتقلبان فوقها ثم صاح إيفانوف « هورا » وشرع يرقص رقصة عنيفاً خشنا فضحك سانين ووثب إلى قدميه وانطلق يرقص مثله وكان جسماهما يلتمعان في ضوء الشمس وكل عضلة ظاهرة ثم كف إيفانوف وقال لصاحبه « تعالى ولا تشربت كل مابقى من الفودكا » فلبسا ثيابهما وأتيا على مابقى من الطعام والشراب وتحنى إيفانوف شربة ماء مثلجة . وقال « دعنا نعود » فراحا يعدوان بأسرع ما يستطيعان إلى الشاطئ وانحدرا إلى الزورق ودفعاه .

ثم قال سائين وكان راقداً في قاع الزورق « ألا تحس لسع الشمس ؟
فأجابه إيفانوف « هذا نذير المطر فانهمض وجدف بالله » .

فقال سائين « انك قادر على هذا وحلك » فضرب إيفانوف الماء
بالمجادفين ضربة أطارت الرشاش إلى سائين فقال « أشكرك » وورا
بموضع تكسوه الخضرة فسمعوا ضحكاً. وأصوات فتيات مزحات قتال
إيفانوف « فتيات يستحمن » فاقترح سائين « دعنا نذهب لننظر إليهن .. »
فقال إيفانوف « ربما أبعثرنا » .

أجاب سائين « كلا لن يستطعن . وفي وسعنا أن ننزل هنا وأن
ندخل بين الحشائش » فخبجل إيفانوف وقال « دعهن » .
فأجابه « تعال » فقال ! « لست أحب أن ... »
فأجابه « لست تحب ماذا ؟ » .

فقال « انهن فتيات .. صغيرات .. ولا أظن هذا يجمل بنا » أجاب
سائين « أنك مجنون . هل تريد أن تقول انك لاتشهى أن تراهن ؟ »
فقال إيفانوف « ربما كنت أشتهى ولكن » .

أجاب سائين « إذن فلنذهب إليهن ودع عنك هذا الحياء الكاذب
من ذا الذى لايفعل مانفعل إذا أتيت له الفرصة ؟ » .
فقال إيفانوف « ولكنك إذا كنت تذهب إلى هذا فلماذا لا تراقبن
علنا ؟ لماذا تختفى ؟ »

أجاب سائين مسروراً « لأن الاختفاء ألد وأمتع » .
قال « ربما كان كذلك ولكنى أنصح لك ... »
أجاب « احتراماً للعفاف على ما أظن ؟ ؟ » قال « نعم » .
أجاب « ولكن العفاف هو عين ماينقصنا » .
فقال إيفانوف « إذا أذيت عينك فاقلعها » .

فصاح سائين « أوه ! أرجوك إن تكف عن هذا الكلام الفارغ
وأن لا تكون مثل يورى . أن الله لم يعطنا عيوننا لنقلعها » فابتسم

إيفانوف وهز كتفيه وقال سائين وأدار الدفة بحيث يمضي الزورق إلى الشاطئ. « اسمع يافتي ! إذا رأيت فتيات يستحمن ولم يحرك منظرهن في نفسك أية شهوة كنت في حل من أن تدعى العفاف . ومع أنى آخر من يحاكيك في ذلك فإن مثل عزك هذه تفوز عندئذ بإعجابي واحترامي ، فأما وقد فطرنا على هذه الشهوات الطبيعية فإن محاولة خنثها تكون رياء ونفاقا . »

فقال إيفانوف « إن هذا حسن ولكن إذا لم يكن ثم كايح للربغات وجامح الشهوات أفضى الأمر إلى الشر . »

فأجابه سائين متبهما « أى شر ياترى ؟ إن للشهوانية آثاراً سيئة أسلم لك بها ولكن هذا ذنب الشهوانية . »

فقال إيفانوف « ربما كان الأمر كذلك ولكن ... »

فقاطعه سائين قائلاً « حسن جداً إذا فهل تأتى معى ؟ »

أجاب « نعم ولكنى ... » قال سائين وهما يتسللان وسط الحشائش والأعشاب « مغفل ! هذا أنت ! انتذ ترفق . لا تحدث هذا الصوت » فقال إيفانوف بحماسة « انظر هنا ! بأمل ! » وكان ظاهراً من الثياب والقبعات المكومة على الحشائش أن السباحات أتبن من البلدة وكانت بعضهن تضرب بيدها مرحة في الماء وكانت قطراته تزل كالفضة عن أعضاءهن اللينة الناعمة . وكانت إحداهن واقفة على الشاطئ طلقة وضاحة والشمس تضاعف جمال جسمها الذى كان يهتز وهي تضحك ! .

فقال سائين وفتنه هذا المنظر « تأمل هذا ! »

ففرع إيفانوف متراجعا وسأله سائين « خطبك ؟ »

فأجابه « أنها سينا كرسافينا ! »

فقال سائين : « نعم هى بعينها . ولكنى لم أعرفها . ما أفتن جمالها ! »

فقال إيفانوف « نعم هى كذلك ! »

وعات الأصوات وكثر الضحك في هذه اللحظة فعلما أن الفتيات قد سمعنهما وفرعت سينا فألقت بنفسها في الماء ولم يعد يادها منها سوى

وجهها الوردى وعينيها اللامعتين . وفر سائين وصاحبه إلى الزورق وقال سائين لما بلغاه «ما أحسن أن يكون الإنسان حيا !» ومط جسمه وغنى فتجاوب الفضاء بصوته الرنان الصافى وكانت ضحكات الفتيات لاتزال نسمع فظلع إيفانوف إلى السماء وقال « ستأخذنا السماء» وأظلمت الأشجار واكفهر الأفق وارتمت الظلال الحالكة على المروج فقال إيفانوف « يجب أن نعجل بالهرب..» فقال سائين وهو مغتبط « أين ؟ إنه لا مفر لنا الآن ! » .

وركدت الريح وزاد السكون والحمامة فقال إيفانوف « سيفغرنا المطر فأعطينى سيجارة أتسلى بها » .

وأشعل عوداً من الكبريت كان ضوءه كاييا في هذه الظلمة فثارت هبة من الريح مباغثة فأطفأته وسقطت قطرة كبيرة في الزورق وأخرى على جبين سائين ثم هطل المطر وخشخش الأشجار وكان للقطر وهو ينهل على النهر صوت الصفيير وفتحت ميازيب السماء ولم يعد يسمع إلا صوت تدفق المطر فقال سائين « بديع هذا أليس كذلك ؟ » وحرك كنفه وكان القميص قد لصق بهما فقال إيفانوف « ليس بالسيء جداً » وتجمع في قاع الزورق .

وما لبث المطر أن انقطع وإن كانت السحب لم تنقشع بل ظلت مكدسة وراء الغابة حيث كانت ترسل سهامها من البرق إلى حين فقال إيفانوف « يجب أن نرجع » فوافق سائين وخرجا بالزورق في وسط التيار وكانت السحب السوداء الكثيفة معلقة فوقهما والبرق لا يكف عن الإثخان في كبد السماء . ولم يكن ثم مطر وأكن الإحساس بالرعْد كان شائعا في الجو وجعلت الطيور تخطف في الجو فوق سطح الماء وهى مبتلة انريش فصاح إيفانوف « هو هو ! » .

ثم نزلا وسارا على الرمال وكان الظلام قد اشتد وجعلت السحب تدنو وتسف هيادها إلى الأرض وهبت الريح فجأة فثارت زوايع من التراب وأوراق الأشجار ثم جلجل الرعد فكأأنما انفطر كبد السماء وتعاقب البرق

والرعد فصاح سائين « أو هو ! هو هو » كأنما يريد أن يعلو صوته ضجة الطبيعة ولكنه لم يكن يسمع حتى صوته ..

وبلغا الحقول وكان الظلام قد أسدف والبرق يضيء لهما طريقهما ولم ينقطع الرعد . فصاح سائين « أوه ! ها ! هو ! » .
فسأله إيفانوف « ما هذا ؟ » .

وفي هذه اللحظة أضاء البرق فلمح إيفانوف وجه سائين وكان متوقفا هاشا ثم أضاء مرة أخرى فإذا سائين مفتوح الذراعين يناجى العاصفة ... !

— ٣٥ —

كانت الشمس مضيئة والجو ساكنا صافيا إلا أن فيه ربح الحريف وكان يورى يتمشى في الحديقة . وهو غارق في خواطره ينظر إلى السماء وإلى الأوراق الخضراء والصفراء وصفحة الماء المصقولة وكأنه يودعها ويريد أن يعلق صورها بذاكرته حتى لا ينفى عليها النسيان . وكان يحس شيئا من الكمد كأن كل ساعة تمضي بشيء ثمين لا سبيل إلى استرداده — شبابه الذي لم يعتبط به ومكانه باعتباره رجلا نافعا عظيما في العمل الذي وقف عليه كل هماته . ولم يكن يدرى كيف انخزل . وكان مقتنعا بأن له قوى كامنة يسعى أن تقلب العالم وعلما واسعا لا يدانيه عقل سواه غير أنه لم يكن يعرف تعليلا لاقتناعه هذا وكان ينجل أن بصارح به حتى أصدق أصفياه .

وقال وهو يتأمل ظلال الأشجار في الماء « آه ! حسن . لعل ما افعل الآن هو أحكم ما يمكن . والموت يعنى على كل شيء مهما عاش المرء أو حاول أن يعيش . آوه ! هذه لياليا آتية ! ما أسعدك ياليا ! إنك تعيش كالطائر من يوم إلى يوم لا تطلبين شيئا ولا ينقص عليك حياتك شيء ! ألا ليتنى أستطيع أن أحيا حياتها ... ! » .

على أن هذا لم يكن إلا خاطراً زائلا لأنه لم يكن في الحقيقة ينمى

أن يعتاض من آلامه الروحية هذا الوجود الضيق الذى يتمثل فى شخصية لياليا. ونادته ليا « يورى ! يورى ! » بصوت عال وإن لم يكن بينهما إلا ثلاث خطوات وضحكت بنجث ورمت إليه برسالة وردية اللون فتوقع يورى أمراً وسألها بحدة « ممن ؟ » .

فقالت لياليا « من سينوتشكا كرسافينة » وهزت له إصبعها .

فصار وجه يورى كالجمرة المتقدة وخيل إليه أن من الحمق إن لم يكن من السخافة المطبقة أن يتلقى رسالة وردية اللون معطرة عن طريق أخته . وكربه ذلك جداً وانطلقت لياليا وهى سائرة بجانبه تتحدث عن حبه لسينا على عادة الأخوات اللواتى يعينهن معاشق إخوانهن وجعلت تصف له حبا لسينا ومبلغ سرورها إذا تزوج منها وما كادت تقوه بكلمة الزواج المنحوسة حتى احتقن وجه يورى وطار الشر من عينيه وتمثلت له الصورة المبتذلة المألوفة البيت والزوجة والبنون وكان لا يفزع من شيء فزعه من أن يكون له بنون .

فقال بصوت حاد أذهل أخته : « كفى هراء من فضلك ! » فأجابته مغضبة : « مالك تكبر الأمر إلى هذا الحد ؟ وماذا يهم إذا كنت عاشقا ؟ إنى لا أفهم لماذا تتظاهر بأنك بطل غريب ؟ »

وكان فى الحملة الأخيرة أثر من المكايدة النصرية فنفذ السهم إلى القلب وما كادت تفرغ من الكلام حتى انصرفت عنه ودخلت البيت .

فجعل يورى يراقبها والغضب يتطاير من عينيه وهو يفيض غلاف الرسالة وكان هذا ما فيها : —

« عزيزى يورى

إذا سمح لك الوقت وآتتك الرغبة فى أن أنتظر أن أراك اليوم فى كنيسة الدير وستكون معى عمى وستظل فى الكنيسة الوقت كله . وأخشى أن يفدحنى الملل وبودى أن أحدثك عن شئون كثيرة . فوافنى هناك . ولعلى أخطأت فى الكتابة إليك ولكنى على كل حال فى انتظارك » .

فطار في لحظة واحدة كل ما كان يشغل خراطره ويكظ ذهنه وجعل يتلو الرسالة مرة بعد أخرى فرحاً مسروراً فقد كشفت هذه الفتاة الطاهرة الفتاة بجملتها واحدة عن سر حباها له فكأنها جاءت إليه بمحودها الحب وبذلت له نفسها وأحس أن غايته دنت فأخذته الرعدة لما تصور أنه مالكتها وحاول أن يبتسم متهمكها ولكن جهده ذهب عبثاً فقد شاعت الغبطة في نفسه حتى أحس أنه كالأطائر يستطيع أن يحلق فوق رؤوس الأشجار ويسبح في الهواء المشمس تحت السماء الزرقاء .

ولما همت الشمس بالمغيب اأكرى مركبة إلى الدبر وكان دونه النهر فركب زورقا عبر به إلى الشاطئ الآخر ولم يشعر إلا وهو في عرض النهر إن سعاده مبغها تلك الرسالة الوردية فقال يحدث نفسه : « الأمر بسيط » لقد عاشت عمرها في دنياها هذه . وإنما لرواية غرامية رقيقة . وماذا إذا كانت كذلك ؟ »

وكان الماء يضرب جانبي الزورق في رفق وهو يدنو من التل الأخضر وما كاد يصل إليه حتى أنقذ الملاح نصف روبل ثم شرع يصعد التل وكانت الشمس قد دلفت إلى مغربها وانبسطت الظلال عند سفح المنحدر وتساعد الضباب الكثيف فخفيت وراءه ألوان الأشجار وكان فناء الدير ساكناً جليلاً والأشجار كأنها تصلى والرهبان يروحون ويغدون كالأشباح والمصابيح تضيء فوق باب الكنيسة ورائحة البخور ساطعة .

وناداه صوت من وراءه « مرحبا بك يا يورى ! » .

فالتفت فإذا شافروف وسائين وإيفانوف وبيتر الليتش يجتازون الفناء ويتحدثون بصوت عال والرهبان ينظرون إليهم وجلين — حتى الأشجار عادت وكأنما فقدت شيئاً من سكون العبادة . فقال شافروف ودنا منه وكان يجلس يورى « لقد حضرنا جميعاً » . فقال يورى : « نعم . أراكم » .

فسأله شافروف : « ألا توافقنا ؟ » ودنا منه .

فأجابه يورى : « كلا ! أشكرك ! إني مرتبط بموعد » .
 فصاح إيفانوف : « أوه ! هذا حسن ! سترافقنا . إني أعرف ذلك »
 وأمسك بذراعه . فحاول يورى أن يتخلص وصاح : « كلا ! لعن الله هذا !
 لا أستطيع . ربما لحقت بكم فيما بعد » .
 ولم ترقه خشونة إيفانوف . فقال هذا « حسن . سننتظرك فلا تنس أن
 توافينا » .

فأفترقوا وعادت السكينة فخيمت على الفناء فخلع يورى قبعته ودخل
 الكنيسة وبه حياء وزراية ووقعت عينه على سينا على مقربة من أحد العمدان
 فأسرعت دقات قلبه وما كان أحلاها وأفتنها وأجل شعرها الأسود المجموع
 إلى جيدها الأتلع وكأنما شعرت بنظرته فتلفتت حولها والتمعت في عينها
 الغبطة والحياء .

فقال يورى بصوت خفيف « كيف أنت ؟ » ولم يدر أيصافحها في
 الكنيسة أم يمتنع عن ذلك وتلفت كثيرون من الحضور ففاق يورى بل لقد
 خجل ولحمت سينا خجله فابتسمت له ابتسامة الأم وفي عينها نور الحب ويورى
 واقف هناك سعيدا طائعا : ولم ترم إليه سينا بنظرة أخرى بل جعلت ترسم
 الصليب على صدرها بحماسة وورع ولكن يورى كان على يقين من أنها
 تفكر فيه فكان يقينه هذا بمثابة عروة سرية وثقت ما بين قلوبهما فاضطربت
 دماؤه في عروقه وبدأ له كل شيء عجيبا خفى الأمر - قلب الكنيسة والتراتيل
 والأضواء وزفرات المتعبدين ووقع أقدام الداخلين والخارجين - كل ذلك
 لاحظته يورى وكان يسمع في هذا السكون العميق خفقان قلبه وهو واقف
 لا يتحرك وعيناه قيد جيد سينا وقدما وكأنما كان يجب أن يقول لكل إنسان
 أنه لا يؤمن بالصلاة ولا الترتيل ولا الأضواء ولكنه مع ذلك لا يقاومها
 فأفضى به هذا إلى المقارنة بين غبطته الحالية واكتثابه في صبيحة هذا
 اليوم . .

وسأل نفسه « إذا فالمرء يستطيع أن يكون سعيداً ؟ لا شك أن كل

أرائى الخاصة بالموت وعبث الحياة منطقية ولكن الإنسان يستطيع على رغمها
جميعاً أن يسعد فيها . وإذا كنت سعيداً فإن ذلك من فضل هذه الفتاة الجميلة
التي لم أرها إلا منذ زمن قريب

ثم خطر له فجأة أنهما ربما كانا قد التقيا وهما طفلان ثم افترقا ولم يكن
أحد منهما يحلم بأن سيعشق الآخر ولا بأنها ستبدل له نفسها وهي عارية
مشرقة . فاحمر خدها وخاف أن ينظر إليها . وكانت سينا - التي غراها
خياله - واقفة أمامه في قميصها الرمادي وقبعها المستديرة تدعو الله أن يجعل
خبه لها عميقاً كحبها له ويظهر أن حشمتها العذرية وقعت من نفس يورى
فقد زابله خواطره الشهوانية وأغرورت عيناه بالدموع فرفعهما
وناجى ربه :

« رب إن كنت موجوداً فاجعل هذه العذراء تحبني واجعل حبي لها
عظيماً أبداً »

ثم قال لنفسه وقد أخجلته عاطفته « ان هذا كله كلام فارغ »
وهست في أذنه سينا أن « تعال » وكان صوتها كأنه الزفرة ومضيا إلى
الفناء وخرجاً من الباب الصغير المفضى إلى سفح الجبل ولم يكن ثم أحد
فكان السور العالى قد حجبهما عن عالم الرجال وكانت غابة البلوط تحت
أرجلهم والنهر هناك يلتصق كأنه مرآة من الفضة فتقدما إلى حافة المنحدر
وكلاهما يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً ولكن الشجاعة تنقصه . ثم رفعت سينا
رأسها فالتفت شفتاها وشفثا يورى فاضطربت واصفرت وهو يحتضنها
وأحست لأول مرة أن جسمها الدافئ اللين بين ذراعيه . ودق ناقوس فى هذا
السكون فخيّل ليورى أنه إيذان بالاحتفال بهذه اللحظة التي وجد فيها كل
منهما صاحبه ثم ضحكت سينا وتخلصت منه وقالت « ستعجب عمتى منى
ماذا أصنع ! انتظر هنا فسأعود إليك » ولقد ظل يورى لا يدرى أقالت
ذلك بصوت عال تجاوبت بأصدائه الغابة أم سبحت إليه الألفاظ كالهمة

على أجنحة النسيم فجلس على الحشائش وسوى شعره وسمع سينا تقول :
« إني آتية يا عمي ! »

— ٣٦ —

تجههم الأفق ثم خفى النهر وراء الضباب وحملت الريح من المراعى صهيل الخيل هنا وهناك وتوامضت الأضواء الضعيفة . وكان يورى جالساً ينتظر أن تعود سينا فجعل يعد هذه الأضواء :

« واحد . اثنان ثلاثة . آوه . أن هناك رابعاً عند طرف الأفق كأنه النجم الضئيل . والفلاحون جالسون حواه يصنعون طعامهم ويتحدثون . أما النار التى هناك فقرية عالية اللهب والخيل إلى جانبها تنفخ ولكنها ليست مع هذا البعد إلا شعلة ضئيلة قد تخدم أو تغيب فى أية لحظة »

وصعب عليه أن يفكر فى شيء ما لأن إحساسه بالسعادة والهناء استغرق كل مشاعره وكان ربما تتم من حين إلى حين تمتمة الفرع
« ستعود حالا . »

وهكذا ظل ينتظر على قمة التل ويصغى إلى الخيل وصيحات البط فيما وراء النهر وإلى الف شيء آخر عرضى مما يحمله إليه النسيم عن الغابة . ثم سمع وقع أقدام تسير وراءه وحفيف ثوب تعبت به الريح فعلم وإن كان لم ي تلفت أنها هى قد جاءت فارتجف لما تصور ما عسى أن يحدث . ووقفت سينا ساكنة بجانبه وأنفاسها معلقة فأمسك بها يورى وحماها بين ذراعيه وسرته جرائته وانحدر بها إلى سفح التل وكادت قدمه تزل فأسرت إليه « سنقع » واحمر وجهها وهى على هذا مغتبطة . وكان الظلام طاغيا فوضع يورى سينا وجلس إلى جانبها ولما كانت الأرض منحدرة فلأنهما كانا كالمستلقين جنباً إلى جنب فألصق يورى فمه بفمها فى قبلة عن آخر عاطفة وأجمحها ولم تتأوب أو تمنع ولكنها كانت تضطرب اضطراباً عنيفاً .

ثم تمتمت وهى تلهث وكان صوتها خافتا كأنه همسة من الغابات : «أتجنبنى؟» .
فسأل يورى نفسه وهو مذهول « ماذا أنا صانع » .

فجاء هذا الخلط كالثلج وحاد كل شئ فى لحظة وصار كنهار الشتاء تنقصه القوة والحياة وكانت عيننا سينا تستجربانه وتحاولان أن تستشفا من وجهه ما انطوت عليه ضلوعه فلما رأت نحياه وتغير سحنه تراجعت عنه وتحلصت من عناقه وصار صدر يورى ميدانا للعواطف المتدافعة . فأحس أن التراجع سخيف وشرع من جديد يلاطفها فى فتور وضعف وهى تقاومه بمثل فتوره وبروده وعاد الموقف وليس أسخف منه فى نظر يورى فأخلى سبيلها وكانت تلهث كالطريدة .

وساد سكون أليم ثم قال فجأة : « عنوا ... لا بد أنى جننت ! » .
فأسرعت أنفاسها وخطر له أنه لم يكن ينبغى أن يقول هذا الكلام الذى لا بد أن يكون قد آلمها وجرح نفسها فأخذ على غير إرادته يعتذر بما يعلم أنه كاذب مزيف ولم تكن له إلا رغبة واحدة هى أن يعود أدراجه لأن الموقف صار لا يحتمل .

ويظهر أنها لمحت ذلك فقد قالت : « ينبغى ... أن أذهب » .

فهنضا ولم ينظر أحد منهما إلى صاحبه وحاول يورى للمرة الأخيرة أن يوقظ نائمة إحساساته فعانقها عناقا فاترا فتحركت فى نفسها عاطفة الأمومة وكأنما أحست أنها أقوى منه فدنت منه ولصقت بصدره ونظرت إلى عينيه وابتسمت ابتسامة رقيقة عذبة وقالت : « عم مساء . تعال إلى غدا » ثم طبعت على فمها قبلة حارة أذهلت يورى ودار لها رأسه ووقف منها موقف العابد من ربه .

ولما انصرفت عنه ظل يرمة طويلة يصنئ إلى وقع قدميها ثم التقط قبعته ونفض عنها أوراق الشجر الداوية قبل أن يضعها على رأسه ومضى إلى الدبر من طريق طويل تفاديا من لقاء سينا .

وقال لنفسه : « آه ! ألا بد لى من تدنيس هذه الفتاة الطاهرة النقية ؟

أينتهى الأمر بأن أفعل ما يفعله أى رجل غبرى من الأوساط ؟ بارك الله فيها ! إن هذا يكون خسة ودناءة . ويسرنى أنى لم أهر إلى هذا الحضيض . وما أظفح ذلك ! فى لحظة واحدة.. بدون كلام... ينقلب الانسان حيوانا ! ».

وهكذا كن يفكر مشمئزاً مما كان قبل لحظة مبعث سرور وقوة له . وتنازعه الإحساس بالخبجل والسخط — حتى رجلاه كان يجرحهما وحتى قبعته كانت على رأسه وكأنها على رأس مرور أبله .

ثم سأل نفسه يائسا : « وبعد فهل أنا فى الحقيقة كفاء للحياة ؟ » .

— ٣٧ —

كان الممر المفضى إلى الدير يفوح برائحة البخور والخبز ولح يورى راهبا قويا نشيطا وفى يده وعاء فصاح به يورى : « أيها الأب ! » واضطرب لمخاطبته بهذه العبارة وظن الراهب سيحار مثله ويرتبك .

فسأله الراهب بأدب وكانت بينهما سحب من البخور : « ماذا تبغى ؟ » . فقال يورى : « أليس هنا طائفة من الزوار آتون من المدينة ؟ » . فأجابه الراهب على الفور كأنما كان يتوقع هذا السؤال : « نعم فى رقم ٧ » .

ففتح يورى الباب فألقى غرفة يتلوى فى جوها دخان الطباقي ورأى ضوءاً قريباً من شرفتيها وسمع أصوات الكؤوس والشاربين وضحكاتهم وكان شافروف يتكلم ويقول : « إن الحياة داء عياء » . فصاح به إيفانوف : « وأنت مغفل لا شفاء لك ! ألا تستطيع أن تكف عن صوغك الأبدى لهذه العبارات السخيفة ؟ » .

ودخل يورى فاستقبلوه بأعظم الترحيب وأصخبه ووئب شافروف إلى قدميه وكاد يجرح غطاء المائدة عنها وهو يصافح يورى ويقول له : « ما أعظم سرورى بحضورك ! الحق أن هذا فضل كبير منك ! أشكرك كثيراً » .

فجلس يورى بين سائين ويبر الليثش وجعل ينظر حوله وكان فى الشرفة مصباحان مضيئان وكأنما وراءهما من الظلمة جدار ولكنه مع ذلك استطاع أن يرى النجوم تومض فى قبة السماء وأن يلمح الجبل عند الأفق ورءوس الأشجار العالية وسطح الماء اللامع وكانت الفراشات تأتى من الغاب وتدور بالمصباح ثم تسقط على المائدة وتموت موتا بطيئا فقال يورى لنفسه وكأنه يرئى امصرع هذه الفراشات « ونحن أيضا كهذه الفراشات نرتعى على النار ونحوم حول كل فكرة براقة لنقضى نحبنا آخر الأمر ونتوهم أن الفكرة هى مظهر إرادة الحياة على حين ليست إلا النار التى تذيب عقولنا » .

فقال سائين ومد إليه يده بالزجاجة : « والآن فلتشرب » .

فقال يورى : « بكل سرور » وخطر له أن هذا يكاد يكون خير ما يسهه أن يصنع بل هو فى الواقع كل ما بقى عليه أن يفعله .

فشربوا جميعا وكان مذاق الفودكا فى فم يورى بشعاً خارا مرا كالسم فعالجه بالخطر ولكن هذه أيضا لم تكن أحسن طعما فلم يسفها حلقه . وقال لنفسه : « كلا ! سواء على الموت وسيريا إنما المهم أن أزيل هذا المكان كله ! ولكن أين أذهب ؟ إن الحياة سواء فى كل مكان ولا مهرب لى من نفسى ومتى شرع المرء يفكر فى الحياة فأخلق بها أن لا تعود أى صورة منها مرضية سواء أعاش فى جحر كهذا أم فى بطن سبرج » .

وقال شافروف : « إنى أرى أن الإنسان لا شىء من حيث هو فرد » .

فنظر يورى إلى وجهه الغبى وعينيه المتعبتين الصغيرتين الباديتين من وراء النظارة وقال لنفسه إن مثل هذا لا شىء فى الحقيقة . ومضى شافروف فقال : « إن الفرد صفر وما يرزق القوة الحقيقية إلا الذين يخرجون من صفوف الجماهير ولا يفقدون الاتصال بها ولا يقاومونها كما يفعل أبطال الطبقات الوسطى » .

فسأله إيفانوف بلهجة المتحفز : « وفي أى شيء تكون قوتهم من فضلك؟
 أتظهر قوتهم في محاربة الحكومة الفعلية؟ ربما؟ ! ولكن كيف تساعدكم
 الجماهير في جهادهم في سبيل السعادة الشخصية؟ » . فقال شافروف :
 « آه ! هذا أنت ! إنك رجل ضخم من طراز السوبرمان . ولذلك تنشده
 نوعاً من السعادة يلائمك ولكتنا نحن الأوساط نرى أن جهادنا في سبيل
 الغير هو السعادة . انتصار الفكرة هو قوام السعادة ! » .
 فسأله إيفانوف : « وهب الفكرة كانت خطأ » .

فقال شافروف : « هذا لا يهم ! إن الإيمان هو كل شيء » . وهز رأسه
 معانداً . فقال إيفانوف بازدياء : « بآه ! إن كل امرئ يعتقد أن عمله أهم
 عمل وأن الدنيا لا يسعها الاستغناء عنه - حتى حائك ثياب السيدات يظن
 ذلك ويتوهمه ! وأنت تعلم هذا حتى العلم وإن كنت قد نسيت على ما يظهر
 وإذا كنت صديقاً لك فليس يسعني إلا أن أذكرك ! » .

- فنظر يورى إلى إيفانوف نظرة البغض والمقت وسأله بلهجة
 الزرابة : « وما هو قوام السعادة في رأيك؟ » .

فقال إيفانوف : « إن قوامها على التحقيق ليس الزفرات والأثاث
 التي لا آخر لها ولا التساؤل الذي لا ينتهى كأن يظل المرء حياته يقول :
 « لقد عطست الآن . فهل كان هذا صواباً؟ أليس ذلك خليقاً أن
 يضر بعضهم؟ هل أدبت واجبي وقت بمهمتي إذ عطست؟ » . فغاظ
 يورى أن يلمح أن إيفانوف يظن نفسه أذكى منه وأنه يتضحك به
 فأجابه :

« إن هذا ليس برنامجاً » وحمل لهجته ما استطاع من الازدياء .

فقال إيفانوف : « أبك حقاً حاجة إلى برنامج؟ إنى إذا شئت واستطعت
 أن أفعل شيئاً فعلته . هذا هو برنامجي » . فقال شافروف بحدة
 « ما أحله من برنامج ! » وهو يورى كتفيه ولم يجب .

وظلوا لحظة أخرى يشربون في صمت ثم التفت يورى إلى سائين
وشرع يشرح له آراءه في الله تعالى وكان يقصد إلى إسماع إيفانوف
مايقول وإن لم ينظر إليه . وكان شافروف يصغى باحترام وحماسة .
أما إيفانوف فأولاه ظهره وجعل يقول بعد كل بيان يلقيه يورى : « لقد
سمعنا هذا من قبل ! » .

فتدخل سائين في آخر الأمر وقال لإيفانوف :

« أرجوك أن تكف عن هذا ! ألا ترى أن تكريرك عبارتك هذه
ممل جداً ؟ إن لكل إنسان الحق في إبداء رأيه والحرية في اعتناقه » :
ثم أشعل سيجارة وخرج إلى التناء فحفف سكون الليل من حرارة
جسمه وكان القمر قد طلع من وراء الغابة وأراق ضوءه البلس اللين
على عالم الظلام ثم سمع وقع أقدام عارية على الحشائش ورأى غلاماً
يخرج من الظلام فسأله : « ماذا تريد ؟ »

فقال الغلام : « إنى أبحث عن المدموازيل كرسافينا المدرسة » .

فسأله سائين : « لماذا ؟ » وذكر سائين منظرها وهى عارية على حافة النهر
ونور الشمس يغمر جسمها . فقال الغلام : « إن معى رسالة إليها » . فقال
سائين : « اها ! لا بد أنها هناك عند الممر لأنها ليست هنا فاذهب إلى
هناك » .

فضى الغلام . وغاب في الظلام وتبعه سائين في بطء وهو ينشق النسيم
الرقيق الحواشي ويكرع منه كرعاً وسار حتى دنا من المسكن وصار الضوء
المرسل من النافذة على وجهه المهادى المفكر فلمح سينا عند النافذة واقفة
في ثياب النوم وعلى كتفها المستدير الرقيق نور المصباح وكانت غارقة في
خواطرها ويظهر أنها كانت سارة إلا أن فيها ماتستحي منه فقد كانت أجفانها
تخلج وعلى شفيتها ابتسامة مرتسمة فرأى فيها سائين ابتسامة العذراء
الناضجة الملهبة لقبله ساحرة طويلة . فوقف جامداً مكانه وجعل يحديق فيها .
وكانت سينا تفكر فيما مر بها في يومها وفي تجاربها التي سرتها وأثارت
على هذا حياءها وخجلها فقالت لنفسها : « يا إلهى ! أو قد هويت إلى هذا

الدرك؟» ثم ذكرت للمرة المائة مافازت به من الغبطة وهى بين ذراعى يورى وهمسه « واحبييتاه ! » ولحظ سائين اختلاج جفونها مرة أخرى وابتناسمتها ولم تشأ أن تفكر فيها تلا ذلك مما دفعت إليه العاطفة الجامحة . ودق الباب فسألت سينا : « من الطارق ؟ » - ورأى سائين جيدها الناصع الرقيق كأوضح ما يكون - فقال الغلام : « هذا خطاب إليك » .

ففتحت سينا الباب ودخل الغلام وقدماه تحملان طوائف شتى من الأوحال ونزع قمته عن رأسه وقال : « قد أرسلتى سيدتى » .

ففضت سينا الرسالة وقرأت : « عزيزتى سينوتشكا ! إذا استطعت فاحضرى الليلة فقد جاء المفتش وسيزور مدرستنا غدا صباحاً ولا يحسن أن تكونى غير موجودة » . فسألها عمتها « ماذا ؟ » فقالت سينا : « قد أرسلت ديوفو فى طلبى لأن المفتش حضر » . وحك الغلام قدميه وقال : « لقد أمرتنى أن أرجوك أن تبادرى إلى الذهاب » فسألها عمتها : « أذهبية أنت ؟ » .

أجابت : « كيف أذهب وحدى فى الظلام ؟ » .

فقال الغلام : « إن القمر فى كبد السماء والليل منير » .

فقالت سينا مترددة : « لا بد لى من الذهاب » .

فقالت عمتها : « نعم نعم . اذهبي لئلا يحدث ما لا تحبين ؟ »

فهزت سينا رأسها وقالت : « حسن سأذهب إذا » .

ولبست ثيابها ووضعت قمعتها على رأسها وودعت عمتها وانفتحت إلى الغلام وقالت : « أو عائد معى أنت ؟ » فأطرق الغلام واربتك ونحك قدميه وقال : « لقد حضرت لأبقى مع أمى الليلة وهى تغسل ثياب الرهبان هنا » .

فقالت سينا : « ولكن كيف أذهب وحدى ؟ » .

فأجابها الغلام : « حسن جداً . فلنذهب معاً » .

وخرجوا إلى الظلام فقالت : « ما أبدعه من منظر ! » .

ثم ماعتجت أن نددت عنها صرخة إذ اصطدمت بإنسان في الظلام .
فقال سائين ضاحكاً : « إنه أنا » .

هدت سينا إليه يدها المرتجفة وقالت على سبيل الاعتذار : « إن الظلام طاخ
لا تنفذ فيه العين » . فسألها سائين : « أين تذهبين ؟ » .

أجابت : « إلى المدينة فقد أرسلوا في طلبى » .

قال : « وحده ؟ » . أجابت : « كلا ! معنى الغلام وهو الليلة فارسي » .

فقال الغلام ضاحكاً : « فارس ! هاها ! » .

وسأله سينا : « وماذا كنت أنت تصنع هنا ؟ » فقال سائين : « كنا
نشرب قليلاً » : فسألته سينا . « قلت « كنا » فمن هم ؟ » .

أجاب : « نعم . شاقروف ويورى وإيفانوف و... » .

فقالت سينا : « أوه ! وهل يورى معك ؟ » واحمر وجهها وسرت في
جسمها لذكر اسمه هزة جعلتها تحس كأنها واقفة على حرف هاوية . فسألها
سائين : « لماذا تسألين ؟ » .

فقالت وزاد خجلها « لأننى . . . قا ! . . . قابلته . والآن إلى الملتقى ! » .
فصافح سائين البد الممدودة إليه وقال : « إذا شئت فإنى مستعد أن أحملك في
زورقى إلى الشاطئ » الآخر . لماذا تقطعين كل هذه الدورية على قدميك ؟ » .

فقالت سينا : « كلا ! لا تتعب نفسك من فضلك ! » وقال الغلام :
« دعيه بالله يفعل فإن الشاطئ كله أوحال تفوجس فيه الرجل إلى الركبة » .
فقالت : « حسن إذا . ولتذهب إلى أمك الآن » .

فسألها الغلام « ألا فى إفين أن تجتازى الحقول وحده ؟ » .

فأجاب سائين : « سأرافقها إلى البلدة » .

فسألته سينا : « ولكن ماذا عسى أن يقول اخوانك ؟ » .

فأجابها : « هذا لا يهم ! سيقالون إلى الفجر على كل حال . وحسبى ما عانيت
من الملل إلى الآن » .

فقالت : « إن هذه منة أحفظها لك -- اذهب يا جريشكا » .

فقال سائين : « امسكى بذراعى وإلا تعثرت » .

فلفت سينا ذراعها بذراعه وخالجهما إحساس غريب لما لمست عضلاته الحديدية وهكذا مضيا فى الظلام واخترقا الغابة إلى النهر وكان الليل فى الغابة أسحرم طائخيا كأنما لفت كل الأشجار فى ضباب ذائق لا تنفذ العين منه .
فقالت : « ما أشد الظلام ! » .

فهمس سائين فى أذنها وكان صوته يرجف قليلا : « هذا لا يهم ! إني أحب السرى فى الغابات لأن المرء حينئذ ينضوعه ثوب الرياء ويعود أجراً وأمتع » . وكانت سينا تجد صعوبة فى السير وشاع فى جسمها الاضطراب للمامستها فى هذه الظلمة جسم سائين التوى المتين الذى كان يجذبها أبداً واحمر وجهها وعاد كالجمرة المضطربة وأعداها سائين بحرارة جسمه فصار ضحكها متكلفاً لا ينقطع . وكان الظلام أخف عند سفح التل والقمر يريق ضوءه على صفحة الغدير والنسيم البليل يصافح خديها وأخذت الغابة تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كأنما أسلمتها إلى النهر .

فقالت : « أين زورقك ؟ » . أجاب : « هذا هو » .

ثم أخذها مقعدهما فيه واكسبها القمر والقماق الماء وضاءة وروعة ودفع سائين الزورق فانطلق يفرق الماء ويعوم على ضوء القمر مخلفا وراءه خطا طويلا .

فقال سينا وأحست فجأة قوة لاتغالب : « دعنى أجذف فإني أحب ذلك » . أجاب : « إذا فاجلسى هنا » ووقف هو فى وسط الزورق . فاحتكت به وهى تنقل إلى مكانها الجديد ولمست بأطراف أصابعها يده الممدودة إليها لمساعدتها . وبدت أمامه فى حسنها الرائع . وهكذا سبحا على متن الغدير . والقمر يرسل أشسته على وجهها الباهت واجبيها السوداوين وعينيها النيرقتين فخيّل لسائين أنهما مقبلان على أرض مسحورة منغزلة عن الناس بعيدة عن منازلهم خارجة عن دائرة القانون والعقل الإنسانى : .

وقالت سينا « ما أجمل هذه الآية ! » .
 فقال بصوت خفيض : « نعم أليست كذلك ! » .
 فانفجرت ضاحكة وقالت : « لا أدري كيف هذا ولكني أحس رغبة
 شديدة في أن ألقى بقبعتي في الماء وارسل شعري » .
 فقال سائين : « إذا فعلى » .

ولكنها قلقّت وصمّت . وكثرت خواطرها إلى ما مر بها في يومها من
 التجارب وخيل لها أن من المستحيل أن لا يكون سائين عارفا بما جرى فزاد
 هذا الظن في حدة سرورها ونازعها نفسها أن تقول له أنها ليست دائماً ساكنة
 حينية محتشمة وأنها أحياناً تلقى عن وجهها قناع الرياء وتعود شخصاً آخر مختلفاً
 جداً .

وسألته بصوت مضطرب : « هل عرفت يورى منذ زمن طويل ؟ » . أجاب
 « كلا ! لماذا تسألين ؟ » .

قالت : « مجرد سؤال . ألا تظنه ذكياً ؟ » .
 وكانت في صوتها نبرة حياة صبياني كأنما كانت تريد أن تنتزع شيئاً ممن
 هو أسن منها ومن له أن يلاطفها أو يعاقبها .

فابتسم سائين لها وهو يقول : « نعم ! » . وعلمت سينا من صوته أنه يتسم
 فزاد حياؤها وقالت : « إنه حقيقة ذكي ... ولكنه شقي على ما يظهر ! » . فأجابها
 سائين : « ربما كان الأمر كما تصفين . فأما شقاؤه فلا شك فيه . وهل أنت
 آسفة له ؟ » .

فقالت سينا بدلال متكلف : « نعم بلا شك » .

فقال سائين : « هذا طبيعي ولكن للشقاء معنى عندك غير معناه الحقيقي :
 إنك تظنين أن الرجل الساخط الذي لا ينفك يحال ويشرح حالته النفسية وأعماله
 — مثل هذا الرجل تظنينه لاشتباً مسكيناً بل تحسبينه قوة وشخصية نادرة فذة .
 لأنك تتوهمين أن هذا التحليل المستمر من شأنه أن يخول المرء أن يظن نفسه
 أرقى من سواه وأحق بالمعطف والحب والإجلال » .

فسألته سينا: «حسن ولكن ماذا هو إذا لم يكن كذلك؟» .
ولم تكن قد كلمت سائين طويلا من قبل . وكانت تسمع أنه فذ فريد
في بابه فوجدت لذة في ملاقة مثل هذه الشخصية الجديدة الممتعة وضحك
سائين وقال: «مضى زمن كان الإنسان فيه يعيش عيشة الوحش ولا يحمل
نفسه تبعه أعماله أو إحساساته ، ثم تلا ذلك عهد الحياة المحسة المدركة
فبالغ الإنسان في مفتتحها في تدبير عواطفه وحاجاته ورغباته . وهنا عند
هذا الطور - يقف يورى فهو آخر «الموهيكان» - آخر من يمثل عصرا
من النشوء الإنسانى مضى وانقضى ولا سبيل إلى عوده . وكأنه قد أشرب
خلاصة ذلك العصر فتسمنت روحه . فهو لا يحيا حياته في الحقيقة .
يهائل نفسه عن كل عمل وكل فكرة «هل أحسنت؟ هل أسأت؟» .
وهذا غاية السخف . وهو في السياسة لا يدري هل يليق بكرامته أن يقف
في صف مع الآخرين أم لا يليق وإذا نفى يده من الاشتغال بالسياسة عاد
يعجب لنفسه أليس اعتزاله إياها مهانة له وأمثاله كثير ، وإذا كان يورى
شاذاً فذلك راجع إلى أنه أذكى .

فقالت سينا بحذر : «لم أفهم مرادك تماما . إنك تتكلم عن يورى كأنه
هو المثلوثم عن كونه كذلك . وإذا كانت الحياة عاجزة عن إرضاء رجل
فهذا الرجل لابد أن يكون فوق الحياة» .

فأجابها سائين قائلاً: إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه ليس إلا
جزءاً من الطبيعة بل هو قودها يتخطى ولكن مرجع السخط إلى نفسه . فهو إما
لا يستطيع أو لا يجوز له على أن يأخذ من كنوز الحياة ما يسد حاجته . ومن
الطبع لمن لا يقف فوقه ، حيث أنهم يتقربون وهناك غيرهم آخرون يخافون أن
يفرغوا منها كالطائر الأملير ينزلق من الطيران إذ يطلق له .. والجسم والروح
مطلبان يكونان كالأداة متجاوبين لا ينفصلان إلى وقت الموت الرهيب ولكننا نحن
الذين القضي على أهدافنا التلائم بساكنة فكرتنا بعين الحياة . فقد زعمنا أن
رغباتنا الطبيعية سيوانية وأصررنا نحن «العلماء والفلاسفة» معها ونحقيقها في صور

وضيقة . والضعاف منا لا يفتنون لهذا بل يقطعون حياتهم في الأغلال
المضروبة عليهم . أما الضحايا فاولئك الذين تتعد بهم آراؤهم المقلوبة .
ولاشك أن القوى الخبوسة تتطلب منفذا وأن الجسم يشد السرور والآلة
وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع
دائم وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضى بهم إلى
نظرية أخلاقية أحدث وأجد ولا يزالون كذلك حتى يعودون وهم يخافون
أن يعيشوا وأن يحسوا . فقالت سينا مبتهجة : « نعم نعم » . وغزت رأسها
كتائب من الخواطر الجديدة وتلفت حولها وعينها تضيء وتغلغل إلى أعماق
نفسها جمال الليل وحسن الغدير الساكن والغابات الحاملة وعاودها الشوق
إلى تجربة القوة التي تؤتيها السرور .

ومضى سنانين في كلامه فقال : « إنى أبداً أحلم بعصر ذهبي لا يحول فيه
شيء بين الإنسان وسعادته فيبأشركل ما يستطيع من المتع في جرأة وحرية » .
فسأته سينا : « ولكن كيف يصنع ذلك ؟ أبالرجوع إلى الحمجية ؟ » . قال :
« كلا . إن العصر الذي كان فيه الإنسان وحشا كان عصراً منحوساً . وعصرنا
الحاضر الذي يتحكم فيه العقل في الجسم ويخفيه عصر تنتصه الهمة والرشد .
ولكن الإنسان لم يعيش عبثاً فقد خلقت له حياته حالات جديدة لاتدع مجالاً
لحشونة الحمجية ولا للرهابية » .

فسأله : « وماذا عن الحب ؟ ألا يفرض علينا قيوداً ؟ » .
فقال : « كلا ! إن الحب إذا كان يفرض قيوداً مؤلمة فذلك من
جرا، الغيرة . والغيرة نتيجة العبودية . والرق في أى صورة ضار
وينبغي للناس أن يستمتعوا ما يتيح لهم الحب بلا خوف ولا قيد فإذا فعلوا
عاد الحب أمتع وأحفل في كل صورة وأكثر تأثراً بالمصادفات والفرص » .
فقالت لنفسها : « لم يخالجنى أى خوف في هذه اللحظة » ثم نظرت فجأة
إلى سنانين نظرة من يراه لأول مرة وكان جالساً أمامها أسود العينين
عريض الكتفين يشوق الناظر إليه ويروق فقالت لنفسها : « ما أجمله ! » .

وبدا لعينها عالم بأسره من القوى والعواطف فهل تدخله ؟ فابتسمت لهذا المخاطر وهى ترنجف ولا بد أن يكون سائين قد أدرك ما يجول فى خاطرها فقد أسرعت أنفاسه وعاد وكأنه يلهث . وممر الزورق بنقطة يضيق فيها مجرى النهر فتلقى الجداغان بالأعشاب وأفلتا من كثيها فقالت : « لا أستطيع أن أجذف هنا إن المجرى ضيق » وكان صوتها رقيقا منغما كخزير الماء . فوقف سائين وسار إليها فسألته وهى فزعة : « ماذا ؟ » . فقال : « لاشيء إلى أريد . . » .

فوقفت مثله وحاولت أن تصل إلى الدقة واضطرب الزورق اضطرابا عنيفا ففقدت توازنها ومالت إلى سائين وأمسكت به ووقعت بين ذراعيه . وفى هذه اللحظة — وبدون أن يجرى فى خاطرها أن هذا ممكن — أطالت التصاقها به فاندلعت النار فى دماء سائين وخرجت من بين شفثيه آهة دهشة وسرور واحتضنها ورددها إلى الوراء حتى سقطت قبعتها وزاد اضطراب الزورق فصاحت به : « ماذا تصنع ؟ دعنى بالله ! ماذا تصنع ؟ » وكان صوتها ضعيفا خافتا . وحاولت أن تتخلص من ذراعيه الحديديتين ولكن سائين ضم صدرها إليه ضما أزال ما كان بينهما من الحواجز .

ولم يكن حولهما إلا الظلام . وإلا رائحة النهر والأعشاب البليلة . وجو يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون عميق ثم فقدت فجأة وهى لا تدرى كل إرادة لها أو فسكرة فتراحت أعضاؤها وأسلمت نفسها لإرادة غيرها .

— ٣٨ —

أفاقت سينا أخيراً فأبصرت صورة القمر الوضاء ترسم على صفحة الماء ووجه سائين مكباً عليها بعينيه اللامعتين وأحست أن ذراعيه حول خاصرتها وأن أحد الجدافين يحك ركبتيها .

ثم طفقت تبكى بكاء رقيقا ملحاً دون أن تحاول التخلص من عناق سائين وكان بكاءها على ذلك الذى لا يرد ودموعها دموع الحوف والمرثية

لنفسها والحب له. فرفعها سانين ووضعها على ركبته وهي مستسلمة له كالطفل وكانت تسمعه يرفه عنها بلهجة الراحل الشاكر وكأنها تحلم فقالت لنفسها: «سأغرق نفسي» وكأنما كان هذا الخاطر جوابا على سؤال شخص ثالث يقول لها: «ماذا صنعت؟ وماذا تنوين أن تصنعى الآن؟»

ثم سألت سانين بصوت عال: «ماذا أصنع الآن؟» فأجابها سانين: «سنرى» فحاولت أن تنهض عن ركبته ولكنه أمسك بها فبقيت في مكانها وهي تعجب كيف لا تشعر له بمقت أو اشتزاز وحدثت نفسها إن لم يعد يعينها ما عسى أن يحدث وتعالجها شعور خفي بالعجب ما لهذا الرجل القوى الأجنبي الحبيب ماذا ينوى أن يصنع بها.

وبعد برهة تناول سانين المجذافين واستلقت هي إلى جانبه وعيناها مغمضتان، وجسمها يضطرب كلما لامست يده صدرها وهو يجدف، ولما بلغ الزورق الشاطئ فتحت عينيها فأبصرت الحقول والماء والضباب والقمر باهتا كالشبح يهيم بالفرار من الفجر وكان الفجر قد نفس وهب النسيم باردا، فسألها سانين: «هل أذهب معك؟» فقالت: «كلا، إنى أفضل أن أمضى وحدى» فحملها سانين وسره أن يحملها فقد كان يحس أنه يحبها وأنه مدين لها بالشكر ووضعها على الشاطئ بعد أن ضمها وقال: «يالك من حسناء» فابتسمت ابتسامة الزهو. وتناول سانين يديها وجذبها إليه وقال: «قبلى» فقالت لنفسها وهي تطبع على فمه قبلة حارة طويلة: «لا يهم الآن! إن كل شيء لا يهم» وهمست في أذنه: «إلى الملتقى» وهي لا تكاد تدري ما تقول فناشدها سانين أن: «لا تغضبي علىّ يا فتاتي!»، وجعل يراقبها وهي تصعد الشاطئ مترنحة متطرحة وهو يرثى لها واحزنه ما هو مذخور لها من الآلام التي لا ضرورة إليها والتي لا قبل لها باحتمالها وكانت تسير في ببطء إلى مطلع الفجر ولم تلبث أن لفها الضباب في شملته البيضاء.

ولما خفيت عن عينه وثب سانين إلى الزورق وجلد الماء بمجدافيه

فأرغاه. واندفع به الزورق حتى توسط النهر وكان ضباب الفجر قد غشى ما حوله فترك المخدافين ووقف في وسط الزورق وأطلق صيحة فرح عالية فتجاوبت بصيحته الغابات والضباب كأنما كانت حية مثله .

- ٣٩ -

نامت سينا كأن ضربة أصابتها ولكنها بكرت في القيام وكانت مهدودة القوى بادرة الجسم كاللجنة . ولم يمْ بأسها لحظة ولم تستطع أن تنسى ما حدث فجعلت وهي حزينة صابئة تفحص ما في الغرفة كأنما تريد أن ترى هل لحق شيئاً تغير ولكن كل شيء كان على العهد به وكانت ديبوفا على السرير الثاني مستغرقة في نومها وليس غير الثوب الملقى على كرسي بدون احتفال يقص عليها قصتها . وزاد وجهها اصفرارا وأحضرت لذهنها كل ما مر بها ثم نهضت ولبست ثيابها وجلست إلى النافذة تنظر إلى الحديقة وكان رأسها يتوج بالخواطر المضطربة المهمة كاللدخان إذ تعبت به الريح . ثم استيقظت ديبوفا فجأة وقالت : « ماذا ؟ أوقد قت ؟ ما أعجب هذا ؟ » .

وكانت لما حضرت سينا صباحا قد سألتها والنوم يغالبها :

« كيف استطعت أن تحضري في هذه الليلة ؟ » ثم نامت ولم تنتظر الجواب ولكنها لما تبينت الآن أن في الأمر شيئاً أسرعت حافية وسألتها « ما الخبر ؟ أمريضة أنت ؟ » فقالت سينا وعلى شفيتها الورديتين ابتسامة : « لا لا ! ولكني لم أذق النوم » .

وهكذا نطقت بأول اكذوبة أحالت علنيتها الصريحة المزهوة ذكرى وجعلت تنظر إلى ديبوفا وهي تلبس ثيابها فبدت لها نقية وضاعة ورأت نفسها بغیضة كالأنفى وبلغ من ذلك أن خيل لها أن الجانب الذي كانت ديبوفا واقفة فيه مشمس ضاح على حين بدا لها ركنها مغموراً بالظلام . ولكن ذلك كله كان مكتوماً ولم يكن ظاهرها الظاهر يتم على شيء ثم لبست خلتها وقبعتها

وتناولت مظهرها وذهبت إلى المدرسة جذلة على عاداتها وبقيت ثم إلى الظهر ثم عادت وقابلت في الطريق ليذا فوقفتا نتحدثان عن أمور تافهة كثيرة وكانت ليذا تمتعت سينا لظنها أنها سعيدة حرة فارغة القلب من الهموم على حين كانت سينا تنفس على ليذا حياتها السلسلة الممتعة وكانت كل منهما تعتقد أنها ذاهبة ضحية الظلم وتقول لنفسها: «إني ولا شك خير منها فلماذا تسعد وأشتي ؟» .

وتناولت سينا بعد الغداء كتاباً وجلست قرب النافذة تقرأ وكانت ساعة الانفعال قد انقضت فصارت الآن لا تحفل بشيء وجعلت تردد من حين إلى حين: «آه ! لقد قضى الأمر . وخير لي أن أموت» . ورأت سائين قبل أن يراها وكان سائرا صوبها يحترق الحديقة وينحى عنه الأغصان المهذلة كأنما تريد أن تحييه بلمسها فاضطجعت في كرسيها وجعلت ترقبه بعينين شاردتين . وقال ومد إليها يده: «عمى صباحاً» . وقبل أن تستطيع أن تنهض أو تفيق من دهشتها حياداً مرة أخرى بصوت رفيق فتمتمت: «عم صباحاً» . فقال إلى النافذة وانكأ عليها وقال: «تعالى إلى الحديقة برهة نتحدث» . فنهضت تدفعها قوة سلبها إرادتها وقال سائين: «سأنتظرك هناك» فلم ترد على أن هزت رأسها .

وكانت سينا تشفق من النظر إليه وهو يتراجع إلى الحديقة فظلت بضغ ثوان جامدة في مكانها ويدها متصافقتان ثم خرجت وكان سائين واقفاً ينتظارها في بعض جهات الحديقة فأقلقها ابتسامته فتناول كفها وجلس على جذع شجرة وجذبها برفق إلى حجره وقال: «لست واقفاً من أنه كان يليق بي أن أحضر لآني أحشى أن تظني أنني أسأت إليك ولكني لم أستطع البقاء بعيداً عنك وأريد أن أشرح لك بعض الأمور حتى لا تندهب إلى مقبي وكرهى . وبعد... فإذا كنت أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ؟ كيف كان يسعني أن أقاوم ؟ لقد مرت بي لحظة شعرت فيها أن كل حاجز بيننا تداعى وأني إذا أفلتنتي هذه اللحظة فلن تعود وأنت رائعة الجمال وضيئة

الشباب . . . » وكانت سينا صامته وأذنها الرقيقة الشفافة يغطيها شعرها إلا أقلها فاحرت واختلجت أهداب أجفانها فقال سانين : « إنك شقية الآن . أما البارحة فما كان أجمل كل شيء ! وإنما تنشأ الأحزان لأن الإنسان فرض ثمننا لسعادته ولو أن أسلوب حياتنا كان مختلفا لبقيت ليلتنا هذه في ذاكرتنا أنفس ماجربناه وأجمل ما استمتعنا به » . فقالت : « نعم لو أن ... » ثم انتسبت فجأة فأنهشها اسمها التي لم تكن مقدرة ولكن ذلك لم يطل إلا برهة . ثم تراءت لها حباتها المستقبلة تكثفها الأحزان والعار فأثارت في نفسها هذه الصورة الخمد والمقت وقالت بحدة : « اذهب عني ! دعني ! » . وصرت أسنانها وتضلب وجهها ونطق بالبغض وهي تنهض .

فرق لها قلب سانين ونازعته نفسه هنية أن يعرض عليها اسمه وحمايته ولكن شيئا صده وصرفه وأحسن أن مثل هذا الإصلاح لما أفسد أحط وأسفل من أن يعالج . ثم قال : « إنى أعلم أنك تحبين يورى فلعل هذا ما يكرهك ؟ » . فتمتمت سينا وشدت كفها على كف : « لست بعاشقة أحد » . فقال سانين مستعظنا : « لا تحملى لى ضغنا . إنك كما كنت جمالا وحسنا وقدرة على إيتاء يورى ما أوليتنى إياه من السعادة وإننى لأتمنى لك من أعماق قلبي كل غبطة ميسورة ونعمة ممكنة وسأتملك دائما كما رأيته البارحة . فالوداع وابعثى في طلبى إذا احتججت إلى . واعلمي أن حياتى مبدولة لك إذا أردت » . فنظرت إليه سينا وهى صامته وأحست عطفها عجيبا وقالت لنفسها : « من يدزى ؟ ربما استقامت الأمور » . وتجرد المستقبل من البشاعة في نظرها ووقف الاثنان وجهها لوجه وهما يعلمان أن فى صدرهما سرا لاسبيل لأحد إليه وأن ذكرته ستبقى على الأيام سارة . وقالت سينا : « إلى الملتقى » بصوت رقيق عذب فأضاء السرور وجه سانين ومدت إليه كفها فقبلها وقبلته قبلة الأخوين ورافقته إلى بوابة الحديقة ثم وقفت وجعلت تراقبه أسفة وهو يمضى عنها ثم كرت راجعة إلى الحديقة واستلمت على النجاثل

وأغمضت عينها وفكرت فيما وقع وتساءلت أينبغي لها أن تطلع يورى عليه أم تكتمه . وقالت : « كلا ! لن أفكر فى هذا مرة أخرى وبحسن أن تنسى بعض الأمور » .

— ٤٠ —

استيقظ يورى صباح اليوم التالى متوعكا مصدع الرأس مر القم . ولم يذكر فى أول الأمر إلا صيحات وأصوات كؤوس وضوء مصابيح خابية قرب الفجر ثم ذكر كيف أن شافروف وبيتر الليتش مضيا وأنه بقى مع إيفانوف وكان هذا قد اصفر من كثرة الشراب ولكنه ظل متأسكا وأنها وقفا يتحدثان فوق الشرفة .

ولم تدع لهما الحمر عينا تنظن إلى جمال الفجر والمروج والنهر وظلا يتناقشان وأثبت إيفانوف ليورى أن أمثاله لا قيمة لهم إذ كانوا يخافون أن يقطنوا ثمار الحياة وأن خيرا لهم أن يموتوا وذكر قول بيتر الليتش : « إني على التحقيق لا أدعو هؤلاء الأشخاص رجالا » وضحك وتوهم أنه هدم يورى وقضى عليه ولكن يورى لم يسؤه ذلك ولم يعبا من كلامه إلا بقوله إن حياته شقية وذهب يعلل ذلك بأن أمثاله أدق حسا وألطف شعورا ووافق على أن خيرا لهم أن يخرجوا من الدنيا ثم طغى حزنه حتى كاد يبكى وهم بأن يخبر إيفانوف بحبه لسينا وما وقع له معها وأن يلقي بشرفها تحت قدمى هذا الوحش .

وذكر أيضا أن إيفانوف عاد بعد برهة ومعه سائين وأن سائين كان منشراح الصدر كثير الكلام وأنه كان ينظر إلى يورى نظرة ود مشوبة بالزراية ثم انتقلت خواطره إلى سينا فقال لنفسه : « لقد كان من الحسة أن أنتهز فرصة ضعفها . ولكن ماذا أصنع الآن ؟ أنا لها ثم أرمى بها . كلا ! هذا لاسبيل إليه فلانى أرق قلبا من ذلك إذا ماذا أفعل ؟ أتزوج منها ؟ » .

الزواج ! إن هذا مبتذل إلى حد شنيع . وكيف يستطيع من كان مثله . معقد الزواج أن يحتمل فكرة المعيشة الزوجية العامة ، إن هذا مستحيل : « على أنى أحبها . فهل أبذلها وأبضي ؟ ولماذا أقضي على سمعاتي ؟ إن هذا فظيع ومضحك ! »

ثم وصل إلى البيت وحاول أن يصرف خواطره عن هذا الموضوع فجلس إلى المكتب وشرع يقرأ بعض عبارات فخمة كان قد كتبها أخيراً . « ليس في هذه الدنيا خير ولا شر . ويقول البعض إن الطبيعي خير وإن الإنسان حقيق أن يرضى شهواته » « لأنها طبيعية ولكن هذا خطأ لأن كل شيء طبيعي . وما من شيء يولد في الظلام أو الفراغ . وأصل كل شيء واحد » ..

« ويقول آخرون كل شيء يخرج من يد الله حسن . ولكن هذا أيضاً خطأ لأن الله إذا كان موجوداً مصدر كل شيء حتى الكفر . وهناك آخرون يقولون : إن الخير هو فعل الخير والإحسان إلى الناس . وكيف يكون ذلك ؟ إن ما ينفع واحداً يضر غيره ، يطلب الرقيق حريته . ويستبقه سيده عبداً رقيقاً . والغنى يبغى بقاء ثروته ، والفقير ينشد ، وينشد المظلوم الإنصاف والحرية ، والظافر أن لا يهزم ، والمشتوه أن يحب ، والحى أن لا يموت ، والإنسان أن يقضى على الوحوش ، والوحوش أن تفرس الإنسان — هكذا كانت الحالة في البداية وهكذا ستظل إلى آخر الدهر ، وليس من حق إنسان كائناً ما كان أن يستأثر بما هو خير له وحده » .

« ويقول الناس إن الحب خير من البغض ، وهذا أيضاً خطأ لأنه إذا كان ثم جزاء فخير على التحقيق للمرء أن لا يذهب إلى الأثرة والأنانية ، ولكن إذا لم يكن ثم جزاء فخير له أن يفوز بنصيبه من السعادة تحت الشمس » .

ومضى يورى في تلاوة هذا الذى كان كتبه وهو يظن أن خواطره

هذه مدهشة العمق وقال لنفسه : « إن هذا صحيح » واستشعر الزهو . ثم مضى إلى النافذة وأطل على الحديقة حيث كانت الأرض مغطاة بالأوراق الصفراء فأحس أن لون الموت يطالعه من كل ناحية وصار حينئذ أدرك بصره يرى أوراقا ذابلة وحشرات ارتفعت حياتها بالحرارة والدفع ولم يستطع يورى أن يفهم هذا السكون وملاً الصيف المنصرم قلبه بالسخط فقال : « لقد زحف الخريف وسيتلو الشتاء والجليد ثم الربيع فالصيف فالخريف كرة أخرى وتدور الأعوام دورتها الأبدية المملة . وماذا أصنع طول هذا الزمن ؟ ما أنا صانعه الآن ؟ كلا فسأكون أبدا حسا وأكل ذهنا ثم يوافيني الحرم وفي عقبه الموت » .

وغزت ذهنه الخواطر التي كانت تربكه أبدا فراح يتوهم أن الحياة قد مرت به وأنه ليس في الدنيا وجود خاص — حتى حياة الأبطال تكون مفعمة بدواعي الملل والشجن في مفتحتها وخالية من بواعث السرور في ختامها . ثم صاح : « عمل ! نصر من أى نوع ! انتقدتم أحمد بلا خوف ولا ألم ! هذه هي الحياة الحقيقية الوحيدة » . وخطر للذهن ألف عمل كل منها أفحل من الآخر فأغمض عينيه فمثل لحيائه منظر الصباح في بطرسبرج وبدأت أسوار مرتفعة بينها مشنقة . وتصور فوهة مدس ملتصقة بجبينه وخيل له أنه يسمع صوت انطلاقه على وجهه فقال : « هذا هو الذى يدخره القادرى ! هذا مصيرى ! » . فخنفت أعمال البطولة وحل محلها إحساسه بالعجز وخيل له أن ما يحلم به من الأعمال الخبيثة ليس إلا أوهاما صيدانية . فقال : « لماذا أفصحى بنفسى أو أحتمل الإهانة والموت لانتقى طبقات العمال في القرن الثانى والثلاثين آلام الجوع والفقر الجنسي ؟ إلى الشيطان بكل من في الدنيا من العمال وغير العمال ! بودى لو ضربنى بعضهم برصاصة ! نعم أود أن يقتلنى بعضهم بضربة من خنفي حتى لا أحس شيئا . ما هذا الكلام الفارغ ؟ ولماذا أطلب أن يفعل غيرى هذا ؟ ألا يمكن أن أفعل أنا ذلك ؟ هل بلغ من جبنى أن لا أستطيع

أن اختصر هذه الحياة التي أعلم أنها حياة شقاء محض ؟ إن المرء يموت لاحالة
 فخير ... » ودنا من المكتب الذي فيه مسدسه وأخرج منه وقال : « لنفرض
 أني جربت ! لا لأقتل نفسي فعلا بل على سبيل التلهي والمزاح ... » ووضع
 المسدس في جيبه وخرج إلى الشرفة المؤدية إلى الحديقة وكانت الأوراق
 الصفراء منتشرة على الدرج فرفسها برجله وأطارها في كل ناحية وصفر
 لحنا شجيا حزينا . فسألته لياليا : « ما هذا اللحن ؟ أهو رثاء لشباك الراحل ؟ »
 وذهبت إليه فقال : « لا تهذي » وأحس منذ هذه اللحظة أن شيئا يدنو منه
 وأن لا طاقة له على دفعه فراح يتنقل في أرجاء الحديقة وهو مضطرب ومضى
 إلى النهر حيث كانت الأوراق الداوية عائمة على صفحته . وظل
 برهة يرقب الدوائر تنداح على سطح الماء والأوراق ترقص ثم كرم إلى
 البيت ووقف في طريقه يتأمل أحواض الزهر وكانت فيها بقية منه ثم انقلب
 إلى الحديقة وكانت فيها شجرة بلوط خضراء الأوراق وعلى مقعد في ظلها
 قفا فرمته يورى واغرورقت عيناه وجعل يكرر : « أن هذا هو المنتهى »
 وكانت هذه الألفاظ تتعق من نفسه موقع السهم فعاد يقول : « كلا ! ما هذا
 الهراء ؟ إن حياتي كلها لا تزال أمامي وإني مازلت في الرابعة والعشرين من
 عمري . كلا ليس هذا بالذي يقضى . وما هو ؟ » وذكر سينا فجأة وخطر
 له أنه من المستحيل عليه أن يقابلها بعد ذلك المنظر الفاضح في الغابة والخبر
 له أن يموت ... وقوست القطعة ظهرها وماءت فراقها يورى باهتمام ثم جعل
 يمشى جيئة وذهوبا ويقول : « إن حياتي مملّة جافة .. ولا أدري ... كلا !
 إن الموت أهون من لقاءها ! » .

فزابت سينا حياته وانبسط أمامه المستقبل باردا فارغا موثسا فقال
 « خير لي أن أموت » . وفي هذه اللحظة مر السائق وفي يده دلو ماء
 تغطى سطحه الأوراق الداوية الصفراء وبدأت الخادمة في حرم الباب ونادت
 يورى فكث برهة لا يفهم ما تقول ثم قال لما أدرك أنها تدعوه إلى الطعام
 (١٩ م - ابن الطبيعة)

«نعم نعم .» وحدث نفسه : الطعام ؟ أتناول طعاما ! ما أقطع هذا ! كل شيء سيكون على العهد به : أعيش وأقطع قلبي بالتساؤل عما ينبغي لي أن أصنعه لسينا ولحياتي وأعمالي ؟ إذا فلا بد من التعميل وإلا لم تبق في الوقت فسحة إذا ذهبت إلى الطعام .» وغلبته الرغبة في الإسراع فراح كل عضو من أعضائه يردد وأحس أنه لن يحدث شيء ولكنه كان على هذا يشعر أن الموت يرتق فوقه وكانت الخادمة لا تزال واقفة في الشرفة ويداعها تحت منشئتها. تنشق نسيم الخريف الرقيق فتسلل يورى كاللص وراء شجرة البلوط حتى لا يراه أحد من الشرفة وأطلق مسدسه بسرعة مدهشة على صدره وخيل له أن النار أخطأته ففرح وعادته الشوق إلى الحياة والفرح من الموت فصرخت الخادمة وارتدت إلى البيت وما هي إلا برهة ثم رأى يورى حوله جمهورا من الناس وصب أحدهم ماء باردا على رأسه ولصقت ورقة ذاوية بجبينه وضابقتة وسمع أصواتا عالية من حوله وبكاء ونداء : « يورى ! يورى ! لماذا ؟ لماذا ؟ فعرّف أنها أخته لباليا وفتح عينيه وأخذ يغالب الموت بعنف وصاح : « إلى بطيب عجلوا » ولكنه أحس مع هذا أن الأمر قد قضى وأنه لا سبيل إلى نجاته وثقلت الورقة الصمراء على جبينه وضغطت على ذهنه فط عنقه مستوضعا ولكن الأوراق ظالت تكبر في رأى عينه حتى دون النظر ولم يدر يورى ماذا حدث بعد ذلك .

أسف كل امرئ على يورى سواء في ذلك من أحبه ومن ابغضوه ومن احتقروه ومن لم يفكروا فيه . ولم يفهم أحد منهم باعثه على الانتحار وإن كانوا يظنون أنهم يعلمون وأن في أعماق نفوسهم بعض ما خامر نفسه . ولم يشبهه من أهله أحد لأن أباه كان قد أصيب بالفالج

ولم يسع أخته لباليسا أن تتركه فتاب ريبازانتريف عن الأسرة وتولى الإشراف على الجنازة والدفن وكان لهذا وقع مخزن في نفوس المشيعين وغمر النعش بورود الحريف الجميلة ووسد يورى بين بيضائها وحرانها هادئا ساكنا ليس على وجهه أقل أثر للعراك أو الألم .

ولما مرت الجنازة ببית سينا لحقت بها هى وديوفا وكانت سينا مكسورة القلب مضطربة كأنما يسوقها سائق إلى إعلان فضيحتها وكانت على يقين من أن يورى لم يسمع بما أصاب عفافها ولكنها على هذا رأت علاقة بين هذا وموته وكانت قد قضت الليل فى البكاء وفى تقبيل وجه حبيبها المرتسم فى خيالها وطلع الصبح فاكتظ قلبها بحبه ومقت سائين واستفظعت كل ما قاله لها سائين وكانت قد آمنت به فلما دنا منها وهى سائرة فى الجنازة نظرت إليه نظرة فزع واستبشاع وانصرفت عنه وأدرك سائين لما سلم عليها تتل ما تحسنه وتفكر فيه وعلم أنهما بعد اليوم غريبان فغض شفته وانضم إلى إيفانوف وقال له : « اسمع ! إن بيتر الليتش سيموت تريتلا ! » فقال إيفانوف « ما أغرب هذا الضعف ! يقتل نفسه فى لحظة ! » فأجابه سائين : « إن اعتقادى أنه قبل أن يطلق مسدسه بثلاث دقائق لم يكن بدري أينتحر أم يحيا . لقد مات كما عاش » . فقال إيفانوف : « إنه على كل حال قد وجد لنفسه مكانا » . وتلقت الأرض يورى . وفى هذه اللحظة — حين كاد النعش يخفى عن النظر وتفصل الأرض إلى الأبد بين من عليها ومن تحتها صرخت سينا فتجاوبت المتبرة بصرختها وعويلها ولم يعد يهمها أن تكتم سرها فوضوا بها عن القبر وهيل التراب وسوى ورفعت عليه بعض الصوى .. وقلق شافروف وقال : « أليس من يرثيه ؟ أيها السادة إن هذا لا يليق ! لا بد من تأبينه » .

فقال إيفانوف مقترحا بخبث « اطلب من سائين ذلك » .

فقال شافروف : « سائين ؟ وأين هو ؟ آه فلاديمير سائين هل تفضل
بالقاء كلمتين ؟ إننا لانستطيع أن نغضى دون أن نرثية » .

فقال سائين بخفوة : « إذا فارثه أنت » وكان يصغى إلى سينا وهي
تبكى بعيداً عنهم فقال شافروف : « لو استطعت لفعلت إنه كان حقيقة . .
رجلاً نادراً . . أليس كذلك ؟ قل من فضلك كلمة ! » . فنظر سائين إليه
شزراً وقال بلهجة المغضب .

« ماذا عسى أن أقول ؟ لقد نقصت الدنيا مجنوناً . هذا كل ما فى الأمر »
فوقعت هذه الكلمات أوضح ما تكون على مسامع الحاضرين وبلغ من ذهولهم
أن لم يجدوا جواباً ولكن ديوفا صاحت بصوت عال : « يا للفضيحة ! »
فسألها سائين وهز كتفيه : « لماذا ؟ » فهمت ديوفا بأن تصيح فى وجهه
وأن تهدد بقبضة يدها ولكن رفيقاتها منعنها وتفرق الجمع بغير نظام وكانت
عبارات الاحتجاج تخرج من كل فم ونشلت المشيعون كالأوراق البذابة
عصفت بها الريح وجرى شافروف ثم ارتد ووقف ريارانتريف مع بعضهم
يومئذ إيماءات عنيفة . وكان سائين غارقاً فى خواطره يحدق فى وجه رجل
على عينيهِ نظارة ثم التفت إلى إيفانوف وكان مرتبكاً ولم يكن يقدر حين
أحال شافروف عليه أن يكون هذا رده فأسف وكان إلى جانبه شاب يتكلم
بحرارة فسمرد إيفانوف بنظرة وقال له : « يظهر أنك تظن أنك حلية وزينة »
فخجل الشاب وقال : « ليس فى هذا ما يضحك » . فصاح به إيفانوف : « لعنك
الله اذهب عني ! » وكانت نظرتة من العنف بحيث لم يسع الشاب إلا
المضى . وكان سائين يراقب ذلك فابتسم وقال : « ما أحدهم جميعاً ! »
فقال إيفانوف « هيا بنا ! إلى الشيطان بهم »

ومرا فى طريقتهما بريازانتريف ورأى سائين زمرة من الشبان لا يعرفهم
واقفين ورأس كل منهم إلى رأس صاحبه وفى وسطهم شافروف يتكلم
ويومئء فلما دنا منهم سائين سكتوا جميعاً لينظروا إلى سائين وفى

وجوههم امارات السخط والغضب والاستغراب فقال إيفانوف « إنهم يأتمرون بك » واستغرب نظرة سائين الحزينة وتقدم شافروف ودنا من سائين فالتفت هذا إليه بخدة كأنما يتهاى لأن ينفض به الأرض . ويظهر أن شافروف أدرك ذلك فقد أصفار ووقف على بعد وحف به الطلبة والفتيات كالأغنام وسأله سائين : « ماذا تريد غير ذلك ؟ » . فقال شافروف وهو مرتبك : « إننا لانريد شيئاً ولكن كل زملائى يريدون أن أعرب عن سخطهم . . . » فقال سائين وأسنانه مطبقة : « ما أعظم اهتمامى بسخطكم ! لقد سألتنى أن أقول كلمة عن الميت فلما صارحتكم برأى جئت تعرب لى عن سخطك . وهذا حسن منك . ولولا أنكم زمرة من الصبيان الحسقى المرورين لأثبت لكم أنى مصيب وأن حياة يورى كانت حياة سخيفة لأنه قضاها فى التساؤل عن كل ما لا يجدى ثم مات ميتة الحسقى - ألا أنكم جميعاً لا كئف ذهنأ وأضيق عقلا من أن تستحقوا الكلام . فإلى الشيطان بكم جميعاً . أذهبوا عني ! » . ولم يقلها حتى انطلق يشق لنفسه طريقاً بينهم فقال شافروف : « لاندفعنى من فضلك » وصاح بعضهم « لم أر أوقع ... » ولم يتم عبارته . وسأله إيفانوف : « ما الذى يخيف اناس منك ! إنك تفرعهم أشد الفرع ! »

فقال سائين : « لو ضايقت هؤلاء الشبان بأرائهم الخرقاء فى الحرية لعاملتهم بأحسن من معاملتى لهم فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم . . »

فقال إيفانوف « دعنا من هذا يا صديقى . هل تدرى ماذا يجب أن نصنع ؟ نشترى شيئاً من الجمعة ونشرها على ذكرى يورى » .
فقال سائين بدون اكتراث « إذا شئت »

ومضى إيفانوف فى تفصيل اقتراحه فقال : « أن يكون هناك أحد حين نعود . فلنشرب الجمعة بجانب القبر ولانفقيد احترامنا ولأنفسنا المتعة » .
فقال : « حسن جداً » . ولم يكن على القبر أحد حين عاد فجلسا وماكادا

يفعلان حتى خرج من الثراب ثعبان أسود فطيع فصاح إيفانوف وهو يرعش « ثعبان .. ثم شربا وألقيا بالزجاجات الفارغة على الحشائش المغروسة على القبر الجديد .

(٤٢)

قال سائين لإيفانوف وهما يجتازان الشارع في المساء : « اسمع ! قال : « ماذا » ، قال : « تعال معي إلى المحطة فأني مززع رحىلا » فوقف إيفانوف وسأله عن السبب فقال سائين : « لأنى مللت هذا المكان » فقال إيفانوف « أترى أخافك شيء ؟ » أجاب : « أخافى أنى راحل لأنى أريد ذلك » قال : « نعم . ولكن ما السبب ؟ » .

أجاب : « يا صديقى لا تسأل هذه الأسئلة السخيفة . إنى راحل وكفى وما دام المرء لم يستبطن الناس فقد يبقى له أمل فيهم . ولكن تأمل بعض من نعايشهم هنا : خذ مثلا سينا أو سمينوف أو ليذا نفسها التى كان يمكنها أن لا تكون عامية النفس أوه ! إنهم يضجروننى الآن وقد مللهم وأضنتنى معاشرتهم وطال صبرى عليهم واحتالى لهم ولم تعد لى طاقة على ذلك » .

فحدث إيفانوف فى وجهه قليلا وقال : « تعال ! إنك لاشك ستودع أهلك ؟ » . فقال سائين « كلا ! لست من يفعل ذلك فإنهم هم الذين أملونى .. » . أجاب : « ولكن أين أمتعتك ؟ » .

قال : « ليس عندى شيء كثير . وإذا انتظرتنى فى الحديقة ذهبت إلى غزفتى وألقيت إليك بالحقيبة من النافذة حتى لا يكثروا من السؤال عن الأسباب والدواعى وعلى أى سبب هناك ما أقوله لهم ؟ » .

فقال إيفانوف « حسن . وإنى لأسف جدا لسفرك يا صديقى ولكن .. ماذا أستطيع . أن أصنع لك ؟ » أجاب : « تعال معى » .

فقال «أين؟». أجاب: «إن المكان لا يهم. وفي وسعنا أن نفكر في هذا فيما بعد فقال: «ليس معنى مال». فضحك سائين وقال: «ولا أنا». أجاب: «كلا! إذا فأذهب وحداك. وستبدأ المدرسة بعد أسبوعين فأعود إلى المحررى القديم». ونظر كل منهما إلى صاحبه ثم صرف إيفانوف وجهه وهو مرتبك كأنما كان رأى صورة مشوهة لوجهه في مرآة. واجتاز فناء البيت ودخل سائين من الباب وانظر صاحبه في الحديقة المظلمة تحت نافذة سائين.

أما سائين فإنه لما مر بغرفة الاستقبال سمع أصواتا آتية من الشرفة فأصغى فإذا ليذا تقول: «ولكن ماذا تريد مني؟».

فقال نوفيكيوف: «لا أريد شيئا. ولكن يحيل لى أنه من الغريب أن تظنى أنك ضحيت بنفسك يا ليذا من أجل على حين أتى أنا...» فقالت ليذا بصوت متهدج: «نعم نعم. أعلم ذلك وأعلم أنك أنت الذى يضحي بنفسه لأنا. فإذا تريد أكثر من ذلك؟».

فتضابق نوفيكيوف وقال: «ما أقل فهمك لما أعنى! إني أحبك فليس في الأمر تضحية. ولكن إذا كنت تظنين أن في زواجنا تضحية بك أو في فكيف نستطيع أن نتعايش؟ أرجوك أن تفهمي. إننا لا نستطيع الحياة معاً إلا على شرط واحد هو أن لايجرى في وهم أحد منا أن في الأمر تضحية ما. وأما أن نكون متحابين وحينئذ يكون زواجنا معقولا وطبيعيا، وإما أن لا نكون متحابين وحينئذ...» فشرعت ليذا تبكي فجأة، فصاح نوفيكيوف: «ماذا دهاك؟ إني لأفهمك. لم أقل شيئا يسيتك لا تبكي. الحق أن المرء لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة».

فقالت ليذا وهي تبكي: «لا أدري.. ولكن..».

فقطب سائين أسرته ودخل غرفته وقال لنفسه: «وهذا كل ما وصلا إليه؟ لعله كان خيرا أن تغرق نفسها!».

وكان إيفانوف: منتظرا تحت النافذة يسمع حركة سائين وهو يجمع امتعته فقال: «أسرع». فقال سائين ودلى إليه الحقيبة «خذ». ولما تناولها وثب سائين وراءها وقال «هيا بنا».

وأسرعا فاجتاز الحديقة وكانت الشمس قد انحدرت ولما بلغا محطة السكة الحديدية ألغيا المصابيح مضاءة ووجدوا قاطرة تنفخ والناس يعدون ذات اليمين وذات الشمال وبصرا بزمرة من الفلاحين يشغلون جانباً من الإفريز بأشخاصهم وحزمهم الكبيرة

وشرب سائين وإيفانوف كأسى وداع وقال إيفانوف: «رحلة سعيدة إن شاء الله». فابتسم سائين وقال: «إن كل رحلاتي سواء لست انتظر من الحياة شيئاً أو أسأله شيئاً. أما من حيث الحظ والسعادة فلن يبق من ذلك كثير حتى شارفتنا النهاية — الهرم والموت: يكاد يكون هذان كل ما ذخّر لنا». ثم خرجا إلى الإفريز وانتحيا منه ناحية خالية ساكنة وقال إيفانوف «الوداع مع السلامة!». أجاب: «الوداع!» وتلاهما وهما لا يدریان الدافع لهما. وصفرت القاطرة وبدأت تتحرك فقال إيفانوف: «يا صديقي لقد أصبحت كلفاً بك. وإنك للرجل الوحيد الذى صادفته فى سياتى». فقال سائين وهو يتبسم: «وأنت الرجل الوحيد الذى اهتم بى» ووثب إلى إحدى المركبات وهى مارة به وصاح: «هكذا أرجل. فالوداع» وأسرعت المركبات أمام إيفانوف كأنها قررت أن ترحل مثل سائين وبدأ من آخرها الضوء الأحمر فى ظلام الليل ولما نأى خيل لرائيه أنه جامد فى مكانه. وظل إيفانوف يرقبه برهة وبغسه حسرة ثم كر إلى الشوارع المضاءة وقال لنفسه: «أغرق همى؟» ثم دخل حانة ودخلت معه صورة حياته الشوهاء المملة وكالشبح.

— ٤٣ —

كانت المصابيح فائرة الضوء فى جو القطار الخالق وجلس سائين بجانب ثلاثة من الفلاحين وكانوا يتحدثون ساعة دخل عليهم وأحدهم يقول: «إن الأحوال سيئة». فقال ثانيهم وكان جار سائين: «لا يمكن أن تكون أسوأ. إنهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم أما نحن فلا يكثر ثون لنا أو يعبأون بنا. قل ما بدالك متى وصل الأمر إلى الدفاع عن النفس فالساعة للأقوى».

ففسألم سائين: «إذا فما فائدة هذه الضجة؟» وكان قد حذر موضوع الكلام. فالتفت إليه أكبرهم سنأ ولوح بيده وقال: «ماذا نصنع غير ذلك؟».

فنهض سائين وغير مكانه وكان خبيراً بهؤلاء الفلاحين الذين يعيشون كالدواب ولا يستطيعون أن يدفعوا الظلم أويقضوا على الظالم ويهلقون أمهم بمعجزة يموت في انتظارها الملايين منهم .
وكان الليل قد بسط رواقه ونام كل إمريء ما عدا تاجراً قبالة سائين كان معه امرأة صغيرة لم تقل شيئاً ولكن عينها كانت فزعة وكان الرجل ينظر إليها شزراً ويقول أيتها البقرة ! سأريك !» .

ونام سائين فترة من الليل حتى أيقظته صرخة من المرأة فنحى زوجها يده عنها ولكن سائين أدرك أنه كان يضربها فصاح به : « يالك من وحش ! ! »
فراجع الرجل وهو فزع وخرج سائين إلى مؤخرة القطار ورأى في طريقه إليها كثيرين من الفلاحين رءوس بعضهم على أجسام البعض وكان الفجر قد أوشك أن يطلع فوق سائين ينشق نسيم الصباح العليل وقال : « ما أحقر الإنسان » . ونازعته نفسه أن يعتزل الناس ولو برهة قصيرة وأن يترك القطار وجوه الملوث ودخانته وضجته . ولج به الشوق إلى الخلاص من كل ذلك .

وكان الأفق في الشرق قد احمر وغابت ظلال الليل في زرقة الأفق . فلم يضيع سائين الوقت في التفكير بل ترك حقيقته ووثب من القطار إلى الأرض . ومر به القطار يمثل صوت مرعد وهو ملقى على الرمال البليلة اللينة فلما نهض كان المصباح الأحمر قد بعد عنه فأخرج سائين صيحة فرح وقال : « هذا حسن » .

وكان كل ماحوله طليقاً شاسعاً والحقول والمزارع منبسطة على الجانبين إلى الأفق فتنفس سائين نفساً عميقاً ورى هذا المنظر بعينين وضاعتين ثم سار ووجهه إلى الفجر اللامع وخيل لسائين وهو يرى السهول تستيقظ وتكتسى حلتها البيضاء تحت قبة السماء وأشعة الشمس تنطلق كالسهم النارية التي يطلقونها في ليالي الأفراح

— خيل إليه إنه سائر إلى لقاء سعيد في جنة فيحاء

تمت بحمد الله

التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

